يوسف سامي اليوسف

تلك الأيام

الجزء الثاني

إلى

ع. ص.

إن كان هذا الكتاب يصلح هديةً للغِياب

كل شيء يُخل بواجبه تجاه روحي

يوسف

مدخل

ابتداءً، لا بد من التأكيد على أن الكارثة الربداء التي نزلت بالشعب الفلسطيني في عام النكبة قد كانت من صنع اللؤم الغاشم الكالح الذي لا يجهل الرحمة جهلاً مطبقاً وحسب، بل يجهل العقل والعقلانية أولاً وقبل كل شيء، حتى ليجوز القول، دون حرج، ودون مراء، بأن اللؤم هو المحرك الأكبر للتاريخ. وفضلاً عن ذلك، فإن تلك الكارثة الهائلة لم يكن لها البتة أي مسوّغ يسوغها، مهما يك نوعه، بل إن بناء الغيتو الصهيوني (=حارة اليهود) على أرضنا المغتصبة هو فعل لا لزوم له قط، إذ كان في الميسور أن تبنى لليهود دويلة في كندا، أو في أمريكا اللاتينية، حيث الأرض لا تخص أيما شعب سوى الهنود الحمر الذين استأصل الغربيون شأفتهم، أو أبادوهم بكل لؤم حتى لم يبق منهم سوى النزر اليسير. فإذا ما حصل اليهود على أرض دون ابتزاز أو اغتصاب، فإن أمنهم سوف يكون مضموناً أكثر مما هو مضمون في الظرف الراهن، أي بعدما نكبوا الشعب الفلسطيني ودمروا كيانه التاريخي وشردوه صوب كل أفق وتحت كل سماء.

إذن، أن يبنى لليهود صنف من أصناف الغيتو على أرض فلسطين هو الحماقة بأم عينها، وذلك لأن التاريخ الذي أفرز الشروط الكفيلة بنشوء ذلك الغيتو سوف يفرز، وبحتمية مطلقة وقاهرة، شروطاً تكفي لدكه دكاً، ثم لإزالته من الوجود وإلى أبد الآبدين، ولو بعد ألف سنة. وهذا يعني أن الذين أسسوا الغيتو، وهم كائنات بلهاء، أو مغمى عليها، قد أسسوا نكبتين في آن معاً، أولاهما عطبت الفلسطينيين وانتهى الأمر، وثانيتهما سوف تعطب اليهود ذات يوم، لا محالة، ولكن في الوقت المناسب. (تقول التوراة: لكل شيء وقت.) وعندي أن الغيتو الصهيوني الذي حتم عليه التاريخ أن يكون قميئاً ضئيل المقدار، وطفيلياً، أو عالة على سواه من المجتمعات، قد نبع من آبار النفط العربية، وأنه سوف يجف يوم تجف تلك الآبار التي كانت نقمة على العرب أكثر مما كانت نعمة أو بركة.

يا إلهي الطيب، إن اللعنة لا تنام ولا تركد ولا تعرف الهدوء.

وأما أعجب عجيبة في الزمن الحديث فهي حقيقة الغربيين الذين يحترفون النذالة والإرهاب والمجزرة، والذين اجتثوا الهنود الحمر، واقتحموا الكثير من البلدان بصفاقة وسماجة، وذلك ابتغاء نهبها وابتزازها، فضلاً عن أنهم جزروا الكثير من أهاليها بغير شفقة ولا رأفة، ولا سيما الهند والجزائر وملاغاسي، ونكبوا الفلسطينيين بكارثة مروّعة لا مثيل لها في التاريخ –نعم فعلوا ذلك كله وفعلوا ما هو أكثر منه بكثير، ومع هذا فإن من عاداهم إرهابي ومجرم ومعاد للحضارة والحرية والتقدم.

إن على الشعوب أن تنهب وتُذبح بصمت مطبق، وكل رد فعل يمكن لها أن تقوم به هو الإرهاب بأم عينه. فلكم هو شديد الاعوجاج والزوغان منطق الإمبريالية المدججة باللؤم قبل السلاح، والتي ابتليت بها الأمم ذات الاقتصاد المتخلف، واكتوت بنيران همجيتها الشرسة، وغلبت على أمرها حتى أعضل الداء ولم يعد هنالك من أمل بأي مخرج من الأزمة المفتحلة إلا باضمحلال الحضارة الصناعية الحديثة أو زوالها من الوجود.

فلا مرية في أن الغربيين يأكلون لحوم أطفال الشعوب الفقيرة، ولكن دون وازع أو رادع. وهذا يعني أن ضمائرهم مترمدة، أو قل إنهم بغير ضمائر بتاتاً، بل هم يجهلون الوجدان

والشعور الإنساني جهلاً مطبقاً، وذلك لأنهم لا يفكرون بالآخر ولا يحترمون أحداً ما لم يكن من جبلّتهم فقط. ولقد أملت عليهم مركزيتهم الأورو- أمريكية أن يعتقدوا بأن الهمجي هو الآخر، لأنه لا يملك من الأدوات والوسائل ما يماثل أدواتهم الإبليسية ووسائلهم الجحيمية. هيهات! إن الهمجي هو من حرمه التاريخ من الضمير، بل من جملة العناصر التي يصير بها الكائن البشري إنساناً يتعاطف مع آلام الإنسان ويهتم بهمومه ويعنى بمصيره. ومن أين لأولئك البهائم مثل هذا التوجه النبيل؟ فمن لم يكن من شيعة النور، أو من سلالة الألطاف الحسنى، فلا قيمة له البتة، حتى لو حاز المحال بأم عينه.

ولعل أهم ما في أمر هذه الإمبريالية التي تجسد اللؤم والخساسة أقوى تجسيد، أنها لا تتوقف ولا تكف عن العدوان والإجرام وإلحاق أشد أصناف الأذى بالشعوب، كما تفعل اليوم في العراق وأفغانستان. إن الإمبريالية تشبه وحشاً ضارياً عاتياً كلما أُطعم أكثر جاع أكثر.

* * *

وأياً ما كان جوهر الحال، فقد أنزل بنا الغربيون نكبة من ذلك الصنف الذي يملك أن يرغم الحياة على فقدان عذوبتها، أو على استحالتها إلى اعتلاف بالتبن والزؤان. ولقد جاهدنا وقدمنا سلسلة طويلة جداً من الشهداء والجرحى والأسرى. ولعل مما هو جد ناصع أن جهادنا لن يثمر على المستوى العملي إلا قليلاً. فالعدو يحيط بنا من الجهات كافة، وجميع الجيوش، دون استثناء، قوى احتياطية لليهود وتحت إمرتهم.

ولكن شهداءنا لهم نتيجة جليلة حقاً، ولا يدركها إلا من كان من أهل العزة والأنفة. لقد صنعوا شرفاً وكرامة للشعب الفلسطيني العظيم، أو للشعب الوحيد الذي رفض أن يستخذي أو يركع أمام إرادة اليهود اللئيمة. أجل سوّغنا أنفسنا في نظر المؤرخين، ورسخنا قيمنا في عالم لا يفوته شيء قدر ما تفوته القيمة والسجايا الطيبة، عالم سمح لليهود بأن يعبثوا بمصيره دون أي رادع، فما كان إلا أن أحالوه إلى هلام، بل إلى يباب.

ومما يضني الروح الحساس أن هذه البشرية البائسة لا تدرك عارها الذي يشينها ويثلبها ويجعلها تجسيداً للخساسة والنجاسة. ويتلخص مِلاك بنيتها في أنها منشطرة إلى شطرين، أولهما شعوب لاحمة تفترس الشطر الثاني الذي يضم الشعوب الواهنة العاجزة عن حماية ثرواتها وماهياتها من صولات الغربيين الإرهابيين. والطرفان مدانان أمام الحساسية الحية، لأن الأول عدواني دموي والثاني خانع راكع ذليل. ولكي تستقيم الأمور، كان على الطرف الأول أن يكف عن همجيته وأنانيته وغرامه بالمجزرة والإبادة، كما كان على الطرف المستخذي الموهون أن يتوقف عن استمرائه للذلة والامتهان. إن هذا هو وعي العار بالضبط، وإنه الوعي الأممي والإنساني الأول والأكبر. ولعل في الصواب أن يقال بأنه الخطوة الأولى في مضمار أنسنة الإنسان واسترداده من همجيته المقيتة والأخذ بيده نحو الكرامة والحضارة.

إن من شأن هذا الوضع البشري المغمّس بالعار والشنار أن يجعل الحياة بأسرها مرفوضة عند الحساسين وذوي النفوس المطهمة، أو المنتسبين إلى شيعة النور، وذلك لأنها مملوكة للعدوان والبؤس والابتزاز. ثم إن قلعة الشياطين التي تسمى الولايات المتحدة، والتي تحترف صناعة الشر والإرهاب، لم تترك حرمة في هذا العالم اليرقاني إلا وانتهكتها، بل

افتضت بكارتها بكل صفاقة ودناءة. وقد استطاعت أن تحيل كل مكان في العالم إلى كربلاء، أو ما يشبه الكربلاء. فكيف يمكن لك أن تستسيغ هذه التجربة المريرة السوداء؟ ولكن عبثاً تمسح الريال عن أشداق الممرورين.

وفي نظر الحساسين من أمثال البوذا والمعري لا تزيد هذه الحياة السرطانية عن كونها عقوبة لا يستحقها الإنسان الرفيع ذو الروح المفعمة بالطيبة والعذوبة. ولعل هذا المذهب أن يتضمن ما فحواه أن الدنيا سجن للإنسان الحساس، وأن حياته هي مدة الحكم الذي صدر بحقه دون أن يرتكب أيما ذنب أو جناية. فلا يقبل الإنسان على الحياة إلا بسبب عقله المبتسر الخديج (=عكس النضيج)، ولكنه يرفضها رفضاً حاسماً ونهائياً حين ينضج تمام النضج، أي حين يتسلح بالطاقة التدميرية، طاقة الاجتثاث الكلي التي تبذ جميع أسلحة الدمار الشامل، إذ ليس بعد النضج إلا الذبول والسقوط، أو الولوج في مملكة العدم. فما يعنيه النمو البالغ إلى أقاصيه يتلخص في أن يتسلح الذهن بالطاقة التدميرية التي تصير سجية من سجاياه في تلك البرهة الحاسمة أو النهائية. إنها طاقة الاستئصال التي لا تصمد أمامها أية بنية مهما يك نوعها.

يقيناً، إن العقل البشري، وليس اللاعقل، هو مصدر الخطر الأكبر على الحياة، وذلك لأنه لا يقبلها إلا حين يكون سادراً في طور الخِداج، الذي هو طور الفجاجة والنقصان. ومن شأن هذا الزعم أن يتضمن ما فحواه أنه ما من شيء، أياً كان نوعه، يملك أن يسوّغ نفسه أمام العقل النضيج بتاتاً. وقصارى المذهب أن العقل حين يبلغ الكمال يصير أعجوبة الوجود، وذلك لأنه يرفض الكون الذي أنجبه، أو الحاضنة التي احتضنته منذ كان بذرة وحسب. ولهذا، فإن الوعي، وليس اللاوعي، هو ما يتمتع بالقيمة والأهمية. وههنا يسعك الجزم بأن قاتل الأب، أو الأم، هو العقل، وليس الأوديب.

*   *   *

لقد كان أمراً منطقياً جداً أن ينتهي الجزء الأول من سيرة حياتي بانتهاء عام النكبة، ولكن أين ستكون نهاية الجزء الثاني، يا ترى؟ ربما جاز لي أن أضع نهاية هذا الجزء في سنة 1975، وذلك لجملة من الأسباب الوجيهة، لعل أولها أنني نشرت أول كتاب لي، وهو "مقالات في الشعر الجاهلي"، خلال تلك السنة حصراً. وأما ثانيها فهو أنني قد أتيح لي أن أسافر في ذلك العام نفسه إلى خارج العالم العربي لأول مرة في حياتي. ثم إن تلك السنة، مع السنوات الثلاث السالفة، قد شهدت بداية الفورة النفطية التي غيرت بنية العالم برمتها، والتي أحدثت طوراً جديداً في التاريخ البشري كله، إذ جاءت بأجهزة فيزيائية لم يكن لها وجود من قبل، ولا سيما الإنترنت، فصار الاتصال مألوفاً ميسوراً إلى حد بعيد. والأهم من ذلك أنها جعلت البضائع من الوفرة بشكل لم يسبق له نظير من قبل.

فلا حاجة بي للتأكيد على أن الربع الثالث من القرن العشرين، وهو ما سوف تدور فيه أحداث هذا الجزء الثاني من سيرة حياتي، هو طور كانت الدنيا خلاله لم تزل تحتفظ بالكثير من البكارة والطهارة، أي أن الحياة قد كانت معجونة بالرونق والعذوبة. كما أن العالم العربي الذي تملكه طبقة خائنة متحالفة مع الامبريالية والصهيونية، قد خبر في ذلك الطور حراكاً

سياسياً حياً لم يعرف له شبيهاً منذ مئات السنين. ومع أنه مترع بالحروب والنكبات (لعل أبرزها المجزرة التي ارتكبت في اندونيسيا سنة 1966، على يد سوهارتو وزبانيته، والتي راح ضحيتها مليون إنسان، وفقاً لما ذكرت الصحف)، فإن الهزيمة كانت حصة الإمبريالية في تلك الآونة، حتى تبدى انتصار الإنسان حتمية تاريخية بعد حرب كوريا والجزائر، وكذلك بعد حرب فيتنام التي انتهت سنة 1975. لقد كان ذلك العهد مفعماً بالأمل، ولكن لا يحدث إلا طبع الأشياء، ولا يظهر إلا ما هو مدخر فيها أو مضمر ومكنون. وتلكم هي الحتمية التي لا بد منها.

أما الطور الأخير الذي أراه يرقانياً محموماً، والذي سوف يكون موضوع الجزء الثالث من هذه السيرة الذاتية، فقد عادت فيه الإمبريالية إلى الظفر والهيمنة من جديد. ولكن أهم ما في أمره أن الحياة قد خسرت عذوبتها خلاله، وذلك بسبب استشراء النزعة المادية وتوثين السلعة واستطارة الشرور وتفاقم خطورتها. أضف إلى ذلك التلوث وثقب الأوزون وارتفاع حرارة الأرض والازدحام الذي جعل المدن مكظوظة بالبشر والسيارات.

ثم إن العرب قد أذعنوا ورضخوا واستخذوا على نحو لم يألفوه من قبل. وفضلاً عن ذلك، فإن الثقافة الراهنة قلما تزيد عن كونها لعثمة العجمة ورطانة الهذيان. وربما جاز لي أن أزعم بأن كل شيء في حياتنا قد صار مُلهوَجاً أو مبتسراً ويجهل النضج والمتانة، بل يجهل النكهة الطيبة أو المذاق المستساغ. ولكن المؤسف حقاً أنه ما من أحد يعرف أي مخرج يفضي إلى أي انفراج.

فمما هو في حكم المؤكد أن اليهود وأدواتهم الغربيين لن يسمحوا للعرب بحيازة الركيزتين الكبريين اللتين تتأسس عليهما الحياة الحديثة: التكنولوجيا ونظام الحكم الديموقراطي، وذلك لأن حيازة العرب لهذين العنصرين الحاسمين هو الشرط الحتمي لتمكنهم من إزالة الغيتو الصهيوني البغيض. ولهذا، فإننا سوف نظل معلقين بين الحداثة والتخلف، وسوف لن نتمكن من الدفاع عن هويتنا ولا عن مصالحنا الحيوية. وهذا يعني أن ثرواتنا سوف تظل منهوبة إلى أجل غير مسمى، يتقاسمها حلف مثلث لئيم يتألف من الصهيونية والإمبريالية والطبقة الخائنة التي تحكم العالم العربي بالنيابة عن اليهود، والتي لولاها لما ذبح العراق على هذا النحو الغارق في الهمجية واللؤم.

لم يعد خافياً على أحد أن لوننا غاسق كالح سقيم في نظر الحساسين. أما غير الحساسين فلا يحسدهم عاقل على بلادتهم، حتى وإن كانت تلك البلادة هي الطمأنينة بأم عينها.

الفصل الأول
بعلبك

ثمة، إلى جوار مدينة بعلبك اللبنانية العريقة في الزمن ثكنتان عسكريتان، أولاهما بناها الإنجليز وسموها ثكنة ويفل، وثانيتهما بناها الفرنسيون وسموها ثكنة غورو. أما ويفل فهو ضابط كبير من ضباط الإنجليز، وأما غورو فهو القائد الفرنسي الذي هزم يوسف العظمة في ميسلون سنة 1920.

وأغلب الظن أن الإنجليز قد بنوا تلك الثكنة في بعلبك بعد سنة 1942 بقليل. فمما هو معلوم أن جيشاً من جيوشهم قد تحرك من فلسطين في تلك السنة وانتشر في سوريا ولبنان ليطرد أنصار حكومة فيشي الموالية للألمان يومئذ. ومن المؤكد أن غورو قد دخل دمشق فاتحاً، يجرّر أذيال الزهو والظفر، وجاء إلى قبر صلاح الدين في العاصمة السورية وخاطبه قائلاً، وهو يضع إحدى قدميه على حافة الضريح: ها نحن أولاء قد عدنا، يا صلاح الدين.

والثكنتان مبنيتان بالإسمنت المسلح، وبناؤهما متين رصين جداً، ولكن ثكنة ويفل قد هندسها الإنجليز العمليون على نحو متميز، بحيث جاءت أفضل من ثكنة الفرنسيين الضيقة وذات المباني القريبة بعضها من بعض. فقد كانت هنالك ساحة شاسعة في ثكنة ويفل، تقام على أرضها مباريات كرة القدم التي يحبها ذلك الشعب المغرم بالعدوان والنهب وإراقة الدماء. ولعل أهم ما في أمر تلك الثكنة أن فراغاتها الداخلية كانت واسعة ومريحة وتشرح نزعة المسافة والانداح. وتلكم سمة لم تتوفر لثكنة الفرنسيين الضيقة الشوارع والفراغات. وقد أخبرني أحد الإنجليز ذات يوم أن عقول الفرنسيين ضيقة، بل مغلقة. ومما هو بديهي أن العقل سوف تظهر صفاته في منجزاته العملية، أو في سلوكه الإجرائي، قبل كل شيء. ولقد جاءت هذه الآية في القرآن الكريم: "قل كل يعمل على شاكلته"، أي وفقاً لمحتوياته الداخلية.

وإلى هاتين الثكنتين جيء بآلاف اللاجئين الفلسطينيين الذي طردهم اليهود من ديارهم في عام النكبة، وذلك بالتعاون مع الأوروبيين الأخساء، وكذلك مع الأمريكيين، رعاة البقر الأوباش. وربما بلغ عددهم يومئذ تسعة آلاف نسمة في الثكنتين كلتيهما. وهذا رقم كبير جداً في ذلك الحين يوم كانت المدن في العالم العربي ضامرة إلى حد ما. وربما كان سكان مدينة بعلبك، التي تسمى أحياناً مدينة الشمس، أقل من هذا العدد قرب انتصاف القرن العشرين، إذ هي لم تزد حينئذ عن كونها قرية كبيرة يجتمع فيها القرويون الآتون من الريف القريب ابتغاء تبادل منتوجاتهم، أو ابتغاء تحويلها إلى سلع صناعية.

وسكنا في ثكنة ويفل التي صار اسمها مخيم الجليل في السبعينيات. وأقمنا في مهجع قريب من البوابة الشمالية الرئيسية، أو إلى الشرق منها، أي في الطرف الشمالي للثكنة المربعة الشكل. فالمخيم يتألف من مهاجع للجنود ومن إسطبلات للخيل، وكذلك من غرف للضباط. وكان كل مهجع أو إسطبل يحتوي على خمس عائلات أو أكثر. وراحت كل عائلة تقيم ستاراً من خيش بينها وبين العائلة المجاورة لها. أما العائلات المحظوظة فقد سكنت في غرف الضباط، وذلك يعني أن كل أسرة منها قد نالت غرفة مستقلة تماماً. وكان مهجعنا يحتوي على خمس عائلات، أي زهاء عشرين فرداً أو أكثر، إذ كانت هنالك عائلة واحدة بغير

أطفال. ولم تكن مساحة المهجع تزيد عن أربعين متراً مربعاً، وربما أقل من ذلك. وهذا يعني أن مساحة بيتنا لم تزد قط عن ثمانية أمتار مربعة.

وفي مخيم الجليل ذاك عشت زهاء سبع سنوات، هي الأكثر بؤساً وفقراً في حياتي كلها. فيوم وصلنا إلى المخيم، وذلك مساء الأول من كانون الأول سنة 1948، كان الصليب الأحمر الدولي يقدم إعاشة للاجئين. وقد أوكل تلك المهمة لمتعهد لبناني مقابل مبلغ من المال يتقاضاه عن كل فرد. وكان التسجيل قد انتهى، فكل مستجد يأتي إلى المخيم لن ينال أية إعاشة بتاتاً. وهذا يعني أنه صار حتماً علينا أن نكابد مسغبة لم نعرف مثلها من قبل.

وفضلاً عن ذلك، فإن البرد كان شديداً جداً، إذ إن شتاء ذلك العام (1948- 1949) هو أقسى شتاء عشته في حياتي كلها. فقد أخذ الثلج ينهمر إثر وصولنا إلى بعلبك، وظل ينهمر حتى أوائل نيسان. والثلج شيء لم أره من قبل بتاتاً. وأهم ما في الأمر أننا لم نكن نملك أية وسيلة من وسائل التدفئة، كما لم تكن لدينا الملابس الكفيلة بمقاومة البرد الشديد، ولا الفراش اللازم للشعور بالدفء أثناء النوم. وكان علينا أن نقاسي تلك المقاساة كلها لأن ثمة يهوداً في هذه الدنيا الحقيرة الغاشمة.

وبسبب البرد الشديد لم يكن هنالك أي عمل مهما يك نوعه. فلم تكن بعلبك يومئذ سوى بلدة ريفية فقيرة نسبياً، إذ تتعطل فيها الحركة الزراعية منذ بداية كانون الأول وحتى نهاية نيسان على وجه التقريب. وهذا يعني أنه ما كان في ميسور أبي أن يحصل على أية نقود. ولم يكن لدينا من أدوات النار سوى بابور الكاز (بريمُس) الذي كنا نستعمله في طبخ طعامنا، هذا إذا أتيح لنا أن نطبخ شيئاً من الأشياء. وما كان في مقدورنا أن نشتري من الكاز إلا ما نستهلكه في الطبخ وحده، أي إننا لم نكن نستطيع أن نستخدم ذلك الجهاز في التدفئة. ورحنا نتضور جوعاً ونكابد برداً قارساً قاضماً لم نعرف له مثيلاً من قبل ولا من بعد. وبالتأكيد كانت الشهور السبعة الممتدة بين أواخر تشرين الأول سنة 1948 وبين أواخر أيار سنة 1949 هي أسوأ فترة عشتها طوال حياتي. فبكل صدق، كثيراً ما كنا ننام بغير عشاء مهما يك نوعه في ذلك الشتاء الكالح المرير. ألا لعنة الله على اليهود وعلى كل من آزرهم ومن سوف يؤازرهم في أي يوم من الأيام، فقد جعلوا حياتنا لا تطاق، بل لا تستحق أن تعاش.

وأخذ كثير من الأطفال يموتون بسبب البرد وسوء التغذية. ولم يكن هنالك أي طب في المخيم إلا بعدما حلت الأونروا محل الصليب الأحمر، وذلك في أواسط سنة 1949. ووقعت أنا فريسة للمرض كالعادة، وبقيت مريضاً حتى انتهى الشتاء. وقد تكرر مرضى كثيراً في بعلبك. وكلما مرضت كنت أبلغ حافة الموت، أي كما كان حالي في أوائل طفولتي التي لا أعيها. ولهذا، فإنني لا أتذكر تلك الأيام الكالحة إلا ويخطر في بالي سؤال المعري المرهف النبيل: يا رب، لماذا يتعذب الأطفال مع أنهم أبرياء لا ذنب لهم؟ وهذا سؤال سوف يطرحه إيفان كرمازوف في رواية مشهورة لدستويفسكي.

وذات ليلة من ليالي شباط سنة 1949، يوم بلغ البرد أوجه في الفترة التي يسمونها أسعد الذابح، أي خلال الأيام الثلاثة عشر الأولى من ذلك الشهر، اتفق أبي، وهو شاب لم يبلغ الثلاثين من سنوات عمره بعد، مع ثلاثة رجال على أن يخرجوا ليلاً إلى البساتين الممتدة إلى الغرب من مدينة بعلبك، والشديدة القرب من المخيم، وذلك ابتغاء الحصول على الحطب من

أغصان الشجر، إذ خافوا على أطفالهم من الموت برداً. وذهبوا بالفعل والثلج يتساقط بغزارة، فضلاً عن أن الأرض كلها كانت مغطاة بالثلوج في تلك الليلة الراعبة.

وبينما هم يسيرون سقط واحد منهم في حفرة عميقة ملآنة بالثلج. وحاول الثلاثة الآخرون أن يخرجوه من مأزقه الخطير، ولكنهم لم يفلحوا. ولو بقي الرجل في الحفرة ساعة واحدة لتجمد ومات. فما كان منهم إلا أن أرسلوا أحدهم إلى المخيم ليجيء بحبل ينقذون به ذلك العاثر الحظ، بينما بقي الاثنان الآخران في المكان نفسه يؤنسانه بالكلام، فلعل الكلام أن يؤجل تجمده أو توقّف دورته الدموية. وجيء بالحبل، وأنقذ الرجل من أزمته القاتلة. ولكن الرجال الأربعة قد عادوا إلى بيوتهم بخفي حنين. إن لك أن تتخيل مرارة عيشنا في تلك الأيام العصيبة الكئيبة الكالحة.

ما من عاقل سوف يلوم الفلسطينيين لو أنهم فكروا بإطفاء الشمس، أو استئصال الكينونة من جذورها، ولو كان ذلك أمراً ميسوراً لما فكرت بشيء سواه. فلكم هو تافه ذلك الكوكب الذي يبث حرارته ويشع أنواره على المجرمين والأبرياء دون أي تمييز.

ولكن الربيع الذي أتى بعد ذلك الشتاء الاضطهادي الجائر المرير قد كان أجمل ربيع خبرته طوال حياتي. ففي شهر نوار انقلبت الدنيا إلى فردوس طافح بالنعومة والعذوبة والرقة والفتون. ولا زلت أذكر الأنسام البليلة التي تشبه الألطاف الحسنى، والتي راحت تهب بلطف في ذلك الشهر الأنيق. أما الأعشاب والزهور البرية فكانت أكثر وأجمل مما كان لدينا في بلادنا فلسطين، وذلك بفضل كمية المياه الغزيرة التي تلقتها الأرض في ذلك الشتاء الغزير الأمطار.

* * *

ودخلت المدرسة في تلك السنة، إذ إن الصليب الأحمر الدولي قد صنع من مرآب الثكنة مدرسة فيها خمسة صفوف. ولكنه ترك غرفة واسعة مجاورة للمدرسة من جهتها الشمالية لتصير مسجداً صغيراً للمصلين. وربما كانت تلك الغرفة مخصصة لإدارة المرآب في زمن الإنجليز. وكان عليّ أن أُعيد الصف الثالث الابتدائي الذي لم أتمه يوم اندلعت المناوشات في فلسطين. وفي ذلك العام الدراسي نجحت وترفعت إلى الصف الرابع. وجاءت الأونروا لتحل محل الصليب الأحمر، ووضعت يدها على التعليم في المخيمات، كما أنها أعادت تسجيل اللاجئين، فحصلنا على إعاشة شأننا شأن سوانا من الناس. ولكن الإعاشة ما كانت إلا شيئاً يسد الرمق وحسب، أو يخلص المرء من التضور جوعاً ويقيه شر المجاعة.

في الحق أن أموال الأونروا الضخمة يزدردها، منذ ذلك الحين وحتى يوم الناس هذا، أولئك الموظفون الغربيون الكبار الذين ينالون رواتب خيالية، تبلغ أحياناً إلى عشرين ألفاً من الدولارات الأمريكية شهرياً، وربما أكثر من ذلك. وفضلاً عن هذا فإنهم يسرقون حصة كبيرة من أرباح أموال الأونروا الموظفة في مشاريع تجارية وصناعية، وذلك بالتواطؤ الخسيس مع المصارف الأمريكية العملاقة. إنهم يلاحقون الفلسطيني على لقمة عيشه وعيش أطفاله المساكين. ولعل أهم ما في أمر أولئك الموظفين الغربيين الكبار أنهم عملاء للدوائر الإمبريالية الظلامية ومؤسساتها الأمنية اللئيمة في واشنطن، أي أنهم عملاء لليهود، يلعقون أحذيتهم بكل صغار.

ومع بداية العام الدراسي التالي، أو في أيلول سنة 1949، انتقلنا من مهجعنا الشمالي إلى إسطبل في الشطر الجنوبي من المخيم كانت أسرة جدي علي تحتل جزءاً منه، وذلك يوم شغر أحد البيوت، إذ إن من كانوا فيه قد رحلوا إلى جهة لا أعرفها. وفي بيتنا الجديد أنجبت أمي بنتاً سميناها مريم كسابقتها، وذلك تيمناً بسيدتنا مريم، والدة سيدنا المسيح. ولكن مريم الثانية هذه، وهي التي ولدت في شهر تشرين الثاني، عام 1949، لم تستطع أن تتحمل البرد الشديد، مع أن الشتاء الثاني قد جاء أخف وطأة من الشتاء الأول. فماتت مريم الثانية بعد شهور قليلة من ولادتها، وأرجح أن ذلك قد حدث في أوائل نيسان سنة 1950. وربما قبل ذلك بأسبوعين أو ثلاثة.

وأمضيت معظم ذلك العام الدراسي تلميذاً في الصف الرابع. وكما كانت العادة في فلسطين، أخذنا نتعلم اللغة الإنجليزية ابتداءً من ذلك العام حصراً. وهكذا بدأ أول اتصال جدي لي بتلك اللغة، أي في الخريف من سنة 1949. ولكنني قبل انتهاء العام الدراسي، أو قل في نيسان عام 1950، تشاجرت مع أحد المعلمين، وهربت من المدرسة وسافرت بالقطار إلى دمشق، حيث اشتغلت نادلاً في مطعم صغير يقع في باب الجابية. ومع أنني لم أحمل تصريحاً أو بطاقة هوية أو جواز سفر، فإن الشرطة لم تمنعني من الخروج والدخول، لا عند الحدود اللبنانية في يحفوفا، ولا عند الحدود السورية في سرغايا. وحين بلغت العاصمة السورية، لأول مرة في حياتي، كانت المدينة قد فرغت للتو من الاحتفال بعيد الجلاء في السابع عشر من نيسان. وأغلب ظني أني وصلت إليها في الرابع والعشرين من ذلك الشهر، فأنا مازلت أذكر أنه قيل لي: لو بكرت أسبوعاً واحداً لشهدت العرض العسكري الذي أقيم بمناسبة عيد الجلاء.

* * *

ولكن حادثاً يستحق السرد في هذا الموضع قد حدث قبل هروبي إلى دمشق، وخلاصته أن أهل لوبيا تشاجروا مع أهل شفا عمرو شجاراً دامياً عنيفاً جعل المخيم كله يتمور ويموج. وكان أهل تلك القرية الأخيرة كثيرين في المخيم يومئذ، وذلك قبل عودة قسم كبير منهم إلى فلسطين في تلك السنة نفسها، إذ توسطت الأمم المتحدة، أو ربما الصليب الأحمر، وتم شيء اسمه لم الشمل، فعاد إلى فلسطين المحتلة كل من له أبوان هناك، أو من له أبناء.

وبالصدفة كان معظم شبان لوبيا يعملون في مشروع من مشاريع إصلاح الطرق العامة، وذلك إلى الشمال من مدينة بعلبك. ولهذا السبب فقد دارت الدائرة على أولئك اللوبانيين الذين خاضوا الشجار ضد أهل شفا عمرو، والذين كان عددهم لا يزيد عن حفنة من الرجال. وتعرض بعضهم لضرر شديد نتيجة الضرب المبرح الذي نزل بهم من الخصوم، بل إن واحداً منهم قد أُخذ إلى مشفى تل شيحا في مدينة زحلة، وذلك بسبب ضربة فأس أصابته في رأسه. وهرب الذين عطبوه إلى ضيعة تجاور المخيم اسمها عين برداي، ظناً منهم أن الرجل المصاب سوف يموت، وأن الشرطة سوف تعتقلهم. وطاردتهم مجموعة من أبناء لوبيا الذين لم تزد أعمارهم عن خمس عشرة سنة، وأنا فيهم. وكنا كثيرين، فدهش أهل القرية من ذلك العدد الكبير المحتشد عند الطرف الغربي لقريتهم، فخرج بعض شبانهم وراحوا يطلقون النار من بنادق صيد. فما كان منا إلا أن انسحبنا أو تقهقرنا باتجاه المخيم.

ورأيت رجلاً آخر اسمه مطلق وهو مضرّج بدمائه الحمراء، وذلك بسبب الضربات التي أصابت رأسه. والحقيقة أن مطلق هذا رجل صنديد لا يغلبه أحد. ولم يكن شاباً يومذاك، بل هو في الخمسين، وربما أكثر بقليل. ولقد جرح أثناء معركة الشجرة في شهر تموز سنة 1948، أي يوم استشهد الشاعر عبد الرحيم محمود الذي كان برتبة ملازم أول في جيش الإنقاذ. وإذا ما سألته عمّا شعر به حين أصابته الرصاصة في أعلى صدره وخرجت من ظهره، فإنه سوف يرد قائلاً: تخيل أنك عار وضربك أحد الناس ببذرة بطيخ باردة، هذا هو ما شعرت به عندما أصابتني رصاصة اليهود.

وبعدما جرح مطلق أخذه بعض الرجال إلى المشفى في الناصرة. ولكن بعض النسوة قد ضمدنه بخرق بالية قبل ذلك، وانتظرن طويلاً وهن حوله ريثما جاءت سيارة لتأخذه إلى المشفى. كما أن النسوة قد اجتمعن حوله وأخذن يبكين ويندبن ويولولن كثيراً، وهو ينزف دماً، فما كان منه إلا أن وقف منتصباً وراح يشتمهن ويطردهن. ثم قال لهن: أشعر بأنني سوف أموت بسبب نواحكن، لا بسبب النزيف. إنني سليم تماماً ولا أشعر بأي سوء. إنكن تحطمن المعنويات في هذه اللحظة الحرجة، يا صواحب يوسف.

وعلى أية حال، فإن مطلق الذي نجا من جرحه في لوبيا قد نجا مرة أخرى من الضربات القاسية بالعصي والحجارة التي سددها له بعض شبان شفا عمرو في مخيم الجليل.

أما المشاجرة فلم تنته نهائياً لأنها تجددت في الليل، إذ عاد الرجال من العمل مساء وعلموا بما جرى في النهار. وكان هنالك رجل كبير بين رجال لوبيا يصنع القهوة السادة يومياً ويجتمع الناس في بيته للسهر والسمر. وذهب عدد كبير من الشبان إلى ذلك البيت في المساء ابتغاء التشاور والتداول. وحضر الجلسة رجل عجوز اسمه الطلوزي، وهو من يتقن فن التحدث الى الناس أحسن اتقان، فأخذ يشجع الشبان ويحثهم على تأديب أولئك الذين تواقحوا أو أهانوا اسم لوبيا حين ضربوا بعض رجالها على نحو لئيم. وبكل تأكيد كان أهل لوبيا متعصبين جداً لقريتهم في تلك الأيام، أي يوم كانت الدنيا لاتزال بكراً، أو يانعة الخدين، كما أنهم كانوا شرسين، بل إن بعضهم قساة وأجلاف الى حد همجي.

قام الشبان وأحضروا عصياً وداهموا أهل شفا عمرو في بيوتهم التي لا أبواب لها، بل التي لم تكن بيوتاً بأي معنى من المعاني، وراحوا يضربون خصومهم دون رحمة، ولكنهم لم يمسوا امرأة ولا طفلاً ولا شيخاً. واستطاع واحد من أهل شفا عمرو، اسمه الفهد، أن يتسلل الى مخفر الدرك (والدرك هو الشرطة الريفية) وكان المخفر مجاوراً للمخيم من جهته الغربية، ويبدو أن الانجليز قد استعملوا ذلك المكان كمركز لقيادة المعسكر نفسه.

وسرعان ما أخذ الدرك يتدفقون داخل الثكنة ويعتقلون كل شاب من أهل لوبيا، حتى اعتقلوا زهاء مائة أو أكثر. أما أبي الذي لم يشترك في الشجار بتاتاً، فقد صعد إلى سطح الإسطبل واختبأ هناك مستوراً بالظلام. ولكن إسطبلنا لم يدخله أحد من رجال الدرك. ولا أدري ما الذي أعمى أبصارهم عنه. ومن عادة جدي علي أن يقرأ في الأزمات الحرجة سورة ياسين التي يحفظها عن ظهر قلب. فما كان منه إلا أن قرأ تلك السورة حين سمع بنبأ الاعتقالات. وعندما نجا إسطبلنا من التفتيش، فإن الكثيرين قد ظنوا بأن تلك النجاة لا سبب لها سوى قراءة تلك السورة.

وأياً ما كان الحال، فإن الرجال الذين اعتقلوا سيقوا إلى السرايا في بعلبك، حيث ضربوا ضرباً مبرحاً ينم عن لؤم السلطات العربية وحقدها على الفلسطينيين المعادين لليهود. فاعلم أن البشرية كلها سوف تعاديك إذا ما عاديت اليهود أو عادوك. وقد كانت تلك السلطات، وما زالت، قاسية علينا حتى لكأنها تنوب عن اليهود في إيقاع الأذى بنا. ولا مرية في أنها تتلقى الأوامر من اليهود بخصوص كيفية التعامل مع الفلسطينيين. ولهذا، لا يبالغ المرء إذا ما صرح بأن الحكومات العربية هي جزء من قوة العدو. إن العرب الرسميين لا يكتفون بالتفرج على الشعب الفلسطيني وهو يذبح بأيدي أكثر الناس لؤماً وخساسة، بل هم يضطهدونه كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ألسنا أعداء اليهود؟

ولكنني ما سقت هذا الخبر، أقصد خبر المشاجرة، إلا لكي أبين أننا كنا متخلفين ويتحكم بنا جهل مطبق. ومن شأن ذلك الجهل أن يصرفنا عن قضيتنا الحقيقية التي تتلخص في الكفاح من أجل استرداد الوطن السليب.

* * *

ولقد حدث حادث آخر في تلك الفترة المبكرة من لجوئنا، وأظنه حدث سنة 1950 حصراً. وخلاصته أن عبد العزيز بن سعود، ملك السعودية، جاء إلى بعلبك ليزور قلعتها المشهورة. فما كان من الدرك اللبناني إلا أن أغلق أبواب الثكنة الثلاثة بالأقفال فمنع الناس من الدخول والخروج، كما انتشر رجاله حول سورها من جميع الجهات ليحولوا بيننا وبين الاصطدام بموكب الملك. وأظن أنهم فعلوا الشيء نفسه في مخيم غورو.

ولكن الأطفال، وأنا فيهم، قد راحوا يتسلقون السور الشمالي المطل على طريق زحلة – بعلبك من أجل انتظار الموكب الملكي الوشيك الوصول. وحين شاهدناه أمطرناه بوابل من الشتائم، ووصفناه بالأعور، وهو أعور بالفعل، كما نعتناه بالخائن والمتآمر مع اليهود على فلسطين. ورحنا نشتم ملوك العرب ورؤساءهم الخونة، ولاسيما فاروق وعبد الله. وشتمنا فوزي القاوقجي الذي قاد جيش الإنقاذ في عام النكبة. ومنا من رمى الحجارة على الموكب، فراح رجال الدرك من خارج الأسوار يرموننا بالحجارة أيضاً. كما غنينا بعض الأغاني الفاحشة المقذعة التي لا يجوز ذكرها في هذا المقام، وذلك لأنها تتألف من كلمات غوغائية بذيئة. وكلها شتائم موجهة إلى ملوك العرب ورؤسائهم، وكذلك إلى فوزي القاوقجي، عميل اليهود والإنجليز. (من الغرائب أن هنالك شارعاً عند الحدود الشمالية لمخيم اليرموك الراهن اسمه شارع فوزي القاوقجي. ترى، ما الذي يجري في هذا العالم المنسوج من الشر والخبث والخساسة؟)

والحقيقة أن الفلسطينيين في ذلك الزمن، ولا سيما أهل مخيمنا قد صاروا تنديديين وازدرائيين إلى حد متطرف. فقيمة أوروبا، وضمنها روسيا، لم تزد عن قيمة حذاء مهترئ في نظرهم، وقل الشيء نفسه عن أمريكا وتركيا وإيران والهند. ويبدو أن إسهام أوروبا الشرقية في بناء الغيتو الصهيوني لم يقل كثيراً عن إسهام الغربيين مجتمعين. أما المتعلمون منا فكانوا يسخرون من عبارة "العالم الحر"، إذ كيف يمكن لتلك الأقطار الأوروبية والأمريكية أن تكون حرة مع أنها ليست سوى أدوات طيّعة في أيدي اليهود؟ (واليوم هجم الغربيون على العراق لأن اليهود قد أرسلوهم إلى هناك ابتغاء تقسيمه.) والأهم من ذلك كله أن حرية "العالم الحر"

مسروقة من ثروات الشعوب المغلوبة على أمرها، وهي الشعوب التي يمارس عليها الغربيون جميع أصناف الإرهاب والإجرام. إن حرب الأفيون وحدها، وهي حرب شنها الإنجليز على الصين لأنها رفضت شراء أفيونهم أو مخدراتهم، لا تقل عن كونها لطخة عار في جبين "العالم الحر" كله. فلكم هو حقير خسيس ذلك الشعب الإنجليزي الذي يريد من الناس أن يدخنوا الأفيون بقوة السلاح! أما القنبلة النووية التي ألقيت على هيروشيما فمن شأنها أن تؤكد لكل من هو ذو روح مطهم أو حساس أن الغربيين لا يرقون إلى مستوى الشياطين، وحتى إلى مستوى الوحوش المفترسة التي تفصلها عن الماهية البشرية مسافة مطلقة.

وأذكر فيما أذكر أن أخبار عبد الله التل، ذلك الضابط الأردني الشاب الذي حمى القدس العربية من اليهود في عام النكبة، وبكتيبة عسكرية صغيرة، قد وصلتنا إلى بعلبك في ذلك الحين، وابتهجنا بها، كما أكبرنا الرجل واحترمناه. ترى، لماذا عجز اليهود عن انتزاع القدس العربية من كتيبة أردنية لم يزد عددها عن ستمائة جندي، وذلك على الرغم من هجماتهم العنيفة والمتكررة على تلك المدينة؟ ما من سبب سوى أن المركز الذي حسم مصدير فلسطين، والذي يدير العالم كله، لم يكن قد أصدر أوامر للجيش الأردني بإخلاء القدس أو بالانسحاب منها. فحين أصدر تلك الأوامر سنة 1967 استطاع اليهود أن يستولوا على القدس بسهولة. وهذا يعني أن الخلل في السياسة العربية وليس في الجيوش.

وبلغنا أن الجنود الأردنيين في القدس كانوا يغنون أغنية إجلال لذلك النقيب الشاب الذي لم يكن سوى قائد كتيبة وحسب. تقول الأغنية:

من كراج القدس ركبنا الحراب
فوقها الرشاش والمدفع جنبيا
تيجي عبن التل مرتب الكتيبة

أما "جنبيا" فمعناها إلى جانبه، أي إن المدفع إلى جانب الرشاش. وأما البيت الأخير فمعناه أن المجد يجيء إلى ابن التل الذي هو قائد الكتيبة. والأغنية طويلة بعض الشيء، ولكنني لا أحفظ منها اليوم سوى هذا المقطع.

وفي الحق أن تجربة تلك الكتيبة في القدس خلال عام النكبة هي برهان حاسم على أن الجيوش العربية كانت قادرة على أن تمحق اليهود وتزيلهم من الوجود في ذلك الحين. فكلما صدرت الأوامر لتلك الجيوش بأن تقاتل، فإنها كانت المنتصرة دائماً، فبرهنت بذلك على أن اليهود ملة لا بطولية ولا تصلح للقتال، تماماً على النقيض مما أشيع، ولازال يشاع حتى الآن.

وكان الناس في مخيمنا مُسيّسين جداً، شأنهم في ذلك شأن الشعب الفلسطيني كله. ولهذا فقد تعاطفوا أيما تعاطف مع حسني الزعيم سنة 1949. وأجمعوا على أن ذلك الضابط السوري ما قتل إلا لأنه كان يعمل من أجل استرداد فلسطين. وأنا قانع اليوم بأن ذلك الرأي صحيح تمام الصحة. كما رحب الناس بالانقلاب العسكري الذي أطاح بالملك فاروق سنة 1952، وعلموا بأخبار مجزرة قبية التي ارتكبها اليهود سنة 1953، والتي من شأنها أن ترسخ الاعتقاد بأن أولئك الوحوش مولعون أيما ولع بالدم البشري، مهما يك بريئاً.

بيد أن أهم نبأ عائلي من أنباء تلك الفترة هو مجيء جدتي خضرا إلينا في بعلبك. فقد خرجت مع إخوتها وأقاربها من كفر عنان إلى جنوب لبنان. ولكنهم سافروا من هناك إلى دمشق، فعاشت بضعة شهور في القابون، وهي ضاحية من ضواحي العاصمة السورية، ثم جاءت إلينا في أيار أو في حزيران سنة 1949. ففرحنا بها فرحاً عظيماً لعل من شأنه أن يعوض عما كابدناه من أحزان وآلام ليلة فارقناها وتركناها في كفر عنان.

*　　　*　　　*

حين وصلت إلى دمشق لأول مرة كان الوقت ليلاً. ولم أكن أعرف إلى أين أذهب. فنمت في باب محطة الحجاز، أو حصراً عند الطرف الشرقي لدرجها الذي مازال على حاله تماماً حتى يوم الناس هذا. وفي الصباح سألت أحد المارة عن باب الجابية، إذ كان أحد أقاربنا يسكن في جامع هناك. فمن المعلوم أن اللاجئين سكنوا في الجوامع يوم وصلوا إلى دمشق عام النكبة. وبلغت إلى المكان وسألت عن قريبنا فالتقيت به وسكنت مع أسرته في الجامع. فالرجل من أقرباء أمي، وزوجته ابنة عم أبي، أو ابنة سليمان عبد الرزاق الذي هو شقيق جدي يوسف، أي هي عمتي وفقاً لأعرافنا الاجتماعية.

وبعد يومين أخذني قريبنا أبو إبراهيم وسرنا في الشارع نسأل الدكاكين عن عمل لي، فوافق صاحب مطعم صغير في باب الجابية على أن أشتغل نادلاً في مطعمه مقابل خمسة وسبعين قرشاً سورياً كل يوم. فقبلت وجئت في اليوم التالي إلى المطعم بعد الفجر بقليل، إذ كانت النجوم لا تزال تتلامح في السماء، وباشرت العمل. ولكنني سرعان ما تبين لي أنه عمل منهك جداً. فالمطعم يبيع رؤوس الغنم والماعز وأمعاءها، ولذلك فإن صاحب مطعم كهذا يسمونه رواساً.

كان عليّ أن أركب الحمار يومياً من الخان إلى المسلخ لأنقل المواد إلى المطعم، كما كان عليّ أن أكرر هذا العمل بضع مرات كل يوم. ولكن المواد تكون جاهزة في المسلخ الذي كان إلى الجنوب قليلاً من مخفر الشيخ حسن. ومازال ذلك المخفر على حاله حتى الآن. وكان ثمة في المسلخ من يضع المواد على الحمار، كما كان هنالك في المطعم من ينقلها إلى الداخل.

وبعدما أنتهي من إحضار المواد إلى المطعم، وإعادة الحمار إلى الخان، فإن من واجبي أن أخدم الزبائن الذين يأخذون بالتوافد عند الظهر تقريباً. كما كان عليّ أن أنظف المكان والطاولات والصحون والملاعق، وأظل أثابر على الخدمة حتى المساء. وهذا يعني أنني كنت أعمل زهاء خمس عشرة ساعة كل يوم. وذلك عمل في منتهى العسر والمشقة، فأصابني وجع في قدميّ كلتيهما، ولا سيما قدمي اليمنى، وهو ما رافقني حتى الزمن الراهن. ولقد اشتد كثيراً منذ منتصف الثمانينيات، أو قبيل ذلك.

وكان في المطعم عمال آخرون مختصون بتنظيف الرؤوس والأمعاء، وكذلك بطبخها. وهم يعملون في الجزء الخلفي الذي يفصله عن مكان الأكل جدار له باب. وكان أولئك العمال من أوباش الغوغاء. وبعضهم عدوانيون، أو متطرفون في حب الأذى. وقد راحوا يعتدون عليّ كثيراً، ودون أي سبب. ولكن رب العمل، واسمه أبو حاتم، وهو رجل طيب وتقي جداً، كان يوبخهم ويحاول أن يردعهم كلما شكوتهم له. ولكنهم لم يكفوا عن إيذائي إذا سنحت

الفرصة. وما من سبب لعدوانهم سوى أنني ضعيف، فأنا طفل وهم شبان في مقتبل العمر. وحين قرأت في الإنجيل قول السيد المسيح للحواريين: «ها أنا ذا أرسلكم حملاناً بين ذئاب»، فقد تذكرت كيف كنت خروفاً بين هاتيك الوحوش الضارية. يا إلهي الطيب! إن هذا العالم القذر لا يصلح لاستضافة الروح.

قبل تلك السنة كانت لي خبرة بأوباش الريف، أما الآن فقد صارت لي خبرة بأوباش المدن وأجلافها وأوغادها. والحق أن أوباش المدن منحطون، ولا يرقون البتة إلى مستوى سفلة الأرياف وزعّارها، إذ لا يخلو هؤلاء من المروءة والنخوة وحب الخير. واقتنعت بأن الناس في هذه المدينة قلما يكونون طيبين أو كائنات تصلح للتصنيف في عداد البشر. ثم إن أهل المدن الكبرى، في الغالب الأعم، يجهلون لذة العطاء والراحة التي تتولد في داخل النفس من جراء الخدمة التي يقدمها المرء لسواه من الناس. يقيناً، إن المعروف الذي لا مردود له هو فعل لذيذ أو منعش لروح الإنسان. ولهذا، يتوجب على الناس أن يفعلوه بلا تردد. ولكم صدق المعري حين قال:

فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأبقى، لا لأجل ثوابها

ولكن ما ينبغي تأكيده على الدوام هو أننا نحن البشر لا نندرج ضمن ماهية واحدة. إننا متباينون أشد التباين. والذين يستحقون التصنيف في زمرة البشر هم أقلية ضئيلة وحسب. ولقد ترسخت في ذهني فكرة مؤداها أن الغالبية الساحقة من الكائنات البشرية ما زالت أقرب إلى الكائنات البقرية، بل إلى الوحوش المفترسة، منها إلى الإنسانية التي هي غاية وجودهم. فما أصدق هاملت حين قال: "ولكن الإنسان لا يبهجني".

ولهذين السببين، أقصد العمل المنهك الطويل والمعاملة القاسية التي تعرضت لها، غادرت المطعم إلى غير رجعة، بعدما اشتغلت فيه زهاء شهرين، أو أكثر بقليل. ولكنني اكتسبت خبرة، أو شيئاً من الخبرة بالحياة، ولا سيما بشخصية أهل المدن الكبرى الذين لم يروقوا لي، لأنني وجدتهم فرديين وأنانيين، ولا روابط متينة بينهم، وذلك على نقيضنا نحن أهل الريف الميالين إلى التماسك والتعاون، وكذلك إلى إغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج. ولقد اعتاد أبو حاتم أن يرسلني إلى بيته لأحمل الخضراوات واللحم والفاكهة وسواها إلى داخل المنزل. وقد اختارني لأنني كنت لم أزل دون سن البلوغ، فرحت أدخل على زوجته الشابة، وكذلك على ابنته التي لا يزيد عمرها يومئذ عن ست سنوات. فعرفت البيت عن كثب، وكان موقعه في قبو عاتكة. وأدركت الفرق بين بيوتنا وبيوت أهل المدن. إنه فرق جوهري حاسم جداً، ومختلف من جميع النواحي.

والجدير بالتنويه أن المطعم قد هُدم يوم وسعت البلدية باب الجابية قبل أكثر من أربعين سنة.

* * *

وأخذت أتسكع في شوارع دمشق وأعمل عتالاً في ساحة المرجة، إذ كانت تصل بعض السيارات الصغيرة من بيروت وبغداد وعمان وحلب، وينزل منها ركاب معهم حقائب

يحتاجون إلى من يعتلها حتى الفندق. فكنت أقوم بذلك العمل وأحصل على أجر جيد، إذ تصل أجرة حمل الحقيبة الواحدة إلى ربع ليرة سورية في بعض الأحيان. وهذا مردود ليس بالزهيد في مقابل جهد لا تزيد مدته عن بضع دقائق وحسب.

ولكنني سرعان ما اهتديت إلى عمل أشرف وأفضل، وهو بيع الجرائد في شوارع دمشق، ولا سيما في شارع النصر الذي كان بمثابة محطة لباصات النقل الداخلي. وكانت أشهر الجرائد يومذاك جريدة اسمها «القبس»، وأخرى اسمها «العلم» (بفتح ففتح). وهنالك جرائد مسائية أيضاً. وهذا يعني أن بيع الجرائد يمكن له أن يبدأ في الساعة السابعة صباحاً، ويستمر حتى العاشرة ليلاً أثناء الصيف.

ولكن أهم ما في الأمر أن بيع الجرائد قد وضعني في حال اتصال مع النص المكتوب، أي حفزني على التحول إلى قارئ مهموم بهم السياسة وهم الثقافة في آن واحد. ففي الفترة الواقعة بين الساعة الثالثة والساعة الخامسة من كل يوم، كانت حركة الناس في دمشق تكاد أن تتعطل، إذ هي لم تكن مدينة ضخمة أو مزدحمة، فعدد سكانها لم يزد عن ربع مليون نسمة، أو زهاء ذلك، عند انتصاف القرن العشرين. ولهذا، فإن بيع الجرائد كان يتوقف في تلك اللحظة الراكدة، وحينذاك ألجأ إلى أول رصيف مغمور بالظلال وأتمدد عليه. ولكي أزجي الوقت، فإنني أعمد إلى تصفح الجرائد التي معي وأتصفحها بإمعان. ولقد تحول ذلك التصفح الممتع إلى شيمة لازمتني حتى يومي هذا، بل انقلب إلى مطالعة مهمومة بالحق والحقيقي ومعنية بالإنسان وبمصيره على الأرض. فأنا منذ ذلك الحين، قارئ نهم لا يشبع من الكتب والصحف بتاتاً.

* * *

ولكنني التقيت في أحد شوارع دمشق، ذات يوم، ببعض الشبان ممن يسكنون في ثكنة ويفل، وسألتهم عن أمرهم، فقالوا بأنهم يعملون في التهريب، إذ ينقلون البضائع من سوريا إلى لبنان ومن لبنان إلى سوريا. واقترحوا عليّ أن أعمل في التهريب لأنه مربح جداً إذا ما قورن ببيع الجرائد. فقلما كان البيع يأتيني بأكثر من ليرة سورية واحدة كل يوم. ولكنني كنت لا أزال طفلاً في تموز أو آب سنة 1950، أما هم فكانوا شباناً في مقتبل العمر. وكان التهريب شاقاً، إذ يقتضي أن يسير المرء على رجليه في الجبال وهو يحمل بضاعته على ظهره طوال ساعات ثلاث.

ومع ذلك، أغراني الاقتراح، فخرجت في الخريف إلى لبنان، وأنا أحمل خمسة كيلو غرامات من البهارات، إذ كانت تلك المادة رخيصة في سوريا وغالية في لبنان. وقد كان علينا أن نأخذ الباص من دمشق إلى الزبداني التي تبعد عن العاصمة السورية حوالي خمسة وأربعين كيلو متراً، ثم نسير من تلك البلدة بين جبال شديدة الوعورة. وكانت الطريق تمر إلى الغرب من بلدة سرغايا القريبة من الزبداني، ثم تفضي إلى ضيعة لبنانية اسمها جنتا. وجنتا هذه قريبة من ضيعة لبنانية أخرى اسمها يحفوفا، وهي آخر قرية لبنانية، وموقعها بين سرغايا وجنتا. كما أن الجدول الذي ينبع من سرغايا يسير عبر يحفوفا وجنتا في واد جميل عميق أخضر يسر الناظرين، ويستمر حتى يصب في نهر الليطاني بالقرب من بلدة اسمها رياق، وذلك أثناء الربيع، يوم تكون الينابيع غزيرة.

وبعد أن نبلغ إلى جنتا، فإننا نصعد جبلاً لنصل في أعلاه إلى قرية اسمها النبي شيت، وهي تطل على سهل البقاع من جهته الشرقية، كما تطل على جبال لبنان الغربية الباذخة الشامخة. ثم نهبط باتجاه السهل، فنمر بقرية صغيرة اسمها سرعين الفوقا، ونظل نتجه إلى الشمال الغربي حتى نصل إلى طريق زحلة ـ بعلبك، وذلك إلى الشمال من بلدة رياق، أو إلى الجنوب من قرية طليا. وطليا هي ربة المطر في الأساطير الشرقية الوثنية. وبعد ذلك نركب باصاً إلى بعلبك حيث نبيع بضاعتنا التي تربح زهاء خمس ليرات لبنانية (= غرامان من الذهب) ندفع نصفها للطعام والمواصلات. وفضلاً عن التعب المنهك، فإن المرء يتعرض لخطر الوقوع في قبضة رجال الجمارك السوريين أو اللبنانيين الذين يبتزونه أبشع ابتزاز ويعاملونه معاملة اللئام للأيتام.

كان ذلك عملاً شاقاً جداً يحتاج إلى شبان أقوياء، لا إلى أطفال في مثل سني. ولم أكن طفلاً وحسب، بل كنت مصفر الوجه ذاوياً شاحباً قضيف الجسم قبل كل شيء. وكثيراً ما كان يقال لي بأن الكلاب تتشاور عليّ. وهذا تعبير من قريتنا معناه أنني سوف أموت عما قريب. ولهذا، فإنني لم أكرر تلك السفرة مرة ثانية إلا بعد مدة طويلة.

* * *

ولعل أهم ما في أمري أن فكرة الانتحار قد طرأت على بالي لأول مرة سنة 1950، ثم إنها لا زالت تراودني حتى اليوم، بل مازلت أشحذ النفس وأشحنها كي تقبل هذه الفكرة وتستسيغها، مع أنني أشعر في قليل من الأحيان بأنني طافح بالنزوع نحو توقير الحياة. ولكن هذا النزوع نادراً ما يكون عارماً، أو يتصف بأي زخم دافق. يقيناً، إنني مأهول بمائة شخص على الأقل، وكل شخص له هويته أو سجيته وطبعه ويقين أمره. كل شخص مباين للآخرين أشد المباينة.

ومنذ ذلك الحين، أي منذ سنة 1950، كنت أتساءل قائلاً: فيم هذا الجهد المقيت الذي أبذله من أجل لقمة العيش؟ ولقد حاولت أن أنتحر بالكهرباء في المطعم ذات يوم من أيام شهر أيار، إذ أولجت ساق نبتة بقدونس في الفيش، ولكنني سحبت يدي فوراً بسبب شدة الألم. وقد لاحظ ذلك أحد العمال، فأخبر رب العمل الذي أنبني كثيراً. ولأن الرجل كان طيباً وتقياً، فإنني وعدته بألا أكرر ذلك العمل مرة أخرى بتاتاً.

ولكنني حاولت الانتحار عدة مرات بين سنة 1959 وسنة 1961، أي يوم كنت جندياً تحت السلاح، ولكن سبباً وجيهاً قد ردعني فحال دون ذلك. بيد أنني اليوم جد نادم، بل نادم أشد الندم، لأنني لم أنتحر في تلك الآونة ابتغاء التخلص من هذه الحياة السقيمة التافهة التي لا تستحق ما نبذله من عناء كي نتنفسها دون أي مسوّغ مهما يك طفيفاً، والتي لا ينتصر فيها إلا اليهود وأضرابهم من الأشرار والأنذال. أو يعقل أن نبذل هذه الجهود المضنية كلها من أجل أن نتنفس ونأكل ونشرب؟ فيا لهذا التشتت والتبعثر والضياع، هذا التيه في المجهول، هذا الجهد المضني من أجل ترويض وحش البؤس وتهشيم أنيابه، ولكن دون جدوى! ولكم كان ألبير كامو حساساً ونبيل الروح حين جعل هذا السؤال سؤال الفلسفة الأول: هل تستحق الحياة أن تعاش؟

وفي الحق أنه ما من عزاء بتاتاً، ولا سيما إذا كان المرء صافي النفس رائق الوجدان. أما أولئك الذين قالوا بأن الفن "عزاء ميتافيزيقي" فهم أناس يهرفون بما لا يعرفون.

وما زالت فكرة الانتحار ترجني رجاً حتى الساعة الراهنة، إذ كثيراً ما تنتابني نوبات حادة من الرغبة في الموت، أو في مغادرة هذه الدنيا التي ينسج الشر والألم والتعاسة سدأتها ولحمتها في آن معاً. وهذه الرغبة هي التي يسميها علم النفس الحديث باسم النكروفيليا (= حب الموت). ثم إن الحياة خاوية تافهة، ولا تثير في الإنسان الحساس الناجي من البلادة حقاً، سوى الشعور بالتقزز والاشمئزاز. ولا يخفى على كل ذي لب أن لحظات السعادة نادرة عابرة، أو سريعة الزوال. بل هي من النزارة بحيث تجاور الصفر تقريباً. ولهذا بالضبط أبديت احتراماً عميقاً للبوذا فور معرفتي بموقفه البسيط والأصيل والنبيل في آن معاً. وللسبب نفسه بقيت مشدوداً إلى المعري منذ بداية المراهقة حتى اليوم.

* * *

وبقيت في بعلبك طوال الشتاء التالي، أي منذ تشرين الأول سنة 1950 وحتى نيسان سنة 1951. وبما أنني كنت بلا عمل في ذلك الشتاء البارد، فقد أمضيت تلك المدة أقرأ بعض الكتب، إذ عدت من دمشق مزوداً بعادة القراءة، أو بهواية المطالعة التي صارت سمة من سماتي الدائمة. وسبق لي أن أحضرت معي من سوريا رواية الزير سالم التي أحببتها كثيراً في تلك السن. كما أعارني أحد الأصدقاء كتاب «ألف ليلة وليلة» فقرأته بأناة وتؤدة متمتعاً بقصصه المشوّقة. ثم استعرت من صديق آخر «تغريبة بني هلال» وقرأتها هي الأخرى. كما طالعت في ذلك الشتاء بعض روايات أرسين لوبين التي كانت شائقة جداً يومئذ، وكذلك بعض روايات أغاثا كريستي التي من شأنها أن تحرض الذهن على التفكير ابتغاء سبر المخبوء.

والأهم من ذلك كله أنني واظبت على تلاوة القرآن الكريم لجدي علي، الذي فرح كثيراً بعودتي من دمشق، كما فرحت جدتي خضرا وجميع أفراد الأسرة. فلقد غبت عن البيت زهاء ستة أشهر، وكانت تلك الغيبة هي الأولى من نوعها في حياتي كلها. ولكنني لم أفكر في العودة إلى المدرسة، كما أن أحداً لم يضغط عليّ من أجل ذلك الغرض. والجدير بالتنويه أن صلتي المبكرة بالقرآن جعلتني في حال من التماس الدائم والوثيق مع اللغة العربية في أعلى مستوياتها على الإطلاق.

* * *

في الخامس عشر من نيسان سنة 1951، أنجبت أمي طفلاً ذكراً أسميناه إبراهيم. وخفنا عليه من الموت كما ماتت المريمان قبله. ولهذا اعتادت أمي أن تأخذه إلى عيادة الأونروا في المخيم ليفحصه الطبيب مرة أو مرتين كل أسبوع، مع أنه لم يكن مريضاً، بل لا أذكر أنني رأيته مريضاً في تلك الآونة كلها. ولقد عاش إبراهيم، وما زال حياً يرزق، وهو يسكن اليوم مع أسرته في مخيم اليرموك. والطريف أن الصدفة هي التي منحته هذا الاسم. فقد كان من عادتنا أن من يولد له مولود يتوجب عليه أن يوزع شيئاً من الحلويات على الجيران، وكذلك على من يأتون للتهنئة. وذهب أبي في ذلك الصباح الباكر ليشتري المادة المطلوبة من

الدكان، فوجد البائع يستمع بواسطة المذياع إلى تلاوة لسورة من سور القرآن الكريم. فكان منه أن سأل البائع عن اسم تلك السورة، فأخبره بأنها سورة إبراهيم. وعند ذاك قال أبي: إن زوجتي أنجبت ولداً للتو، وإني سوف أسميه إبراهيم.

وعلى أية حال، فقد وجدت عملاً بعد ولادة أخي إبراهيم بأيام قليلة، إذ جاء إلى المخيم رجل لبناني اسمه عوض، وقال بأنه يحتاج إلى ولد ليرعى ثيرانه وبقراته، وذلك في قرية اسمها بوداي، وهي إلى الغرب من مدينة بعلبك. وذهبت معه إلى ضيعته، وأخذت أرعى الحيوانات كل يوم بأجر شهري مقداره خمس عشرة ليرة لبنانية. وفي الحق أنني كنت أعيش النهار كله بين الطيور والأفاعي. ولا ريب في أن الطيور كائنات فاتنة، وهي تجسيد حي لمبدأ الحرية العزيز على فؤاد الإنسان.

ولكي أزجي الفراغ أخذت معي قاموساً صغيراً من قواميس اللغة الإنجليزية، وهو مما يمكن أن يوضع في الجيب. وقد اشتريته بنصف ليرة، ورحت أحفظ مئات الكلمات الإنجليزية بحيث أصبحت قادراً على أن أطالع قصة من قصص الأطفال بتلك اللغة ذات اللكنة البربرية الغامضة.

كان الرجل في الخامسة والأربعين من سنوات عمره تقريباً، وكان متزوجاً بامرأتين، أولاهما عجوز، وثانيتهما صبية جميلة جداً، وحديثة عهد بالزواج، وجاءت من قرية أخرى لم أعد أذكر اسمها. وقد أنجبت له زوجته الأولى ابناً اسمه حسين، وهو يومئذ متزوج بفتاة جميلة من قرية دورس المجاورة لمخيم الجليل في بعلبك. كما أن له بنتاً صغيرة اسمها زينب، وأظن أن عمرها لم يكن يزيد عن ثلاث سنوات في ذلك الحين.

ثم إن رب الأسرة كانت له من زوجته الأولى بنتاً شابة اسمها صفية. وصفية هذه مخطوبة لابن عم لها اسمه حسين هو الآخر. وكان حسين هذا يعمل راعياً لقطيع من الماعز، ويسكن مع أمه وأخته في سفح الجبل الواقع إلى الغرب مباشرة من قرية بوداي، حيث بيتهم الشديد الشبه بكوخ صغير. وهو بعيد عن القرية، بل عن أي مكان مأهول بالسكان. وكانت صفية، التي تكبرني بخمسة أعوام أو زهاء ذلك، تحنو عليّ كثيراً وتغمرني بلطفها ورقة شمائلها وعذوبة شخصيتها، حتى لكأنها أم رؤوم. فما كانت تناديني إلا بعبارة «يا أخي»، تقولها باللهجة اللبنانية الناعمة الهادئة. ويلوح لي أن الإنسان الطيب من شأنه أن يؤثر في الآخرين تأثيراً يدوم ويبقى طوال الحياة. ومن المفارقات التي لا رفع لها بتاتاً أن تكون هنالك كائنات رحمانية في هذه الدنيا الشيطانية التي لا تصلح إلا نزلاً لرهط إبليس. فكثيراً ما التقيت بأناس أظن أن بينهم وبين الملائكة صحبة أو قرابة أو صلة من نوع ما.

ولقد أثرت صفية وأمثالها من الكائنات الطيبة الصافية والمفعمة باللطف والعذوبة في شخصيتي، إذ علمتني بالقدوة درساً فحواه أن الإنسان الطيب هو وحده الإنسان، أو من يستحق رتبة البشرية التي هي خير الرتب، كما يقول الشيخ الأكبر، محي الدين بن عربي. إن الطيبة والجمال والنور واليخضور والأزهار والأريج هي ماهيات من فصيلة واحدة، أو لعلها أن تنضوي إلى بؤرة واحدة. أما الشر والظلام والقبح والدمامة فهي النقيض المباشر لكل ما له قيمة في هذه الحياة. لقد كانت صفية شخصية إخائية حقاً، وذلك ما أقنعني، منذ أوائل عمري، بأن الصلة الإخائية بالمرأة هي شيء ممتع وحاجة روحية ملحة. ولهذا، فقد ثابرت طوال حياتي على إنجاز اتصال إخائي مع نساء طيبات وناضجات.

لكم أتمنى اليوم أن أعرف شيئاً من أخبار صفية بنت عوض الكموني، وهي التي تخطت السبعين من سنوات عمرها في الوقت الراهن. هذا إن كانت على قيد الحياة. ولكم أنا مشوق لمعرفة أخبار تلك الأسرة الكريمة، بل لكم أحن إلى ذلك الزمن البكر، يوم كان العمر في الريعان. آه! لكم يلوعني كل مايند عن الاسترداد! إنه يشوي كبدي بغير نار.

يقيناً، إن الإنسان يتعلم باللطف أكثر مما يتعلم بالعنف، وإن اللطف لا ينسى بتاتاً، كما أن العنف يترسب في قعر النفس هو الآخر، ويبقى في الوعي، أو في اللاوعي، ما بقي المرء على قيد الحياة.

* * *

ومللت من ذلك العمل الذي يفرض عليّ وحدة أو عزلة شديدة القسوة فغادرت بوداي إلى بعلبك بعدما اشتغلت زهاء شهرين، ورحت أعمل في قلاعة العدس الذي تكثر زراعته في الأرض السهلية المحيطة بتلك المدينة. واللبنانيون يسمون ذلك العمل الحليشة، أما نحن فنسميه القلاعة. ولا يسمى هذا الصنف من أصناف العمل الزراعي حصاداً، وذلك لأن الحصاد لا يكون إلا إذا استعمل الإنسان المنجل. أما كلمة «القلاعة» فهي عربية دون لبس، وأما «الحليشة» فلا أعرف مأتاها، وأحسبها كلمة سريانية قديمة.

وفي تموز اشتغلت درّاساً أدرس القمح على البيدر في قرية اسمها «الطيبة» (بفتح الطاء وتشديد الياء المثناة)، وهي إلى الجنوب من مدينة بعلبك. وكانت أجرتي نصف ليرة كل يوم.

وحين انتهى العمل ذهبت إلى زحلة لأول مرة في حياتي، وذلك كي أعمل في حقول البصل والبطاطا، بأجر يومي مقداره ليرة كاملة. ولكنني في أيلول عدت إلى المدرسة من جديد، ودخلت الصف الثالث الابتدائي، وعلة ذلك أن واحداً من أصدقائي اسمه يحيى كان في الصف الثالث، بل إن هذا الصديق هو الذي أقنعني بالعودة إلى المدرسة، فعدت ولكن بعدما خسرت أربع سنوات دراسية.

* * *

ومن أبرز الأحداث في عام 1951 أن ملك الأردن عبد الله بن الحسين قد اغتيل. والذي اغتاله شاب فلسطيني اسمه مصطفى عشو، وذلك في المسجد الأقصى في مدينة القدس. ولقد نظر الفلسطينيون إلى ذلك الحادث في حينه على أنه عمل وطني. أما اليوم فإنني جازم بأن ثمة عنصراً مريباً في الأمر. وأغلب الظن أن الرجل قد مات شهيداً من أجل القدس، ولكن بعد ما خدم الخطة البريطانية الصهيونية التي أفضت إلى نشوء الغيتو اليهودي على أرض بلادنا فلسطين المغتصبة. لقد خدعه اليهود والإنجليز المراوغون اللئام الماكرون. فمما هو معلوم أن الملك الأردني كان ساذجاً يجهل ما في السياسة من مكر وخداع. فقد وعدوه بالقدس العربية وصدقهم. ولم يدر في خلده أن كيان الصهاينة لا معنى له إلا إذا تمركز حول القدس. فبعد نشوء كيانهم التافه القميء أظهروا ما أبطنوه وقلبوا له ظهر المجن، وأنكروا عليه المدينة المقدسة التي لن يتنازلوا عن شبر منها تنازلاً فعلياً، لا خلباً، إلا بعد جريان نهر من دماء البشر.

في أواخر عام النكبة اعتدنا أن نغني قائلين:

هـلا بالتاج وصحاب الفخامـة
أبو طلال باع الصخرة والقيامـة

أي، أهلاً بالتاج وأصحاب الفخامة. إن أبا طلال قد باع الصخرة والقيامة. والصخرة هي مسجد الصخرة، والقيامة هي كنيسة القيامة. وكلا الشيئين في القدس. أما أبو طلال فهو عبد الله نفسه. لقد كان في نظرنا، نحن الفلسطينيين، سافلاً منحطاً باع شرفه ودينه للإنجليز واليهود بالمال. وكان شعبنا حاقداً عليه أكثر مما هو حاقد على أية شخصية عربية أخرى، أي أكثر من فاروق وعبد العزيز وعبد الإله. وسبب ذلك أن عبد الله كان القائد الأعلى للجيوش العربية المحتشدة في فلسطين أثناء عام النكبة. وفي الحق أنه ما كان شيئاً يذكر، لأن القائد الأعلى لتلك الجيوش هو غلوب باشا، ذلك الضابط الإنجليزي اللئيم الذي راح يبذل قصارى جهده من أجل تنفيذ وعد بلفور وإخراجه إلى حيز الفعل والعلن.

ومما هو معلوم أن غالبية سكان بعلبك وقضائها من الشيعة الذين يقدسون آل البيت الهاشمي. وبما أن الملك من آل البيت، أو من سلالة الحسن بن علي، وهذا أمر مشكوك فيه، فقد نظر الشيعة إلى الحادث على أنه عدوان من الفلسطينيين، بل من أهل السنة بعامة، على مقدساتهم. فأخذوا يضايقوننا في كل مكان. وراحوا يقولون لنا: لعن الله أباكم، أيها الفلسطينيون، لأنكم قتلتم الشريف ابن الشريف. ففي عقيدتهم أن كل من هو من آل البيت يستحق لقب سيد ولقب شريف. وهو يظل شريفاً ومقدساً حتى وإن تنازل لليهود عن معظم فلسطين علناً وفي رأد الضحى.

وصدف أن قمت بسفرة تهريب إلى دمشق بعد مقتل الملك عبد الله بشهرين، أو زهاء ذلك. وفي طريق العودة تعرضت لعدوان آذاني بالفعل، وذلك في قرية اسمها النبي شيت. ففي تلك القرية الكبيرة هاجمني بضع فتيان وأخذوا يضربونني ضرباً مبرحاً ويشتمون فلسطين والفلسطينيين. ولحسن الحظ تدخل رجل كهل عمره في حدود الأربعين وطرد الفتيان وظل يحرسني ويواكبني حتى خرجت من تلك القرية.

ومن الطرائف أنني حين وصلت إلى طريق زحلة بعلبك بين رياق وطليا، وقفت أنتظر أية سيارة تقلني إلى المخيم، فجاءت إحدى السيارات وأشرت لها ووقفت، وعند ذاك فوجئت بأنها سيارة الجمرك. وعلى الفور سألني الرقيب الذي كان يجلس إلى جانب السائق: إلى أين؟ قلت: إلى بعلبك. قال: اصعد. وصعدت من الخلف لأجد بعض رجال الجمرك يجلسون هناك. وسألني أحدهم: ماذا لديك في هذا الكيس؟ قلت: هي ملابسي، فأنا أشتغل عاملاً زراعياً بالقرب من هذا المكان.

وسكت رجل الجمرك. ولو أنه فتح الكيس لوجد البضاعة المهربة، وهي كوفيات بيضاء وجوارب. وأنزلتني السيارة عند البوابة الشمالية للمخيم. ووصلت إلى البيت سالماً ناجياً من فتيان النبي شيت، وكذلك من رجال الجمرك اللبناني.

*   *   *

ومما هو لافت للانتباه أن أولئك العملاء، أقصد عبد الله وأمثاله، يقتلون ويخسرون أرواحهم، بعدما يؤدون لليهود والغربيين خدمات تشبه تلك التي يؤديها القوادون. ومع ذلك فإنهم يتكتمون على الحقيقة، التي يعرفونها جيداً، أكثر مما يتكتم المجرم على جريمته.

قتل نوري السعيد وعبد الإله في بغداد، وانتحر عبد الحكيم عامر في القاهرة، أو ربما نحر، واغتيل أنور السادات الذي حيَّد مصر وأخرجها من الصراع، كما قتل خليل الوزير في تونس بعدما رفض مواكبة المخطط الصهيوني الرامي إلى إعطاء الفلسطينيين ما لا يزيد عن أذن الجَمل وكفى، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية (واغتيل عرفات وعبد الناصر للسبب نفسه). أليس ثمة واحد بين أولئك المساكين المثيرين للشفقة يتجرأ ويعلن الحقيقة كما هي؟ إن إعلان الحقيقة من شأنه أن يغلق أفواه اليهود ويحول بينهم وبين التنفج والتبجح بأنهم هزموا سبعة جيوش عربية، لأن المجاهر بالحقيقة لا بد له من أن يفضح المؤامرة العالمية التي أدت إلى نشوء الغيتو الصهيوني التافه المقيت، الذي "لا يسوى قشرة بصلة"، كما يقول أهل بلدتنا حين يريدون أن يحتقروا شيئاً بلا قيمة.

قرر الملك الأردني البائس أن يتحدى اليهود اللئام، وأن يذهب إلى القدس لأداء صلاة الجمعة في المسجد الأقصى. ومما هو ناصع تمام النصوع أن صلاته في ذلك المكان هي شأن سياسي صرف، فضلاً عن كونه شعيرة دينية. ومقتل الرجل هناك معناه أن الصراع إنما يدور على المكان، وأن القدس العربية لليهود وليست للعرب. إن مكان الحادث حصراً هو المؤشر الأكبر إلى الدلالة النهائية. فاليهود لا يريدون أن يقتلوا عبد الله، ولو أرادوا ذلك لقتلوه في عمان، بل في غرفة نومه. وكل الذي أرادوه أن يصدوا الملك عن القدس وحسب، لأنهم يريدونها لأنفسهم. فهل للغيتو الصهيوني أي معنى بغير القدس؟ ولا أدل على ذلك من المكالمات الهاتفية التي تلقاها عبد الله في ذلك الصباح، والتي ترجوه ألا يذهب إلى الأقصى لأداء صلاة الجمعة. وهذا يعني أنه لو لم يذهب إلى هناك لما قتل.

وفي ظني أن ذلك الحادث معناه أن اليهود سوف لن يتنازلوا عن شبر واحد من القدس، اللهم إلا أن يكون ذلك التنازل شكلياً أو خُلّباً، وليس حقيقياً بأية حال من الأحوال. ولن تقوم الدويلة الفلسطينية الزائفة إلا إذا كانت كياناً وهمياً، أو قابلاً للاحتلال، بل للزوال، بسهولة.

وبما أن هذا الكتاب شاهد على زمنه، فلا غبار على المرء إذا ما صرّح بأن اللبنانيين كانوا يكرهوننا كثيراً. فليس بخافٍ على أحد أن لبنان مبني بناءً طائفياً ومذهبياً. ودخول عدد كبير من الفلسطينيين إليه قد رفع نسبة المسلمين ورجحها على نسبة سواهم، كما رفع نسبة أهل السنّة ورجحها على نسبة الشيعة. وفي ذلك اختلال للتوازن بين الطوائف في لبنان.

ومع ذلك، لن أبخس الناس أشياءهم، إذ لا يبخس الناس أشياءهم إلا من كان لئيم الطبع خسيس الجِبلة. إن اللبنانيين، بجميع طوائفهم، شعب يمكن للمرء أن يحبه ويأنس به فعلاً، وذلك لأصالتهم وطيبتهم ورسوخ شخصيتهم وانفتاحها على الآخرين أيما انفتاح. فأعراسهم جد مبهجة، وطعامهم شهي حقاً، وبيوتهم نظيفة ومرتبة، وملابسهم أنيقة وتنم عن ذوق سليم، ونساؤهم فاتنات في الغالب الأعم. أما لهجتهم فناعمة حتى لكأنها صنف من أصناف الموسيقى. وهم أذكياء وميالون إلى الثقافة والمعرفة، إذ كانت نسبة المتعلمين في لبنان عند انتصاف القرن العشرين زهاء 85%. وهذه نسبة لم يبلغها أي قطر عربي آخر. ولكن لا بد لي من الإسراع إلى القول بأن اللبنانيين الذين أصفهم ههنا هم أولئك الذين عرفتهم في تلك الأيام

الغابرة، أما الحاليون فإنني أجهل وضعهم وصفاتهم تمام الجهل، لأنني لم أدخل لبنان منذ سنة 1981 حتى اليوم.

ولكننا نحن الفلسطينيين، الفقراء جداً يومئذ، كنا أنضج منهم، بل أنضج من جميع أمم الأرض، في مضمار الوعي السياسي حصراً. إننا شعب مسيّس منذ وعد بلفور. وهذا يعني أن الشر نفسه قادر، أحياناً، على أن يصنع الخير. فالمرأة الفلسطينية الأمية في مخيماتنا البائسة كانت تلعن الإنجليز والأمريكيين وملوك العرب، وهي تبحث عن القمل في شعر ابنها الصغير. وكان الناس، حتى الأميون منهم، على دراية بجميع الدول التي قدمت المساعدات لليهود في عام النكبة، بما في ذلك روسيا وبولونيا وتشيكوسلوفاكيا.

* * *

وفي نهاية العام الدراسي، أي في حزيران سنة 1952، ترفعت إلى الصف الرابع. وما أن أغلقت المدارس أبوابها حتى قمت بسفرة تهريب إلى دمشق. وفي هذه المرة كانت هنالك مادة مربحة جداً، وهي الطحين الكندي الأبيض الذي يستعمل في صناعة الحلوى، ولا سيما البقلاوة. فالكيلو الواحد من ذلك الطحين يساوي نصف ليرة لبنانية في بعلبك. أما في دمشق فثمنه ليرة ونصف الليرة أو أكثر بقليل. وكان فرق العملة بين الليرتين طفيفاً جداً. وهذا يعني أن الكيلو الواحد يربح ليرة على وجه التقريب.

ولكنني آثرت البقاء في العاصمة السورية، فرحت أعمل في بيع الجرائد من جديد. وكانت حرب كوريا على أشدها يومذاك. فكنت أقف في منتصف الشارع وأصرخ: حرب كوريا، يا سيّد. قتلى وجرحى، يا سيّد.

* * *

وذات صباح، بينما كنت أسير مع صديق لي اسمه ذياب في باب الجابية، صادفنا رجلاً معه جديان اثنان. وطلب منا أن نحمل الجديين إلى ساحة الحرية القريبة من ساحة عرنوس مقابل نصف ليرة لكل منا. فوافقنا، وحمل كل منا جدياً على ظهره، وسرنا وراء الرجل حتى المكان المتفق عليه، وهناك أعطانا أجرتنا ومضى إلى شأنه بعدما أخذ الجديين. وجلسنا على الرصيف لنستريح من التعب. وعند ذاك نظرت إلى جبل قاسيون فرأيته قريباً من ذلك المكان، فقلت لذياب: ما رأيك في أن نتسلق الجبل وننظر إلى دمشق وغوطتها من مكان شاهق؟

وافق ذياب، فرحنا نصعد الجبل بخفة ورشاقة كما لو أننا من فصيلة الماعز. وظللنا نصعد ونصعد حتى وصلنا إلى المكان الذي بنيت عليه محطة التلفزيون الراهنة. ولكننا كدنا أن نهلك عطشاً ونحن نشوى في شمس تموز اللاهبة. ومع ذلك فقد استمتعنا بنظرة ألقيناها على دمشق التي لم تكن سوى مدينة صغيرة، ولا سيما إذا ما قورنت بمدن العالم العملاقة.

إن هذه المدينة العريقة في الزمن ليست لها مساحة واسعة حتى اليوم، مع أن عدد سكانها بلغ زهاء خمسة ملايين نسمة أو أكثر. أما الغوطة فشاسعة جداً، تنداح صوب الشرق على نحو فسيح. فيالها من وقفة ما زلت أحسبها حتى اليوم، أي بعد مرور أكثر من نصف قرن، وكأنها وقفة صوفية نفرية، أو حدث مستوري يند عن كل استيعاب. وإنني أتخيل الآن

أن ذلك المكان، في تلك البرهة النادرة، مطل يطل على الدنيا بأسرها. وإنني اليوم كثيراً ما أنظر إلى الجبل نفسه وأنا أتلهف على تلك اللحظة التي انطفأت وغاصت في بحر من العدم. ما أوسع الفرق بين هاتيك الأيام المفعمة بالأمل والثقة بالوجود وبين هذه الأيام القاحلة العجفاء التي لا ترسخ في النفس سوى القنوط. فهذا زمان وسائله جاهزة، ولكن لغير ما غاية أو قصد. فلكم هي حضارة مجانية نافلة هذه الحضارة المعاصرة التي أنتجتها الفورة النفطية حتى ليجوز لك أن تطلق عليها اسم حضارة السخام.

أما ذياب هذا فكان ينظم الشعر باللغة الإنجليزية بينما كنا نتسكع معاً في أزقة العاصمة السورية وشوارعها بحثاً عن لقمة عيشنا. وكثيراً ما حثني على أن أفعل مثله، لأنني كنت قوياً في اللغة الإنجليزية. ولكنني كنت دائماً أقول له بأنني أريد أن أنظم شعراً في اللغة العربية، فليتني أجد من يعلمني هذا الفن.

وفجأة فقدت ذياب فلم أجده، إذ رحل إلى لبنان، ربما إلى صور، فهو مثلي من لاجئي ذلك الإقليم. وما جاء إلى دمشق إلا ليبحث عن عمل.

*　　　*　　　*

وعدت إلى بعلبك في نهاية العطلة الصيفية، والتحقت بالمدرسة. وقد غامر أحد المعلمين يومئذ وأقنع المدير بأنني إذا ما نقلت إلى الصف الخامس، وتقدمت في نهاية العام الدراسي لفحص الشهادة الابتدائية، فإنني سوف أنجح، مع أن الحصول على تلك الشهادة كان أمراً عسيراً في ذلك الحين. وتم نقلي فعلاً إلى الصف الخامس الابتدائي. وفي حزيران سنة 1953، ذهبنا بالباص إلى زحلة من أجل الفحص. كنا خمسة عشر تلميذاً من مخيم ويفل. ونجح منا أربعة عشر، وكنت أنا من الناجحين. ومع ذلك فإنني لا أحسب نفسي طالباً متفوقاً اللهم إلا أن أتفوق في اللغتين العربية والإنجليزية، وكذلك في علم التاريخ الذي أحببته كثيراً، وما زلت أحبه حتى اليوم. أما في بقية المواد فما كنت إلا تلميذاً متوسطاً فقط.

وحين انتهى الامتحان في حزيران، اشتغلت عاملاً زراعياً بصحبة عدد من العمال الفلسطينيين، وذلك في ضيعة اسمها مقنة، وهي إلى الشمال من بعلبك، على طريق حمص. ثم اشتغلت دراساً أدرس القمح بالنورج على بيدر من بيادر قرية أخرى اسمها مجدلون، وهي إلى الجنوب الغربي من بعلبك. وبعد شهر ذهبت إلى زحلة لأعمل في حقول البصل والبطاطا. كما قمت خلال ذلك الصيف ببضع سفرات إلى دمشق بصحبة بعض المهربين، وذلك ابتغاء تهريب الطحين الذي كان بضاعة رائجة. فيا لذاك الكدح المنخلع الفاتك المرير.

*　　　*　　　*

ثمة إلى الشرق من ساحة المرجة في دمشق جامع يسمى الجامع المعلق، وهو واحد من الجوامع التي امتلأت باللاجئين إثر النكبة. وكان هنالك، قبالة الجامع، مقهى ترتاده حثالة الشبان الفلسطينيين، ولا سيما المقامرين والمهربين ومن في فصيلتهم. وذات يوم، ذهبت إليه

أبحث عن مهرّب كنت أسافر بصحبته من بعلبك إلى دمشق وبالعكس. ولكنني لم أجده، ووجدت بدلاً منه مهرباً آخر رأيته يلعب القمار مع شاب أعور يسمى السنجاب.

وأخبرني المهرب أن له عشرين كيلو من الطحين في الجبال إلى الغرب من سرغايا عند رجل كنا نسميه "أبو الطبر"، وذلك لأنه كان يحمل سلاح الطبر المعروف. وطلب مني أن أذهب إليه لأجلب الطحين منه إلى دمشق وأن نقتسم الربح معاً. وأعطاني ليرة لأدفعها لأبو الطبر مقابل صيانته للطحين، كما أعطاني أجرة الباص ذهاباً وإياباً. فسافرت إلى الزبداني ومشيت منها شمالاً حتى بلغت أرض قرية تسمى عين حور، ومن هناك سرت في الجبال حتى وصلت إلى أبو الطبر، فأعطيته الليرة وأخذت الطحين الذي ستره بالحجارة والنباتات البرية الشائكة. ثم رجعت باتجاه الزبداني. وكان من شأن أبو الطبر أن يرصد لنا الدرب ويراقب حركة رجال الجمرك. وفي مقابل هذه الخدمة كنا ندفع له بعض القروش.

وبينما كنت أسير على الطريق بين البساتين سمعت خبب خيل، فالتفت خلفي لأرى حصانين عليهما رجلان من الجمرك. وسرعان ما ألقيا عليّ القبض وأخذاني عنوة إلى مخفر الجمرك في الزبداني. وهناك صودر الطحين وأطلق سراحي. وأخبرني أحدهم أن في الإمكان أن أصالح الجمرك على البضاعة، ولكن هذا الأمر لن يتم إلا بعد مجيء الرئيس في المساء. وعند ذاك عدت بالباص إلى دمشق لأخبر المهرب بما حدث لطحينه، فوجدته مازال يلعب القمار في المكان نفسه.

أعطاني المهرب خمس ليرات سورية وطلب إليّ أن أرجع إلى الزبداني ابتغاء إجراء المصالحة، وجاء المساء وتأخر الوقت، ولكن رئيس المخفر لم يأت. وبت في أحد شوارع الزبداني. ومع أننا كنا في شهر آب فقد كدت أتجمد من البرد. ولهذا فإنني ما غفوت قط طوال تلك الليلة.

وفي الصباح ذهبت إلى المخفر وقابلت الرئيس، فأخبرني بأن عليّ أن أدفع لهم سبعاً وعشرين ليرة سورية كي أحصل على كيس الطحين الذي إذا بيع في دمشق درّ ثلاثين ليرة على وجه التقريب. فأدركت أن الصفقة لا خير فيها، فما كان مني إلا أن رحلت إلى بعلبك هذه المرة. عدت وأنا أشتم طبع الأشياء الذي لا يمنح طفلاً مثلي كفافه من الطعام إلا بمشقة وعسر شديدين. ولهذا، اشتدت نزعة الانتحار في باطني وراحت تضغط عليّ كثيراً مع مرور الزمن.

يقيناً، إن خبرتي بالمرارة والبؤس هي أكبر من خبرتي بأي شيء آخر. لقد استنزفني المذاق المرير حتى العياء. ومع ذلك، فإنني كثيراً ما أضحك وأروي النكت وأحب سماعها. ولقد علمتني التجربة أنه، في هذا الزمن الملفق الشبيه بكشكول المتسولين، ما من كبير قط إلا ذاك الذي يحتقر الحياة والموت على السواء. ففي سالف الزمان اعتاد البشر على توقير حيواتهم لأنها كانت جديرة بأن تعاش. ولكن هل بقي هنالك شيء جدير بالتوقير في هذا الزمن الأجرب؟

وعندما كنت في دمشق ذات يوم من أيام تلك السفرات، التقيت باثنين من المهربين أتيا من مخيمنا، وكانا يريدان الرجوع إليه ومعهما بضاعة ثمينة لم أعد أذكرها (ربما أدوية). كان أحدهما زوج خالتي ذيبة، واسمه محمود، أما الثاني فاسمه علي الحطيني. وقالا لي بأنهما سوف يسافران إلى بعلبك عن طريق ضيعة سورية اسمها أعسال الورد، وهي إلى الغرب من رنكوس القريبة من صيدنايا، أو من ضيعة منين التي لا تبعد كثيراً عن العاصمة السورية.

وعرضا عليَّ أن أسافر معهما لأتعرف على طريق ما كنت قد عرفته بعد. ومزية هذه الطريق الجديدة أنها مأمونة فعلاً، إذ لا وجود البتة لرجال الجمرك في تلك الناحية، بل لا بشر ولا قرى بتاتاً بعد الخروج من أعسال الورد حتى مشارف بعلبك.

وكانا يعرفان رجلاً في تلك القرية، فركبنا الباص وسافرنا في طريق جبلي شديد الوعورة. وعندما وصلنا المكان المنشود استضافنا الرجل الذي يعرفان ورحب بنا وقدم لنا عشاءً شهياً. وبالصدفة كان هنالك عرس في تلك الضيعة، فدعينا إليه وقضينا سهرة ممتعة، إذ إن الأعراس في الريف أفراح بالفعل.

ثم نمنا حتى السحر الذي يسبق الفجر، وعند ذاك أيقظنا المضيف وخرج معنا، ودلنا على بداية الدرب الذي يجتنب الذرى الشاهقة في سلسلة جبال لبنان الشرقية. وحين أشرفنا على سهل البقاع، بزغت الشمس، أو سبق لها أن أشرقت للتو، فرأيت مشهداً لا أنساه ما حييت. كان السهل مبسوطاً أمام العين كالبساط، والقرى تزركشه كأنها زخرف أو زينة تزينه ليصير أنيقاً تأنس به الأبصار. أما جبال لبنان الغربية، ولا سيما الذروة التي تسمى القرنة السوداء، فتنتصب باذخة كأنها أعمدة تحمل الكون بأسره.

وبدت الأشياء في ذلك العراء الشاسع المفتوح ساجية قارة، مع أنها تنداح في جميع الاتجاهات، بل ترخم في دعة وكأنها تنتسب إلى الأزلية، أو قل كأنها حصينة كالقدر العصي على كل مؤثر أو ضاغط. ومن شأن هذه الحصانة وهذا الاستتباب، وهذه الدعة الهادئة الهانئة الناعمة أن تضفي على الكائنات الكثير من الجلال والقداسة والقدرة على الخلب والإدهاش. ولعل أهم ما في أمرها ساعة الشروق أنها آمنة مطمئنة لا يقلقل هدأة بالها أي اضطراب أو توتر. وكان من شأن النور المولود للتو أن صبغ الأرض بصبغة يعسر على المرء أن يصفها أو يجد لها اسماً يناسبها بدقة. وهي صبغة لا تعرفها الأرض إلا في تلك الساعة الصباحية الميمونة وحدها. وحين انتشر النور فوق سطوح الأشياء، فخرجت من الخفاء إلى الظهور والنصوع، شعرت بأن الكون كله قد ولد من جديد، وبأن النفس التي بين جنبيّ قد أفرج عنها أو أطلق سراحها، إذ لم أكن أعرف أين أنا بسبب ستائر الظلام المتراكم الكثيف. وبما أنها لحظة شديدة القدرة على التأثير، بل على الحضور، فإنني أشعر اليوم بأن اللغة تخذلني وأنا أحاول استحضارها بواسطة الألفاظ. فحتى ذلك الحين لم أكن قد اكتشفت تماماً، ودون رجعة ولا مساومة، ما فحواه أن الكائنات لا يربض في أجوافها شيء سوى الشدر والبؤس والشقاء. إن هذا الاقتناع الذي من شأنه أن يثير الاشمئزاز في النفس، حين يجثم في سوائها لا يريم، قلما يجيء قبل الاكتهال الذي هو الاسم الآخر للاكتمال.

ولا أبالغ إذا ما زعمت بأنها برهة استشراف صوفي لا يخبر المرء مثلها إلا على ندرة وحسب. ولعلها أن تكون أول تجربة صوفية عرفتها في حياتي، أو أول رؤيا استسرارية عشتها بالفعل. فاليوم أشعر وكأن الحقيقة الكلية العزيزة على أفئدة الصوفيين قد تبدت لي في ذلك الآن الجليل، بل كأنها راحت تتجلى أو تتعرى أمام البصر قبل البصيرة. صدقاً، أشعر اليوم حين أتخيلها وكأن سر الكينونة حصراً قد أخذ يتخارج ويتكشف ويجيء من الغياب، على نحو مفاجئ، وكأنه نعمة سَنية هبطت من السماء.

* * *

وفتحت المدارس أبوابها في أيلول سنة 1953، وانتقلت إلى المدرسة الإعدادية التي كنا نسميها المدرسة الثانوية، إذ كان الصف السادس يدخل في المدرسة الإعدادية، وليس في المدرسة الابتدائية، كما هو الحال اليوم. ولكن عبارة «المرحلة الإعدادية» لم تكن معروفة في لبنان يومئذ، إذ كان التعليم المدرسي ينقسم إلى قسمين اثنين وحسب، ابتدائي وثانوي.

ولكن المفاجأة المريعة التي فاجأتني منذ بداية ذلك العام الدراسي هي أنني أبديت ضعفاً محبطاً في الرياضيات التي يبدأ الطالب بتعلمها ابتداء من الصف الأول الثانوي. لم أستوعب تلك المادة بتاتاً، ولم أشعر إلا بالنفور منها. وهذا شأن خطير، إذ وقعت في معضلة لا حل لها. ولما رأيتها مستغلقة تمام الاستغلاق، حتى لكأنها الاستعصاء بأم عينه، فقد سميتها علم الطلاسم.

وفي تلك السنة، فتحت الأونروا مدرسة ثانوية في بعلبك لأول مرة. وكان موقعها داخل المدينة، بل في وسطها تقريباً. والقصد من ذلك الموضع هو أن تضم المدرسة طلاب المخيمين كليهما، أعني مخيم ويفل ومخيم غورو. وجيء للمدرسة بأساتذة من بيروت، معظمهم في مقتبل العمر، وكلهم متعلم راسخ في المعرفة وقادر على التدريس.

* * *

كان عام 1953 منعطفاً في حياتي، إذ دخلت طور البلوغ يومئذ، وصرت أشعر بنوبات الغلمة الحادة اللاسعة كأنياب الأفاعي، ورحت أكابد قدرتها على الفتك والتعذيب إلى حد اللوعة والشعور بالقهر. فهي، في ذلك السن التأسيسي، تلذع وتعض دون أية رحمة. يا إلهي! إنه الإيروس صانع الحياة أو ينبوعها الوحيد. وإنه لقوة لا تبذها أية قوة أخرى سوى الموت الذي يطيعه الجميع ولا يعصاه أحد بتاتاً.

أي كابوس هو الشبق في سن المراهقة!؟ ولكم أصاب لورنس حين قال بأننا مصلوبون في الجنس، في الغلمة والاشتهاء الجسدي، الذي من شأنه أن يلغي الفرق بين الروحاني والجسماني، أو يعمل على تقليصه إلى حد لا يخفى على ذوي الألباب. وكذلك أصاب الصوفيون أيما إصابة حينما قالوا: "لا مرام سوى الغرام".

ولكنني سرعان ما أدركت بأن للاغتلام دواءً ناجعاً شافياً حقاً. إنه القرآن الذي رحت أواظب على تلاوته لساعات طويلة كل يوم، حتى ختمته مئات المرات. ثم أتبعت ذلك بالاختلاف إلى الجوامع وممارسة الصلوات في تلك الأماكن التي تفرز الخشوع في النفس حتى تزكو وتسمو فوق كل شهوة شبقية، بل حتى ترغم كل اشتهاء على الاضمحلال فالتلاشي، مهما تك شدة السورة والأُوار. وصرت أستمتع بحضور الدروس الدينية التي يلقيها بعض الشيوخ اللبنانيين في جامع يقع داخل مدينة بعلبك.

وكان أن شحنت النفس وشحذتها لتُقبل بكُنه الهمة على الله، الذي رأيت أن عبادتي له هي لباب الوجود بالضبط، وما عدا ذلك قشور ناشفة لا خير فيها قط. وتطرفت في الورع والتقى حتى صرت أشعر بأنني من المحدّثين في قلوبهم، أو بأن الله يكلمني في سري طوال الوقت. وكنت أسمعه يقول لي: يا يوسف، إنني لا أهبك إلا القليل من المال لأن ذلك الإنجاز الإبليسي أو الجهنمي مفسدة لروح الإنسان وترميد لبراءته وطهارته، وأنا لا أريد لك أن تفسد،

ولولا ذلك لوهبتك من المال ما لا يتسع له بيتك. وبالفعل، رحت أشتري السجائر كلما وجدت في جيوبي قطعة القروش الخمسة أو أكثر.

صرت أعتقد بأنني صديق الله، بل ولي من أوليائه الصالحين. وكثيراً ما كنت أحسب نفسي واحداً من أولئك الذين وصفهم القرآن بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وحين تعتقد بأنك صديق الله وحبيبه، ولو مجازاً، وبأنك مكنوف باللطف ومأهول بالمسرة، فإن المادي أو العيني بأسره لن يكون سوى عنصر ثانوي نافل، بل مجرد لحاء باهت لوجودك الماهوي، أو دثار يسترك من الخارج وحسب. إنه الصدف الذي يخبئ اللؤلؤة المكنونة التي هي هويتك الأصلية أو روحك ولباب أمرك. وعندئذ لن تكون هنالك قيمة لغير الوجد والوجدان، أو لغير الروح التي ما وجدت المحسوسات إلا لكي تقوم على خدمتها ورفاهها. فلئن كانت الحياة الجسمانية هي شكل الوجود الإنساني، أو صورته المرئية، فإن الروح هي نسغه ورحيقه، بل كنهه وسره ومحتواه الصميمي النفيس.

ويتبدى لي اليوم أن جنوحي صوب التقى والورع في تلك الفترة ما كان له من هدف سوى الحصول على لُقيمة أصالة أو فحوى، بل على استتباب في جوف الراسخات، أو في سريرة الكينونة، حيث تكون القيمة، وحيث يكون للحياة من الحيوية ما يجعلها تجربة تستحق أن تعاش. إن الداخل هو وحده النفيس. أما الخارج فلا يزيد عن كونه ظلاً لأصل تفصله عنه مسافة سرمدية. ولو كان الفرق بينهما كالفرق بين اللباب واللحاء لكان ذلك فصالاً يند عن كل تسوية.

ولكن هذه النقلة النوعية أو الحركة الاستقلابية الجذرية ما كان لها أن تتم بمعزل عن التأثير الإيجابي العميق الذي مارسه عليّ جدي علي، ذلك العجوز الموغل في الطيبة والورع والتقوى. إنني واثق من أن ذلك الجد ما كان ليكذب أو يغش إلا إذا كذبت الملائكة أو غشت. ولا أعرف أحداً له هذه المناقب عينها سوى جدتي خضرا، التي هي والدة أبي. كان جدي يصلي الفروض والسنن والنوافل، ولا سيما الضحى وقيام الليل. كما اعتاد على أن يصوم معظم أيام السنة. ولقد ذهب إلى الحج قبل عام النكبة، أو ربما سنة 1946. وأهم ما في أمره أنه قلما يتكلم في موضوع لا يخص الدين أو الأخلاق الحميدة.

*　　　*　　　*

وكانت هنالك في داخل بعلبك مكتبة قريبة جداً من سينما ركسي، يملكها رجل شاب يسمى اسكندر، وهي متخصصة ببيع الكتب المستعملة. وهذا يعني أن أسعارها زهيدة، إذ لا يزيد ثمن الكتاب الواحد عن ربع ليرة لبنانية، أو هو يتراوح بين خمسة قروش وخمسة وعشرين قرشاً. ورحنا نشتري كل ما أمكن شراؤه، ولا سيما كتب جبران ونعيمة والمنفلوطي وجرجي زيدان.

ولكن كتاباً دينياً جذاباً قد وقع في يدي هناك فاشتريته ورحت أدرسه بنهم. وهو كتاب يروي بعض أحاديث الرسول (ص)، وأظنها اليوم من تلك الأحاديث المنحولة أو الزائفة. فمثلاً، ينسب الكتاب إلى الرسول قولاً مفاده أن من قال «سبحان الله» أربعين مرة بني له قصر في الجنة، ومن قال «الله أكبر» سبعين مرة لم يصبه أذى طوال يومه، ومن قال: «لا إله

إلا الله» مائة مرة دخل الجنة بغير حساب. ولهذا، راقني الكتاب كثيراً وتشبثت به كما لو أنني عثرت على كنز نفيس، ورحت أطالعه بغير سأم ولا تعب، حتى بت أتخيل أن الله أرسله إليّ لأنه يريد بي خيراً. وأهم ما في الأمر أنني بنيت لي عدداً لا يحصى من القصور في جنان النعيم.

ويستطيع المرء الآن أن يجد الكثير من أمثال هذه الأحاديث في الجزء الأول من "إحياء علوم الدين" للغزالي.

ولكنني تعرفت على المعري في ذلك العام الدراسي، فرحت، لأول مرة في حياتي، أطرح سؤال "اللماذا" و "من أجل ماذا" نكابد هذا الشقاء كله. والمعري أكبر حساس في اللغة العربية، وما من شاعر يبذه، أو حتى يضارعه، في مضمار التحسس إلا شكسبير وحده. ولعل في ميسورك أن تصفه بأنه شاعر العزة والأنفة دون أن تحيد عن السداد. إنه إنسان عيوف طافح النفس بالكبرياء والكرامة والنزوع نحو الساميات.

لقد أيقظني شاعر المعرة على اللاجدوى، فرسّخ في داخلي نزعة الانتحار والازدراء بهذه الدنيا التافهة التي لا لزوم لها بتاتاً. فالأنفة التي تملأ الرجل هي من الزخم والعرام بحيث لا يسعها قط أن تتصالح مع هذا الابتذال المنتشر في العالم حتى لكأن الوجود منسوج من الحِطة والاتضاع، ولا شيء سوى ذلك. ولكم هز وجداني حين سمعته يقول: "وما كان هذا العيش إلا إهانة" يا إلهي! التنفس إهانة، ليس إلا.

* * *

وعندما أغلقت المدارس أبوابها في حزيران سنة1954، ذهبت مع صديق لي اسمه حسن إلى قرية اسمها الدير الأحمر، إلى الشمال الغربي من بعلبك، واشتغلنا درّاسين زهاء شهر كامل. وعندما انتهى العمل وقبض كل منا أجرته، ورحنا ننتظر الباص لنعود إلى بعلبك، تشاجرت مع بعض الفتيان من أهل تلك القرية لسبب ما عدت أذكره. وجاء شاب يشهر خنجراً وأراد أن يطعنني به، لولا أن أمسك به بعض الرجال. والحقيقة أن الأوباش والأجلاف كثيرون في تلك الأرياف، أو في قضاء بعلبك كله.

وبعد ذلك ذهبت إلى زحلة لأعمل في حقول البصل والبطاطا. وتركت أبي وهو يعاني من صداع في رأسه، ولكن مرضه كان من ذلك النوع الذي ألفناه وتكيفنا معه طوال السنتين السالفتين.

وذات مرة كان عملنا في حقل مجاور لنهر الليطاني. وبعدما تعرفت على النهر صرت أذهب إليه بصحبة اثنين من أصدقائي لنتعلم السباحة يوم لا نجد عملاً. كما أننا تعرفنا، في وقت آخر، على بركة تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة بعلبك، أو قرب مكان يسمى حوش تل صفية. ومن تلك البركة ينبع نهر الليطاني، على ما أُرجح. وقد نسيت اسم تلك البركة. ومما أذكره أنني رأيت الطيور البر-مائية وهي تنقض من الجو وتغوص في مياه البركة.

وعلى أية حال، أخبرني أحد الناس في زحلة بأن أبي مريض جداً، وأن عليَّ أن أذهب إلى البيت في بعلبك للاعتناء به. فما كان مني إلا أن تركت العمل وغادرت زحلة، ووصلت المخيم قبيل الغروب.

وحين دخلت المنزل وجدت أمي وجدتي خضرا ومعهما مجموعة من النساء، ولكن أبي لم يكن هناك. وعندما شاهدتني النسوة بكين بمرارة، ولا سيما جدتي التي فقدت ابنها الوحيد، وهو من كان في أوج العمر، بل حصراً في الرابعة والثلاثين. وأنبأني البكاء أن أبي مات، فما كان مني إلا أن بكيت ملتاعاً، إذ صارت أسرتنا تتألف من أرملتين وأربعة يتامى. ومما حز في نفسي كثيراً أنني لم أكن بالقرب منه في أيامه الأخيرة. ولهذا لم آكل في تلك الليلة بتاتاً، ولم أنم إلا قليلاً. وفضلاً عن ذلك فقد سفحت الدمع ساخناً مدراراً، ولساعات طويلة.

وفي الصباح الباكر هرعت إلى المقبرة ومعي من يدلني على الضريح، وحين شاهدته ارتميت فوقه فأغمي علي. وكانت المقبرة مجاورة لجدول ماء عذب، فرشوا بعض الماء على وجهي الأصفر الشاحب، فثبت إلى وعيي بالتدريج.

كان أبي طيباً وذكياً وجميلاً جداً، ومن تمتع بهذه السمات الثلاث، فإنه قلما يعيش طويلاً. وكان الحزن يتبدى على وجهه طوال السنوات الست الأخيرة من عمره القصير، وهي التي قضيناها خارج الوطن، يكابد الذل والهوان والفقر الاغترابي المرير. ويلازمه على الدوام صمت غوري لعله أن يكون ناتج قهر وشعور بالخيبة والحسرة والهزيمة أمام الشر. ومع ذلك فقد كان يبدو وكأنه محاط بهالة من الرفعة والكرامة وعزة النفس.

ولهذا كنت أشعر دوماً بأن ثمة جلالاً مكتوماً في حياة كل امرئ طيب، مهما يك طفيف الشأن، أو عديم القيمة من الناحية المادية أو الاجتماعية. فحسب المرء أن يكون طيباً كي تصير له قداسة الأولياء والصالحين. ويكفي أن يكون الإنسان أنيساً كي يعد من سلالة النور. وهذا هو أبي بالضبط.

يقيناً، إن الإنسان الحنون اللطيف، ذو الوجدان الدافئ والمترع بالرأفة والطيبة، هو الكائن البشري الذي يتمتع بالرتبة الإنسانية ويستحقها في آن واحد. أما معياره فهو أن ينعشك حين تلتقيه وتتعرف على محتويات صميمه الروحي. وعندي أن فقه الإنسان، أي علمك به، يتوقف على الولوج إلى سريرته، أو إلى باطنه المستور.

وكثيراً ما يلاحظ المستأني حناناً ودفئاً ناعماً في وجه كامد دميم، ولكنه حنان قلما يدركه أحد، وذلك لأن الذين يجيدون قراءة المكنونات والمضمرات هم أندر أصناف البشر. ولكن ما يؤسف له حقاً أن الناس يعبدون القوة، وهم قلما يأبهون بالطيبة ونضارة الوجدان. ولكم كان نيتشه مثيراً للتقزز عندما دعا إلى إرادة القوة بدلاً من الإخاء والمحبة والجمال.

لقد مات أبي قهراً، إذ لم يتحمل النكبة التي حلت بنا فأحالتنا إلى بؤساء لا نختلف عن المتسولين كثيراً. فهو سليل أسرة ميسورة الحال، ولكنه وجد نفسه بعد النكبة فقيراً معدماً لا يملك إلا ما يسد به الرمق. فما كان من دماغه إلا أن انفجر. نزف حتى الموت. أدخل غرفة العمليات في مشفى الجامعة الأمريكية على حساب الأونروا، ولكنه مات أثناء العملية الجراحية.

مات شاباً في أوج العمر. لم يتحمل أن يتحول من رجل يملك مائة دنم من الأرض الشديدة الخصوبة إلى مجرد عامل زراعي مياوم مسكين. يقيناً، إن أبي واحد ممن قتلهم اليهود الذين استلبوا أرضنا وأحالونا إلى مشردين فقراء نشقى كثيراً بغية الحصول على الكفاف وحده.

*　　　*　　　*

وبعد أيام قليلة رجعت إلى زحلة من جديد، ورحت أمخر وحول الحياة وأدوس على حراشفها الشبيهة بالنصال، ولكن دون أن تكون لدي أية أسانيد من شأنها أن تساندني وتثبت أقدامي.

ومكثت في زحلة حتى أواخر العطلة الصيفية تقريباً. وكثيراً ما كان العمل في حقول البصل والبطاطا ينتهي بانتهاء العطلة الصيفية نفسها، كما أننا لم نكن نتقيد بيوم افتتاح المدارس، إذ كثيراً ما كنا نتأخر أسبوعاً أو أسبوعين، ثم نذهب إلى المدرسة دون أن تعترض الإدارة على ذلك، لأنها متأكدة من أننا نكد ونكدح من أجل لقمة عيشنا.

والحقيقة أنني لم أعمل في زحلة نفسها هذه المرة إلا قليلاً، إذ اشتغلت دراساً أدرس الحنطة على بيدر كبير جداً، لم أشاهد أكبر منه في حياتي، وذلك في ضيعة اسمها عمّيق، وهي إلى الجنوب من شتورا، أو إلى الشمال من مشغرة والقرعون. وبقيت هنالك شهراً كاملاً، لعله أن يكون شهر آب سنة 1954. وكنت أدرس مع فتى آخر لم أكن أعرفه من قبل. وكانوا يدفعون لكل منا ليرة كاملة يومياً، فضلاً عن وجبة إفطار ووجبة غداء مشبعتين. وكانت هنالك سيارة تأخذنا وتأخذ عمال المزرعة المجاورة للبيدر من زحلة إلى عمّيق كل صباح، وتعيدنا إلى زحلة كل مساء، وكانت معنا عاملات لبنانيات، إحداهن جميلة مرحة. وقد تجرأ أحد العمال وقبّل خدها الوردي في السيارة علناً وأمام الجميع. فولولت الفتاة قليلاً، ثم انتهى الأمر.

ويوم فرغت من عمّيق لم أرجع إلى بعلبك مباشرة، بل سافرت مع اثنين من أصدقائي إلى بيروت حيث شاهدت البحر لأول مرة في حياتي. وكنت مشوقاً لرؤية ذلك المرج الأزرق المنداح الذي لا أرى فيه إلا سراً جاسداً أو مستوراً أعطي لمقلة العين. ولكم راقني ذلك المشهد الفيروزي الفتان، ولكنني لم أشبع منه بتاتاً، بل لم أشبع من رؤية البحر إلا يوم اشتغلت معلماً في مدينة اللاذقية، أو في مخيمها المسمى مخيم الرمل، وذلك سنة 1962. ومن حسن الحظ أن المدرسة كانت مبنية على رمل الشاطئ، أي على مسافة خمسين متراً عن الأمواج، فكنت أرى البحر من نافذة الغرفة.

ووجدنا في بيروت باصاً ذاهباً إلى بحمدون فأخذناه إلى تلك البلدة الجميلة، حيث نمنا ليلة في العراء إلى جانب الدرب، ودون أي غطاء مهما يك نوعه. وفي الصباح الباكر تمتعنا بالجمال الخلاب الراخم على السفوح الغربية لجبال لبنان. وكنا في مكان يطل على وادي حمانا الذي أعجب به لامارتين، الشاعر الفرنسي المشهور، أيما إعجاب. ولست أبالغ إذا ما قلت بأن هذا العالم برمته لا يعرف إنساناً يحب الجبال والغيوم أكثر مني.

وكانت هنالك بيوت فاخرة جداً، وكذلك مطاعم ومقاهٍ وفنادق للمصطافين. وصادفنا في ذلك الموضع فتى من مخيم غورو لم نكن نعرفه من قبل. ولكن حين سمع لهجتنا ونحن نتخاطب معاً، أدرك أننا من أبناء جلدته، فبادرنا قائلاً: ألستم من الفلسطينيين؟ فقلنا: بلى. فقال: من أي مخيم أنتم؟ فقلنا: من مخيم ويفل. فقال: أنا من مخيم غورو. ثم سألنا: ألستم جياعاً؟ قلنا: بلى، فقد بتنا الليلة الماضية على الطوى تقريباً، وها قد أوشك النهار على الانتصاف، ولم نذق طعاماً بعد. فقال: انتظروني قليلاً ريثما أعود.

وغاب لحظة وجيزة ثم رجع إلينا وهو يحمل قطعاً من اللحم والسمك والدجاج، وكذلك بعض الخبز والفاكهة. وأخبرنا أنه يعمل نادلاً في أحد المطاعم هناك. فأكلنا وشبعنا تماماً، إذ

كان الطعام شهياً جداً. وشعرت بأنني أحرزت نصراً مؤزراً على الجوع لم أحرز مثله منذ سنوات طويلة. لقد ابتلاذا التاريخ بالقيح الذي يسمى اليهود واللؤم الذي يسمى الإنجليز، والإرهاب الدموي الذي يسمى الأمريكان، فنكبونا بجميع أشكال البؤس.

وبعدما تعارفنا قدمنا الشكر الجزيل للفتى الشهم الأصيل المعطاء. فمما هو صادق في ذهني أن الإنسان الطيب كثيراً ما يظهر عند شدة الحاجة إليه. وودعناه ثم مضينا إلى شأننا، ونحن نردد واحداً من أمثالنا الشعبية: «لا يحن على العود إلا قشره.»

وبينما رحنا نتسكع في شوارع بحمدون ونتخاطب باللغة الإنجليزية تدخلت فتاة في مثل سننا وأخذت تكلمنا باللغة إياها. واستهجنت أننا نتكلم تلك اللغة بطلاقة مع أن ثيابنا رثة جداً، بل مهلهلة تبعث على الاكتئاب. فأخبرناها أننا فلسطينيون مشردون نكاد أن نكون بلا مأوى ولا مستقر. وسألتها عن اسمها، فقالت: روز. وكانت فاتنة جداً خلوباً لم تذق بؤساً ولم تعرف البرد ولا الجوع. ومعها بنت صغيرة قالت إنها أختها. ثم ودعتنا وانصرفت وهي مندهشة من هؤلاء الذين يلبسون أسمال المتسولين، ويتكلمون الإنجليزية بطلاقة وكأنها لغتهم الأولى.

وعدنا إلى زحلة في ذلك اليوم، ثم سافرت إلى بعلبك ابتغاء العودة إلى المدرسة التي أوشكت على فتح أبوابها من أجل عام دراسي جديد.

* * *

بعدما غادرت بعلبك إلى زحلة إثر وفاة والدي في تموز سنة 1954، جاءت عمتي فاطمة وزوجها من دمشق لتقديم التعازي، استناداً للمقتضى الذي يحتم ذلك. وبما أنها لم تجدني هناك، فقد أوصت أمي بأن ترسلني وأخي محمداً إلى دمشق لزيارة تلك الأسرة قبل افتتاح المدارس. وبالفعل سافرنا إلى سوريا معاً بطريق الجبال ووصلنا إلى بيت عمتي في المزة التي كانت يومئذ ضاحية من ضواحي دمشق، تفصلها عنها بساتين كثيرة واسعة غناء. وابتهجت عمتي وأسرتها برؤيتنا أيما ابتهاج. ومما هو جدير بالذكر أن البيت العربي الذي كانت تسكنه أسرة عمتي ما زال على حاله حتى اليوم.

كان معرض دمشق الدولي قد افتتح لأول مرة في تاريخه، وذلك في الأول من أيلول سنة 1954. فزرناه وتمتعنا به كثيراً. إذ هو تجربة بكر لنفس ما فتئت في طور البكارة والغرارة. وكانت سينما دمشق تعرض فلماً سينمائياً لشادية، وكانت تلك الممثلة في دمشق مع اسماعيل ياسين. وأعلنت تلك السينما أن هذين النجمين سوف يحضران شخصياً لمخاطبة الجمهور بعد انتهاء العرض. وجاءت شادية بالفعل وغنت أكثر من أغنية. كما جاء اسماعيل ياسين الذي روى نكتة أو نكتتين، وأمتع الجمهور وجعله يضحك، ولا سيما بحركات فمه الواسعة. ولقد تباهيت كثيراً بعد الإياب إلى بعلبك بأنني شاهدت اثنين من مشاهير السينما المصرية.

ومما رأيته في دمشق خلال تلك الزيارة ولد كانوا يسمونه الولد الغزال. فبينما كانت سيارة لبعض الصيادين تطارد سرباً من الغزلان في بادية الشام ذات يوم، إذ رأى أولئك القوم كائناً بشرياً يركض مع السرب، فتوجهوا نحوه بسيارتهم، وظلوا يطاردونه حتى قبضوا عليه، ثم جاؤوا به إلى دمشق وسلموه لإحدى الجهات الرسمية. فما كان من تلك الجهة إلا أن أتلفت

جزءاً من أعصاب رجليه كي يخسر الكثير من سرعته الغزلانية. ثم أعطوه حريته ليتسيَب في الشوارع، فصار ينام على الأرصفة، ويأكل الخضراوات في سوق الهال. كما أنه لم يكن يتكلم بتاتاً. وهذا برهان حاسم على أن الإنسان لا يصير إنساناً إلا في العلاقة أو في الاتصال بسواه من الكائنات البشرية. ولم يملك الفتى أن يتكيف مع البيئة الجديدة فمات، إذ سألت عنه يوم عدت إلى دمشق في السنة التالية فقيل لي بأنه فارق الحياة على رصيف من أرصفة العاصمة السورية. وأغلب الظن أنه في الأصل طفل لقيط ربته الغزلان، فصار شديد القدرة على الركض مثل تلك الحيوانات الرشيقة سواء بسواء.

كان في الميسور أن يعلّمه أحد الناس النطق وأن يستفاد منه في المباريات الرياضية الدولية، إذ ما من كائن بشري يستطيع أن يبذه في الركض. بل كان ينبغي أن يصان في مكان ما لأسباب إنسانية خالصة.

وانتهت زيارتنا لدمشق بعد أسبوع كامل، وعدنا إلى بعلبك عبر الجبال، قبل افتتاح العام الدراسي الجديد، أو ربما بعد ذلك بقليل.

*   *   *

في ذلك الصيف، غيرت الأونروا مكان المدرسة، إذ نقلتها من وسط المدينة، إلى مكان آخر قريب من رأس العين، التي هي ينبوع ماء عذب وغزير، يقع في الطرف الشرقي من مدينة بعلبك، يجاوره من جهته الغربية مرج سندسي أخضر كالزمرد، ويصلح للعب والركض والاستلقاء على العشب، كما تجاوره جبال شماء تحيط بالمدينة من جهتها الشرقية.

ومما ينبغي التنويه به أن ذلك العام الدراسي، وهو آخر عام قضيته في لبنان، قد ترك في نفسي أثراً طيباً لا أنساه، إذ جاءنا طاقم جديد من المعلمين الشبان الذين يتمتعون بثقافة عالية واسعة. أما سبب جودتهم فهو أنهم أول دفعة من المعلمين الفلسطينيين الذين درسوا في بيروت، وهي المدينة التي كانت في تلك الآونة إحدى عاصمتين ثقافيتين للعالم العربي بأسره. (العاصمة الثانية هي القاهرة). ولقد صنعوا مكتبة جيدة للمدرسة على حساب الأونروا. فامتلأت المدرسة بالكتب من جميع الأصناف، ولا سيما كتب الأدب المتنوعة، فضلاً عن المجلات الأدبية، كمجلة «الأديب» ومجلة «الآداب»، اللتين تعرفت من خلالهما على الشعر الحديث.

وكان نايف معروف، مدير المدرسة، شاباً في العشرين من سنوات عمره، أو أكثر بقليل. وهو يحمل الشهادة الثانوية، وهذه مزية لم تكن تتوفر لأحد ممن أعرف في تلك الأيام. ولكن أهم ما في أمره أنه شاعر ومثقف على نحو جيد. ولقد أخذ ينظم لنا برامج مطالعة ابتغاء التعرف على الروايات والمسرحيات العالمية، ولا سيما تراث شكسبير. كما أنه قد أدخل التمثيل المسرحي إلى المدرسة لأول مرة، فرحنا نمثل بعض المسرحيات الخفيفة التي كان يعدها المدير بحيث تتناسب مع مستوى الطلاب. والأهم من ذلك أنه أصدر مجلة مطبوعة نشر منها عدداً واحداً في تلك السنة، وباع النسخ للطلاب مقابل ليرة واحدة لكل نسخة.

ومن أبرز الأحداث العائلية في ذلك العام الدراسي أن جدتي خضرا قد سافرت إلى دمشق في الأيام الأولى من سنة 1955، كي تعيش في المزة مع ابنتها الوحيدة. ولم ترجع إلى بعلبك قط طوال السنوات الخمس عشرة المتبقية من عمرها، إذ حصلت على إقامة رسمية

دائمة في سوريا، وذلك بفضل الجهود التي بذلها زوج ابنتها، وهو من كان موظفاً في الأونروا.

*　　　*　　　*

ابتداء من أواخر سنة 1954 استفحل في فضاء نفسي نزوع زاخر عارم نحو المعرفة، أو لعله اندفاع يمكن لي أن أسميه باسم السورة العقلية، وهي سورة أو فورة لم تبارحني حتى يوم الناس هذا. ويجوز القول بأن ثمة، في البحث عن الحقيقة، متعة لا تفوقها أية متعة أخرى، ولكن شريطة أن يكون المرء مصاباً بصنف من أصناف المسغبة الداخلية، التي هي الاسم الآخر للنزوع إلى الالتقاء بأسّ الوجود وكنهه ويقين أمره. فكثيراً ما أشعر بأن خفقان الوعي يكاد أن يكون نبضاً، لا في داخل الذات وحدها، بل في أجواف الأشياء، أو في أنسجتها، قبل كل شيء. ومن شأن هذه الأخيولة أن تجعل البحث عن الحقيقي أمراً ممتعاً، بل جد ممتع. وفي البداهة أن المتعة الزاخرة العارمة من نصيب المتضورين دوماً، أو من يكابدون الظمأ الشديد وحدهم. وعندي أن أناس الظمأ الدائم هم أكثر الكائنات تجسيداً للهوية الإنسانية، إن لم يكونوا وحدهم من يجسدون تلك الهوية المضنية، وذلك نظراً لما يندرج فيها من قلق وأرق وحذين وأشواق لا إشباع لها بتاتاً.

وربما استطاع الشغف بالحقيقة أن يفرز في النفس قلقاً لا شفاء له ولا دواء. وهو قلق يهدف إلى إشباع الحنين المقدس الأصلي والاستجابة للشوق اللاهث والنازع إلى حيازة ما يند عن الحيازة. ولعل الشغف بالحقيقي أن يكون جهداً نبذله كي نطفر من إسار الزمان بغية البلوغ إلى الفسحة التي تتجاوز الآنية إلى رحاب السرمدية. وقد أملك حق الزعم بأن الشغف بالحقيقي فرار من جوف الحلك إلى بؤرة النور الذي يملك أن يغسل الأشياء فيجعلها ناصعة حاضرة بكامل فحواها ومحتويات صميمها.

وعلى الرغم من هذا اللهاث المكافئ للاختناق، وفي زحام هذا الاغتراب الأطلس الغشوم، فإنني ما زلت أبحث، منذ كان العمر في الريعان، أو حصراً منذ سنة 1954، عن حقيقة روحية سرمدية أتشبث بها ما دمت أتنفس، وحين لم أجدها صار لزاماً عليّ أن أنقب عن خميرة تصلح لتوليد مستقبل سعيد قد تعيشه البشرية ذات طور من أطوارها الآتية. إنني ما زلت أفتش عن بذار من شأنه أن يثمر الحلاوة بدلاً من هذه المرارة العلقمية الفاتكة. ولكن يدي لم تلامس أيما شيء سوى الخواء.

ولهذا، فإنني لا أرتاب بقيمة الحقيقة وكفى، بل أرتاب بوجود أية حقيقة مهما يك نوعها، في عالم يصدّعه الشر ويستحوذ عليه إلى الأبد. وإن كانت هنالك حقيقة فهي شعوري وحده، حنيني الذي ابتليت به كما ابتليت بداء السكري، وقناعتي بأن الإنسان أشواق بالدرجة الأولى، وأن ما لا يقبل الاسترداد له لوعة في نفسي وحرقة في كبدي، وحسرة تلوعني وتفتك بي دون رحمة. ثم لئن كانت هنالك حقيقة فهي اشمئزازي الذي أراه منقبة من مناقبي الكبرى، وموهبة أنعمت بها عليّ قوة الخلق نفسها. ومن شأن هذه الرعشة النفسية أن ترسخ الوجود الأصلي بوصفه غيابا أكثر مما هو حضور. وهذا يعني ألا مفر من المقاساة أبدا.

ولهذا لا يجوز اشتقاق الفحوى من الذهن، بل من انفعالات المعذبين والموجوعين، ومن طيبة الناس الطيبين، ومن عواطف العشاق الملهوفين، وكذلك من لغة الصوفيين الصافية

النقية ووجدانهم المترع بالحنين الى ما يعني ويزود الحياة بالقيمة والدلالة. وعندي أن هذه الماهيات هي النبل والطهر بأم عينه. فالحقيقة هي ما اكتشفه البوذا وتلميذه المعري في الحياة من ألم وعذاب ومكابدة لا طائل تحتها، أي أن المتألمين والموجوعين هم التجسيد الأمثل لأية حقيقة أو دلالة في هذا العالم الشديد القدرة على صنع الشقاء.

فلا غلو إذا ما ذهب المرء إلى أن الألم شرخ أو صدع في جدار الذات الحساسة، لا يبارحها ولا يفارقها بتاتاً. لقد اكتشفت تلك الفطر الفائقة أن الشر، وخاصة الألم، هو جوهر الكينونة او لبابها أو معظم شأنها على الاقل. ولهذا، فإنني أتعاطف دائماً مع نزلاء المشافي والسجون، وكذلك مع الحزانى وذوي الأفئدة المسحوقة، أو المعذبين والمدحورين أمام الحياة. وحده من يتعاطف هو الذي يستحق أن يوصف بأنه كبير، بل بأنه إنسان.

*　　　*　　　*

ومهما يكن جوهر الأمر، فإن ذلك العام الدراسي قد كان بمثابة نقلة نوعية في حياتي، إذ أسهم أيما إسهام في تثقيفي وكذلك في تحديد ميولي التي سوف تتبدى واضحة بعد زمن قصير.

فلئن كانت السورة الدينية التي خبرتها سنة 1953 نتاجاً للتأثير الطيب الذي تركه جدي لأمي على روحي الغضة في تلك الفترة، فإن السورة المعرفية التي خبرتها ابتداء من السنة التالية قد جاءت ثمرة لتأثير مدير مدرستنا على ذهني المتحفز والجاهز لاستقبال التأثيرات. ففي الحق أن نايف معروف قد أيقظني على ما يندرج في داخلي من طاقات ومواهب وأنوار.

كان فتى حنطي اللون، باسم الثغر، نحيف الجسم ورشيق الحركة. وراح يدرّسنا الشطر الأدبي من مادة اللغة العربية المشطورة إلى شطرين: الأدب والنحو. وكان للنحو، ومعه الصرف، أستاذ آخر اسمه الجشي. وفي ميسوري أن أجزم بأن كل ما أعرفه اليوم من النحو العربي قد تعلمته من الجشي في ذلك العام الدراسي الذي كان منعطفاً كبيراً في سيرورة حياتي.

ولكن أهم ما في أمر ذلك المدير أنه كان شاعراً. وقد اختار مجموعة من الطلاب المتميزين، وأنا منهم، وراح يلقي علينا بعض أشعاره في إحدى غرف المدرسة، وخارج أوقات الدوام. ولا زلت أذكر مطلع واحدة من قصائده الغزلية. وهذا هو:

أقسمت أني لن أسير مع الهوى
ونسيت ما أقسمت حين لقاك

وتحت تأثير نايف معروف كتبت أول قصيدة في حياتي، وذلك في أواخر سنة 1954، أي بعدما التقيته بشهرين وحسب. وقد ثابرت على كتابة الشعر زهاء عشرين سنة، أي حتى سنة 1974 بالضبط. ولكن شعري لم يرق لي، فقذفت به إلى سلال المهملات، بعدما احتفظت بشيء طفيف جداً من "قصائد النثر" التي كتبتها في السنوات الأربع الأولى من عقد السبعينيات.

وأغلب ظني أن نايف معروف قد نسيني، إذ لا يتذكر المعلم إلا عدداً صغيراً من طلابه، ولا سيما بعد مرور زمن طويل. وقد بلغني أنه صار باحثاً في الأدب العربي بعدما نال درجة الدكتوراه، وأنه نشر كتاباً عنوانه "ديوان الخوارج". وربما نشر كتباً أخرى لا أعرف عنها شيئاً.

*   *   *

وانتهى العام الدراسي، ونجحت إلى الصف الثالث الثانوي. وفي بداية العطلة الصيفية اشتغلت في إتلاف حقول الحشيشة الذي تتبناه الحكومة اللبنانية نفسها. فقد كان رجال الدرك يأتون إلى مخيمنا ومعهم سيارتان، واحدة لهم وأخرى يخصصونها للعمال. وكان عدد رجال الدرك مساوياً تماماً لعددنا، فقد كنا أربعين عاملاً يحميهم أربعون رجلاً مسلحاً. وكان بين الدرك رقيب هو أخ لوديع الصافي، المطرب اللبناني المشهور. وهو يشبه أخاه تماماً حتى لكأنه نسخة عنه. وأظن أن اسمه جورج.

وكانوا يدفعون للعامل الواحد أربع ليرات لبنانية يومياً، أي ما يعادل أكثر من غرام ذهبي ونصف الغرام في تلك الأيام. وهذا دخل جيد قلما يحصل عليه أي عامل في هذه الأيام الراهنة. فالحكومة اللبنانية لم تكن ترضى لعمالها بأن يتضوروا جوعاً.

وفي اليوم الأول حملتنا السيارة إلى قرية اسمها عيناتا، وهي القرية من تلك الذروة الشامخة التي تسمى القرنة السوداء، والتي هي أعلى قمة جبلية في بلاد الشام. وعيناتا هذه من بقايا الأسماء الكنعانية القديمة، إذ إنها تحريف لكلمة «عناة»، التي كانت ربة الحياة والحب والحرب عند الكنعانيين.

وهناك اتفق رجال الدرك مع أهل القرية على أن يدفعوا لهم مبلغاً من المال، وأن يذبحوا لهم أربعة خراف كل يوم، مقابل ألا يتم إتلاف الحقول الخصيبة، وأن يكتفى بإتلاف بعض الحقول التي تنمو فيها نباتات الحشيشة على نحو هزيل، وذلك بسبب رداءة التربة في الأماكن الكلسية. فأتلفنا حقلين صغيرين من هذا الصنف في اليوم الأول. وبعد ذلك لم يبق هنالك ما نفعل. فصرنا نأتي إلى تلك القرية كل يوم لنستمتع بالهواء النقي، وبدرجة الحرارة المنخفضة في حزيران. كنا ننام ونأخذ أربع ليرات لبنانية يومياً.

ويبدو أن كبار رجال الحكومة كانوا على دراية بذلك، وأنهم ما كانوا يريدون إتلاف حقول الحشيشة، لأن ذلك يضر باقتصاد لبنان. وربما اعتادت الشركات المتاجرة بالمخدرات على أن تدفع الكثير من الرشاوى لعلية القوم. ولكنهم كانوا مضطرين لذر الرماد في العيون، أي لإيهام المهتمين بالأمر، ولا سيما بعض السفارات، بأنهم يكافحون ذلك الوباء المريع.

وفي يوم من الأيام صدرت الأوامر بإتلاف حقول الحشيش برمتها. ونزلنا نحن العمال إلى الأماكن الخصيبة جداً، وأخذنا نحصد تلك النباتات الشبيهة بنباتات الملوخية. وقد تزامن ذلك مع وصول ضابط برتبة نقيب اسمه سامي الحشيمي، وهو رئيس الدرك في قضاء بعلبك كله. لقد جاء ليشرف بنفسه على تنفيذ الأوامر التي تنص على وجوب الإتلاف الفعلي، الأمر الذي كان من شأنه، لو تم، أن يخلف مجاعة في القرية. وحين ترجل من سيارته هاجمه فتى يافع وضربه بعَصا غليظة طويلة على ظهره فرماه أرضاً، ودخل في حال الغيبوبة وسوء التنفس. وحمله بعض رجاله فوراً ووضعوه في سيارة العمال حيث يمكن له أن يستلقي على

ظهره في الجزء الخلفي منها. وأسرعت به صوب زحلة، إذ ليس هنالك من مشفى في سهل البقاع كله إلا في تلك المدينة وحدها.

وأخذ الأهالي الجبليون الشرسون يطلقون النار على الدرك، ورد أولئك على النار بالمثل. وأثبت الصافي أنه رجل شهم شجاع، بل شخصية إخائية بكل ما في الكلمة من معنى. (إن من لا يستطيع أن يكون إخائياً لا يجوز له أن ينتسب إلى الجنس البشري). فقد انتبه الرقيب لمجموعة الفتيان الذين من جيلي، والذين كانوا كثيرين بين العمال، وأخذ يسترهم خلفه، وأنا فيهم، وذلك ابتغاء حمايتنا من رصاص الفلاحين الهائجين، كما راح يطلق النار بغزارة من بندقيته نصف الآلية ليصدهم عنا.

ولكن الأوامر صدرت لرجال الدرك بأن يغادروا المكان فوراً، وأن يتركوا العمال لقدرهم. وبالفعل رحل رجال الدرك وبقينا وحدنا لقمة سائغة للأوباش الغوغائيين الذين اكتفوا بإطلاق النار فوق رؤوسنا بغية تشريدنا، أو طردنا من جوار القرية أو من أراضيها. وهربنا، وبقينا نركض حتى وصلنا إلى قرية الدير الأحمر الرابضة عند التقاء الجبل بسهل البقاع. وظل رصاص المسلحين الأجلاف يطاردنا حتى ابتعدنا كثيراً عن ضيعتهم، ولا سيما عن حقولها التي هي مصدر حياتهم.

ولكن الحكومة حركت كتيبة عسكرية مدرعة هذه المرة، شاهدتها في الدير الأحمر آتية عن طريق بعلبك، ومتجهة نحو عيناتا. وبالفعل وصلت الدروع إلى الضيعة وطوقتها، فهرب المسلحون إلى سفوح الجبال، ولكن مدفعية الدبابات راحت تقصفهم بغزارة ودون هوادة. ولا أدري ماذا حدث بعد ذلك، لأنني لم أرجع إلى إتلاف الحشيشة بتاتاً بعد تلك التجربة الخطيرة. وبدلاً من ذلك العمل اشتغلت في قلاعة الشعير بالقرب من مدينة بعلبك، أو إلى الغرب منها قليلاً. كما اشتغلت حصاداً أحصد بالمنجل لأول مرة في حياتي. والحصاد عمل شاق وعسير جداً، ولا يطيقه إلا الشبان الأصحاء. ولولا الأجرة العالية لما أقحمت نفسي فيه بتاتاً.

*　　　*　　　*

وذات يوم، عندما كنت عائداً من العمل قبيل غروب الشمس، كان رجل في الستين من عمره تقريباً، يركب حماراً ويسير أمامي، بينما كان زملائي الحصادون يسيرون خلفي، ولكن على مسافة لا تقل عن مئات الأمتار. وحين وصلنا إلى سكة الحديد، بالقرب من طريق إيعات، وهي قرية بين بعلبك والدير الأحمر، رأيت شاباً يجلس على السكة نفسها. وفجأة انتصب ذلك الشاب وأمسك بالرجل الشائخ وأنزله عن حماره، واستل خنجراً وراح يطعنه في عدة مواضع من صدره وبطنه ورأسه. وتجمدت في مكاني دون أن أعرف ماذا أصنع. وركض الحصادون الذين كانوا خلفي حين اشتبهوا بحدوث حادث خطير، ولكن القاتل فرّ بسرعة واختفى بين البساتين التي لم تكن بعيدة عن مكان الحادث. وبالصدفة مرت سيارة بالقرب من ذلك المكان، فأسرع سائقها إلى المخفر وبلّغ رجال الدرك بما جرى، فجاؤوا في سيارة لهم ونقلوا المغدور ووضعوه عند باب المخفر المحاذي لمخيمنا من جهته الغربية، حيث كانت هنالك حديقة صغيرة فيها زهور متنوعة وبهيجة المنظر. وأخذوا إفادته ثم مات بعد ذلك بدقائق، إذ غربت روحه مع غروب الشمس، ولكن في داخل تلك الروضة الغناء. وكنت أقف على مسافة بضعة

أمتار من باب الحديقة وأراقب موته وآلامه الهائلة التي سبقت الوفاة. وإني لصادق إذا ما قلت بأن كبدي كان يتفطر من شدة الألم الذي أصابني بسبب عذابه الناتج عن ضربات الخنجر القاتلة.

وفي هذه المرة لم أستدع للإدلاء بإفادتي، مع أنني كنت الشاهد الوحيد على الجريمة، كما في المرة السابقة. وقد علمت أن المغدور كان قد طعن والد الشاب حتى الموت قبل ربع قرن. وهذا يعني أن ذلك المجرم قد ثأر لأبيه. والحقيقة أن الجريمة والثأر ظاهرتان كانتا متفشيتين في بعلبك وقضائها يومئذ. فلكم هو عالم قاسٍ ومتوحش هذا العالم الذي نعيش فيه. ولا يدري المرء لماذا كان الأمر على هذا النحو البائس ولم يكن على أي نحو آخر.

* * *

ظلت هنالك حكاية واحدة من تجربتي في بعلبك جديرة بالتثبيت في هذا السياق ذي الحوادث المتباينة والتفاصيل البعيدة عن التجانس والتناسق. وخلاصتها أن فتاة لبنانية في مثل سني تقريباً، واسمها فريال، كانت تتردد على سينما ركسي كل يوم من أيام الأحد، وذلك عند الساعة الثالثة بعد الظهر. وكانت تحضر معها طفلين لم يتجاوز أكبرهما السنة السادسة من عمره. وسمعتهما وهما يناديانها باسم فريال، مما أتاح لي فرصة التعرف على ذلك الاسم.

كانت حنطية اللون، متوسطة الجمال، ولكنها أنيقة الملابس ورشيقة المشي وذات قامة هيفاء طويلة بعض الشيء، لا هي بالسمينة ولا بالنحيفة. وكان شعرها جذاباً لأنه متقن التصفيف، فضلاً عن أنه غزير وأسود اللون ومسدل على الجانبين. فهي تجيد الاعتناء بمظهرها، مثلها في ذلك مثل معظم النساء اللبنانيات ذوات الأناقة الجذابة.

وقد استهوتني تلك الفتاة، بحيث يسعني أن أصرح بأنها كانت حبي الأول، ولكن ليس ذلك الحب الذي يلوّع أو يضني. وحاولت كثيراً أن ألفت انتباهها، ولكنها ما رأتني قط ولا أبهت لي بتاتاً، مع أنني ظللت أتقرب منها طوال بضعة أشهر. وغادرت بعلبك إلى دمشق في ذلك الصيف (1955) دون أن تكلمني أو أكلمها. وفي دمشق تسليت عنها بسواها، إذ لا مرية في أن بيئة العاصمة السورية أغنى بكثير من بيئة تلك البلدة الصغيرة التي تسمى بعلبك.

* * *

وفي بداية آب قررت أمي أن ترسلني إلى دمشق كي أدرس هناك، وذلك لأن التعليم في سوريا أسهل من التعليم في لبنان، ولأن الحصول على شهادة مدرسية أمر متيسر بعض الشيء، بينما كان الحصول على أية شهادة مدرسية في لبنان، يومئذ، شأناً في منتهى العسر والمشقة.

وبالفعل غادرت بعلبك إلى دمشق صبيحة الحادي عشر من آب سنة 1955، وليس معي سوى كيس من أكياس الخيش فيه بعض كتبي وبعض ملابسي. وكان بين تلك الكتب اثنان مهمان، أولهما في قواعد اللغة العربية، وثانيهما في قواعد اللغة الإنجليزية. وما زال هذا

الأخير في حوزتي حتى اليوم. ومع أنني ذهبت إلى بعلبك عدة مرات بعد ذلك التاريخ، إلا أنني لم أذهب مقيماً بتاتاً، بل ذهبت زائراً وحسب.

*　　　*　　　*

لم تكن مساحة بيتنا في ثكنة ويفل (أو مخيم الجليل) تزيد عن عشرة أمتار مربعة، وربما دون ذلك، كما أنني كنت أذهب إلى المدرسة في العام الدراسي 1948-1949 وأنا ألبس قبقاباً بغير جوارب. وكانت رجلاي تغوصان في الثلج السميك حتى الركبة في بعض الأحيان. فقد رحت أدوس على الثلج كما لو انني أدوس على حراشف الوجود، إذ كان ذلك الشتاء أقسى شتاء عشته طوال حياتي. ولم تكن لدينا أية وسيلة من وسائل التدفئة، بل لم يكن لدينا فراش كاف ولا ملابس من ذلك الصنف الذي يملك أن يقاوم البرد. أضف إلى ذلك أننا لم يكن لدينا أي طعام قط في الكثير من أيام ذلك الشتاء الأول المرير. وكنت أمرض كثيراً، بل قضيت شهوراً طويلة وأنا مريض ذابل مصفر الوجه، أشبه بالشيوخ الهرمين مني بالأطفال اليانعين. وتكرر مرضي كثيراً في السنوات التالية، بل كنت أقضي كل شتاء في بعلبك وأنا مريض، وذلك بسبب البرد الشديد وانعدام التدفئة. ولقد عانينا ذلك كله من أجل اليهود الذين عادوا إلى "أرض أجدادهم" الأولين.

استخلصت من حياتنا في بعلبك، وهي حياة بائسة إلى حد لا تصفه اللغة بتاتاً، أن الإنسان ما وجد على الأرض إلا لكي يتحمل ويطيق. فالإنسان هو الموجود من أجل البؤس، أو قل إنه الكائن المنذور للتعاسة لا للسعادة. ولكم استهجنت، فيما بعد، حينما رأيت ابن عربي، ذلك العملاق الجليل المهيب، يؤمن بأن هذا العالم قد وجد للهناء لا للشقاء. ولو صحّ هذا الزعم لما كان هنالك يهود في هذه الدنيا قط. ففي صلب معتقدي أن وجود اليهود في هذا العالم هو برهان حاسم على أنه عالم شقي منذور للشرور والآلام. وكل خير فيه لا يزيد عن كونه عرضاً وكفى. وفضلاً عن ذلك، فإن الخير لا يحتل أكثر من عشر مساحة الرقعة الدنيوية برمتها.

ومنذ تلك الآونة أخذت أومن بأن أرقى أشكال الأدب هي تلك النماذج التي تتخذ من الشر والألم والبؤس والشقاء موضوعها المحوري (شكسبير، دكنز، دستويفسكي، هوغو). فليست ممارسة التنفس هي الشأن الأهم، وإنما نكهة الحياة أو قيمتها، إذ القيمة هي كل شيء على الإطلاق. فما قيمة أن نحيا أو أن نتنفس في سواء التعاسة والآلام وانعدام الوزن؟ فكثيراً ما تنشأ سعادة إنسان من تعاسة إنسان آخر. فمما لا يقبل مراءً أن اليهودي قد حصل على سعادته من شقاء الإنسان الفلسطيني، وأن الغني ما كان له أن يغتني إلا لأنه أفقر الكثيرين من ذوي الحظ المنكود. فما قيمة عالم يسعد فيه بعض الناس لأن بعضهم الآخر يشقى ويبتئس؟ يا إلهي! لماذا كان الأمر على هذا النحو ولم يكن على أي نحو آخر؟

*　　　*　　　*

الفصل الثاني

دمشق

ما كان هنالك سوى باص واحد يسافر من بعلبك إلى دمشق كل يوم. وكان كراج لبنان إلى الشرق من ساحة المرجة، على بعد لا يزيد عن خمسين متراً تقريباً. وحينما وصلت إلى الكراج، وجدت من ينتظرني هناك ليأخذني إلى بيت قريبنا أبو إبراهيم، وهو من لم يعد يقيم في جامع باب الجابية، بل في مخيم اليرموك الذي لم يمض على تأسيسه أكثر من سنة واحدة. ولقد أسلفت في الفصل الأول أن الرجل قريب أمي وأن زوجته هي ابنة سليمان عبد الرازق الذي هو عم والدي، أي هي عمتي وفقاً لأعرافنا الاجتماعية. وكان لا بد لي من أن أقيم مع تلك الأسرة بضعة أيام ريثما أجد غرفة أستأجرها وأستقر فيها على نحو دائم.

وكانت واسطة النقل من مركز دمشق إلى المخيم باصاً واحداً من باصات النقل الداخلي. ولم يكن ذلك الباص يدخل إلى المخيم قط، لأن الشوارع لم تكن معبدة حينئذ. ولهذا، فإن الباص كان يصل إلى الجسر ثم يرجع إلى المركز. والحقيقة أنه لم يكن هنالك جسر، بل مجرد عبّارة صغيرة جداً منصوبة على ساقية طفيفة الشأن. أما شارع فلسطين الذي يصل إلى قرية يلدا، وكذلك قرية ببيلا (ربما هي في الأصل باب إيلا، وإيلا هي مؤنث إيل، كبير آلهة الكنعانيين. وربما صح التحليل نفسه على بابل)، فقد كان مرصوفاً بالحجارة رصفاً محكماً. ولهذا، صارت الباصات فيما بعد، تسير عليه حتى تصل إلى المكان الذي يسمى الساحة في الزمن الراهن، حيث مخفر الشرطة وسينما النجوم.

لم يكن قد مضى على تأسيس المخيم سوى سنة واحدة، إذ بدأ البناء فيه سنة 1954، ولم يكن اسمه مخيم اليرموك يومذاك، بل مخيم الميدان، نسبة إلى حي الميدان المجاور له تماماً. كما أنه كان صغيراً جداً يوم أتيته لأول مرة. فهو يتألف في ذلك الحين من ثلاث مجموعات سكنية، أولاها مجموعة الجسر المتاخمة لشارع اليرموك من جهته الشمالية فقط، وثانيتها مجموعة صغيرة من البيوت، أو من الأكواخ، تمتد زهاء مائة متر موازية لشارع فلسطين من جهته الشرقية، أو قبالة البلدية حالياً. وأما الكتلة الثالثة، وهي الكبرى، فتقع بين شارع اليرموك غرباً وشارع الجاعونة شرقاً، وكذلك بين شارع لوبيا شمالاً وشارع المدارس جنوباً. وكانت هذه الكتلة الأخيرة تسمى أرض الحكيم، وذلك لأن مؤسسة اللاجئين قد اشترتها من آل الحكيم، وهم أسرة ميدانية مشهورة. وكانت تلك الكتل الثلاث محاطة ببساتين الغوطة، وهي جنات جميلة وخصيبة ومثمرة ويانعة الفواكه والخضراوات.

ولم يكن التيار الكهربائي قد دخل إلى المخيم بعد، كما أن مياه الفيجة لم تصل إليه إلا سنة 1969. وكذلك مجاري الصرف الصحي لم يكن لها وجود في تلك الأيام. أما الشوارع فكانت بغير تعبيد. ولهذا فهي موحلة في الشتاء ومثيرة للغبار في الصيف. وراح الناس يعتمدون على الآبار للحصول على الماء. فإذا حفرت في الأرض أربعة أمتار أو خمسة، فإنك سوف تحصل على ماء يكفي ويزيد.

ثم إن المخيم لم يكن له اسم يومئذ، وما من شارع فيه له اسم أيضاً. والذي سماه مخيم اليرموك هو رجل عجوز من حارة الجسر يدعى أبو غاندي. وقد اعتاد على أن يخطب في

المناسبات الوطنية وهو يحمل سيفاً، وذلك في مقهى صغير كان بالقرب من بيته، ويسمى "قهوة الطيارنة". وسمعته ذات مرة يخطب قائلاً: «سمينا هذا المكان باسم مخيم اليرموك، تيمناً بمعركة اليرموك التي انتصر فيها العرب على الروم، كما سوف ننتصر على اليهود ذات يوم.» قال ذلك في فترة تأميم قناة السويس والمناوشة التي تلته، أي حينما راحت دمشق تغلي وتفور وتموج بالحركة والصراخ لصالح مصر.

*　　　*　　　*

كان أول عمل قمت به في اليوم التالي لوصولي إلى دمشق هو أنني ذهبت إلى المزة لأزور جدتي خضرا وعمتي فاطمة، فهما أعز الناس على فؤادي، كما أنني كنت جد مشوق لرؤيتهما، ولا سيما العجوز الحنون التي أحبها وتحبني كثيراً. وكان اللقاء حميماً ومترعاً بالبهجة والحبور. إنه لفرح يأتي من جذور النفس ذاك الذي نعيشه حين نلتقي أناساً نحبهم ويحبوننا إلى حد التوله والاندماج. يا إلهي! إن المحبة هي بيت القصيد في هذا العالم المنكوب بالنذالة واللؤم والكراهية والبغضاء.

وما أقمت في المخيم إلا مدة وجيزة، ثم استأجرت غرفة في البوابة، وهي مكان يقع يومذاك في الطرف الجنوبي لحي الميدان، أو في النهاية الجنوبية لمدينة دمشق، إذ عندها كانت تنتهي هذه المدينة تماماً. ومنذ زمن بعيد جداً هدم البناء الذي أقمت فيه، وذلك ابتغاء توسيع الشارع. وكانت أجرة الغرفة عشر ليرات شهرياً.

لم يكن هنالك في دمشق كلها سوى مدرسة إعدادية واحدة تابعة للأونروا. وكانت تسمى ثانوية صفد، مع أنها لم تكن سوى مدرسة متوسطة وحسب. أي تتوسط بين التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي. أما موقعها فكان في زقاق يمتد من باب الجابية إلى السويقة التي هي إلى الغرب قليلاً من مخفر الشيخ حسن المجاور لمقبرة ابن عساكر.

ذهبت إليها وطلبت تسجيلي في الصف التاسع، فقالوا لي بأنهم سوف يفحصونني، فإن نجحت سجلوني في ذلك الصف. وفحصوني في العربية والإنجليزية والعلوم والرياضيات، فنجحت في المواد الثلاث الأولى، ورسبت في الرابعة. ولكنهم حينما شاهدوا العلامات المتميزة في العربية والإنجليزية، وكذلك حين وعدتهم بأن أحسّن نفسي في الرياضيات، تشجعوا وسجلوني في الصف التاسع.

وهكذا، صرت ابتداءً من أواسط أيلول، أواظب على الذهاب إلى المدرسة كل يوم، وكنت جيداً أو متوسطاً في جميع المواد، ما عدا الرياضيات، إذ لم أتحسن فيها إلا قليلاً وحسب.

ووجدت مكتبة في المدرسة أخذت أستعير منها الكتب، فقرأت الكثير للعقاد والرافعي والحكيم، كما قرأت دراسة طه حسين للمتنبي، وكذلك دراسته للمعري. ومن أهم الكتب التي طالعتها في ذلك العام الدراسي كتاب لا أنساه، وعنوانه «الغربال»، وهو لميخائيل نعيمة، فقد علمني درساً شديد الأهمية وهو أن الوظيفة الكبرى للناقد الأدبي، تتلخص في التمييز بين المعدن النفيس والمعدن الخسيس، مثله في ذلك مثل صائغ الذهب. وهو كمن يحمل غربالاً

ليفرز ما هو نافع عما هو غير نافع. وهذا يعني أن الناقد الأدبي هو سادن القيم، وأن وظيفته الأولى هي منع الوضيع من احتلال مكانة الرفيع.

وصادفت على أحد الأرصفة ديوان ابن الفارض، وكذلك شرح المعلقات العشر للشنقيطي، فاشتريتهما بسعر زهيد. وما زال شرح المعلقات الذي اشتريته في أيلول سنة 1955 في حوزتي حتى الساعة الراهنة.

وجذبني ابن الفارض إلى حد الالتحام، ولهذا فقد خصصت له دراسة نشرتها سنة 1994. أما المعلقات العشر فراقتني منها معلقة امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير. ولقد حفظت المعلقة الأولى عن ظهر قلب بعدما اشتريت الكتاب بقليل. كما حفظت الكثير من قصائد ابن الفارض، ولا سيما الميمية الخمرية، وأنا أمشي الهوينى على الرصيف الجنوبي لشارع بيروت الذي لم يكن مكتظاً بالسيارات في تلك الأيام.

وعثرت في شارع السنجقدار، الذي هو إلى الغرب مباشرة من قلعة دمشق التي كان يلاصقها سوق الخجا من جهتها الغربية، على مكتبة تؤجر وتبيع كتباً ومجلات بأسعار زهيدة، لأنها مستعملة. وفي تلك المكتبة صادفت الترجمة الكاملة لرواية «البؤساء» لهوغو، وهي التي ترجمها منير بعلبكي ونشرها في بيروت قبل ذلك العام بقليل. وكانت في اثني عشر جزءاً صغير الحجم، فاستأجرت تلك الأجزاء الواحد إثر الآخر. وكانت أجرة كل جزء خمسة قروش سورية لمدة أسبوع. وقرأتها بنهم شديد، وذلك نظراً لقدرتها على إشباع الغريزة المثالية المركوزة في الإنسان، أو بسبب ما تدخره في نسيجها من طاقة تملك أن توقظ المرء على إنسانيته أو على ماهيته. وحين قرأت دستويفسكي بعد ذلك بسنتين لاحظت أن ذلك الروسي المهيب متأثر بفكتور هوغو، على نحو لا يخفى بتاتاً، ولا سيما على أهل الحضور. ولكنني لاحظت في الوقت نفسه أن الكاتبين معاً متأثران بدكنز الذي قرأته بشغف في تلك الآونة. وهذا أمر لا محل لتفصيله في السياق الراهن. ولازال الدكان نفسه قائماً حتى اليوم، ولكنه ما عاد مكتبة، بل صار محلاً لبيع الساعات. وموقعه إلى الغرب (منحرفاً قليلاً صوب الشمال) من التمثال الذي وضع مؤخراً بجانب سور القلعة.

وكان لي مصدر آخر للحصول على الكتب، وهو المركز الثقافي الأمريكي الذي كان في شارع 29 أيار قرب ساحة "السبع بحرات". فقد انتسبت إليه وصرت أستعير منه بعض الكتب باللغة الإنجليزية، مما هيأني للتعرف على الأدب الأمريكي، ولا سيما الرواية الأمريكية التي كانت يومئذ واسعة الانتشار على مدى الكرة الأرضية كلها. فالمركز لم يكن يحتوي إلا على كتب أمريكية وحسب. ومنذ ذلك الحين أحببت شعر إدغار ألن بو، ولا زلت أحبه حتى اليوم.

ومما ينبغي التنويه به في هذا الموضع من السياق الراهن هو أنني ما عدت ذلك الفتى المتطرف في التقى، الذي كنته خلال السنتين الأخيرتين من إقامتي في بعلبك. فقد كففت في دمشق عن ارتياد الجوامع، ما عدا الجامع الأموي الذي واظبت على زيارته نظراً لسمته السياحية. ولكنني بقيت ملتزماً بالصيام في شهر رمضان حتى سنة 1961.

* * *

سار العام الدراسي كمألوف عادته، وكنت لا أتغيب عن المدرسة بتاتاً. ولكن مادة الرياضيات ظلت شوكة في حلقي، إذ لم أستطع التكيف معها بتاتاً. وحدث منعطف في ذلك العام الدراسي، وخلاصته أن بعض الأقرباء توسطوا لنا لدى الجهات المختصة كي يتم نقل أسرتنا من لبنان إلى سوريا، أي كي نحصل على إقامة رسمية دائمة في هذا الإقليم العربي المضياف. وبالفعل وافق المختصون على الطلب، مما اقتضى أن أسافر إلى بعلبك كي أجلب أمي وإخوتي الثلاثة. وبما أن التصريح الذي جئت به من لبنان إلى سوريا، في شهر آب سنة 1955 لم يعد صالحاً بسبب انتهاء مدته، فقد اضطررت إلى السفر عبر الجبال، أي على طريق التهريب الذي أعرفه جيداً.

وبالفعل سافرت في أواخر آذار سنة 1956، وبلّغت أمي بالخبر ففرحت كثيراً، وذلك لأن الحياة المادية في سوريا كانت أفضل منها في لبنان. وحصلنا من بيروت على تصريح جماعي يسمح لنا بمغادرة لبنان إلى سوريا. وبعد ذلك حزمنا أمتعتنا القليلة وسافرنا بالباص إلى زحلة، حيث كان البرد شديداً، كما هو الحال في بعلبك. ومن زحلة ركبنا باصاً آخر إلى دمشق التي وجدناها، لا دافئة وحسب، بل حنوناً رؤوماً قبل كل شيء. إنها دمشق التي ظلت جميلة، بل رائعة، حتى أوائل الثمانينيات من القرن العشرين.

وبعد أقل من شهر واحد حصلنا على إقامة دائمة في سوريا، كما حصلنا على قطعة أرض مساحتها أربعون متراً مربعاً في أرض الحكيم، ومعها مائة ليرة سورية، وكلا الشيئين من مؤسسة اللاجئين. وبنينا بيتاً صغيراً يتألف من غرفة ومطبخ وكنيف. وموقعه الآن بين شارع الجاعونة وشارع صفد، وفي مكان قريب من شارع لوبيا. وفرحنا به فرحاً عظيماً، فلأول مرة منذ غادرنا فلسطين نسكن في بيت واسع وفقاً لمعايير تلك الأيام. فالفلسطيني يعيش أزمة مكان يقاسيها طوال السنوات الستين الأخيرة. وعندئذ رحلت من البوابة وسكنت مع أسرتي في مخيم اليرموك الذي ما زلت أعيش فيه حتى اليوم.

وفي حزيران من ذلك العام تقدمت إلى فحص الشهادة الإعدادية. وبعد انتهاء الفحص مباشرة حفرت بئراً في باحة البيت الصغيرة جداً لنحصل على حاجتنا من الماء. وحين ظهرت النتائج في تموز كنت من الراسبين. لقد رسبت في مادة الرياضيات وحدها، وهذا حادث لم يفاجئني قط. وكان نظام الامتحانات في سوريا يخصص دورة ثانية في أيلول للطلاب الذين رسبوا في مادة واحدة، ولذلك رحت أدرس الرياضيات وأستعد للفحص القادم.

وفي تموز نفسه أعلنت مصر تأميمها لقناة السويس. وهاج الشارع السوري وماج تأييداً لمصر. وكان الفلسطينيون متحمسين على نحو متطرف للقرار المصري. وكثرت المظاهرات في دمشق يومئذ إلى حد لم أشاهد مثله من قبل بتاتاً.

وحين تقدمت إلى فحص الرياضيات في أيلول فقد رسبت مرة ثانية. وهكذا خسرت عاماً دراسياً كاملاً. ولا أدري لماذا لم أستوعب تلك المادة إلى حد يمكنني من الحصول على خمس العلامة التامة، الذي هو الحد الأدنى للنجاح.

ولكي أخفض التوتر الذي عانيته في تلك البرهة، فقد سافرت إلى بعلبك عن طريق الجبال، وذلك بعد إعلان النتائج في أواسط تشرين الأول أو في أواخره. وسافر معي فتى

فلسطيني في مثل سني كان ذووه يقيمون في مخيم ويفل، بينما يقيم هو في دمشق. وقضيت زهاء ثلاثة أسابيع ضيفاً على أسرة جدي علي التي كانت لا تزال في بعلبك. وفكرت بفريال، وبحثت عنها في سينما ركسي، بل في كل مكان، ولكنني لم أعثر لها على أي أثر قط. وكثيراً ما تمنيت في سالف الأيام، أي عندما كنا نقيم في بعلبك، أن أتسلق تلك الذرى الشماء التي سبق لي أن اجتزت سلسلتها في شهر أيلول سنة 1953. فاقترحت ذلك على صديقي حسن الذي كان معي في قرية الدير الأحمر خلال شهر تموز سنة 1954، يوم كنا نعمل في دراسة الحنطة.

وافق حسن وأحب الفكرة ورحب بها. وأوصيت جدتي فدوى أن توقظني بعدما تصلي الصبح، أي قبل بزوغ الشمس. وأوصى حسن أمه الوصية نفسها وبالفعل غادرنا المخيم حين كان النيّر الأعظم يوشك أن يشرق. وكان ذلك اليوم يوم جمعة أو أحد، لأن حسن طالب لا يستطيع أن يتغيب عن المدرسة. ورحنا نتسلق الجبال باتجاه ذروة شامخة تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة بعلبك. ولم نصادف أيما كائن بشري بتاتاً، ولا سيما بعدما تجاوزنا قرية عين برداي الشديدة القرب من المخيم. ومع أننا جعنا وعطشنا كثيراً، فقد ثابرنا على المضي صوب الهدف المنشود. ومما شجعنا على التقدم دون ملل أن الجو لطيف جداً، وخال من الحرارة في أواخر تشرين الأول.

وحينما بلغنا إلى أعالي الذروة المنشودة وجدنا عوسجة أو عليقة عليها الكثير من الثمر الأسود الناضج الحلو، الذي أشبعه الصيف الطويل بالحرارة الكافية. فالمكان لا يصل إليه أي كائن حي، حتى ولا الطيور والوحوش البرية، وذلك لأنه بغير ماء. فالطيور والوحوش، كالبشر تماماً، لا تملك أن تنأى عن الماء إلا على ندرة فقط. فأكلنا كثيراً، وذلك لأن الشجيرة كبيرة ومثقلة بالجنى. ثم إن ثمرها ليس غذاء فحسب، بل هو شراب أيضاً، وذلك لأن جميع أصناف الفواكه تقريباً مترعة بالماء. ومما هو واضح أن هاتيك الجبال جرداء بلا شجر في تلك الأيام. ولهذا، فإن وجود عليقة في ذلك المكان هو شيء مؤنس ولافت للانتباه، بل إنها تتبدى وكأنها التجلي الأكبر للحياة في ذلك المكان القصي المهجور.

ولم تكن تلك الشجرة مكافأتنا الوحيدة على ما بذلناه من جهد وما كابدناه من جوع وظمأ. ففي الحق أن النظرة الاستشرافية أو الرؤيوية التي ألقيناها على سهل البقاع الفسيح وسلسلة جبال لبنان الغربية الشاهقة، بعد ظهر ذلك اليوم، هي عندي تجربة روحية نفيسة لن تخرج من الذاكرة أبداً. فكأنني كنت أنقب عن ماهية كلية سرمدية شاملة راسخة لا تريم بتاتاً، لأنها أزلاً عين ذاتها. فأنا مولع بالنظر من الأعلى إلى الأسفل، وكل نظرة من هذا القبيل هي عندي رؤيا صوفية، أو شبيهة بالرؤيا الصوفية. وربما كان في السداد أن يقال بأن الجمال هو المتعة وقد أعطيت للبصر، وأن الإنسان لا يتذوق شيئاً سوى المحتويات المدخرة في باطنه الخاص.

ويبدو أن النفس، أو أقله نفسي أنا، تحتاج إلى مثل هذا الاستجمام المنعش الذي من شأنه أن يؤثر تأثيراً أصلياً على السريرة العميقة. أو على الراقة التحتانية من بنية الإنسان الوجدانية. وإنني أشعر الآن وكأنني كنت ألوب في تلك الهنيهة على نهلة من ينبوع الينابيع كلها، وهو الينبوع الرائق الصافي الشديد النقاء، وذي الجدول المترقرق المترنم النشوان. ولكننا عندما رجعنا إلى المخيم في المساء الباكر كنا منهكين جداً، ويفتك بنا الجوع والظمأ في آن واحد.

* * *

وبعد أيام قليلة أعلنت الإذاعات أن اليهود والإنجليز والفرنسيين قد هجموا على بورسعيد وصحراء سيناء، فدارت تلك المناوشة الصغيرة التي سميت باسم «حرب السويس». وهاج الناس كثيراً في المخيم، وصاروا يحتشدون حول أجهزة المذياع، ولا سيما في المساء، ويسمعون إذاعة صوت العرب التي راح مذيع اسمه أحمد سعيد يهدر من وراء ميكروفونها.

ولكنني عدت إلى دمشق عبر الجبال بعد ذلك بقليل، ومعي ذلك الفتى الذي رافقني في الذهاب. ولم يكن وحيداً هذه المرة، فقد جلب معه رجلاً من أقربائه عمره زهاء خمسين سنة. وكان يريد أن يزور ابنته التي تقيم في دمشق مع زوجها وأطفالها. ولم يتح لي قط أن أسافر إلى بعلبك مرة أخرى قبل سنة 1970. ولدى عودتي إلى العاصمة السورية وجدتها تموج بالحركة وبالتحمس للحرب والهجوم على الغيتو الصهيوني ابتغاء تخفيف الضغط عن مصر. وتشكل جيش شعبي، وراح الناس يتدربون بالآلاف.

ولعل أهم ما يلفت الانتباه في مناوشة السويس أن الهمجية التوراتية الضارية قد تفجرت بشراسة وعنف شديد، فارتكب اليهود الأنذال مجزرة مروّعة في غزة، وأتت تلك الوحشية على أعداد كبيرة من الفلسطينيين. لقد حرّموهم للرب، كما تقول توراتهم السقيمة والمثيرة للتقزز والاشمئزاز. والغريب ألّا يمل اليهود من المجازر التي يرتكبونها بحق الفلسطينيين بين الفينة والفينة دون أن يحصلوا على أي طائل ذي بال. فالمجازر لم تغيّر موقفنا تجاه قضيتنا العادلة، أو تجاه بلادنا التي سوف نستردها كاملة غير منقوصة ذات يوم. تقول التوراة نفسها: "لكل شيء وقت." ونحن نراهن على أن وقت الاسترداد آت لا ريب فيه.

إنها التوراة، عار الكتابة البشرية كلها، أو السفر الذي لا يدخر في مطاويه سوى اللؤم والخزي وخراب الوجدان. فلكم كان ماني نبيل الروح حين أدرك حقيقة ذلك الكتاب الذي أراه أحقر كتاب ألفه الجنس البشري، تماماً كما رآه ماني صاحب الروح الشعري المطهم النبيل. إنه ليس سوى كومة من الترهات التافهة التي لا محل لها سوى سلال القمامة. وعندي أن اليهودي سوف لن يتخلص من يهوديته، أي من لؤمه وخساسته وقذارة روحه، إلا إذا تخلص من توراته المنحطة، وكذلك من تلموده الذي لا أعرف من امتدحه قط. وما لم يفعل اليهودي ذلك، فإن الجنس البشري لا أمل له بالتحرر أو بالانعتاق من سلطة اليهود الذين يمعنون في تخريب العالم مستخدمين تلك الأداة الحادة التي تسمى الولايات المتحدة.

فلكم أصاب شكسبير حين قال في الفصل الثاني من مسرحية له عنوانها "تاجر البندقية": "وما اليهودي سوى الشيطان نفسه، وما من شك في أن الشيطان هو اليهودي مجسّماً."

* * *

وكان لا بد لي من عمل كي أحصل على قوت يومي، بل على مصروف أسرتنا بأسرها، أو على جزء منه. ووجدت أن حفر الآبار في مخيم اليرموك هو عمل مربح، إذ كانوا يدفعون مائة ليرة لكل بئر. وانقضى ذلك العام الدراسي، أقصد سنة 1956-1957، على هذا النحو دون أن أذهب إلى أية مدرسة. وفي نهايته، أي في شهر حزيران، تقدمت إلى فحص

الشهادة الإعدادية فنجحت، إذ عملت على تحسين نفسي في الرياضيات تحسيناً طفيفاً. والحقيقة أنني أمضيت ذلك الشتاء وأنا أقرأ الشعر الجاهلي ودوستويفسكي وجبران وابن الفارض ومجلة "الآداب" البيروتية، وذلك في أوقات فراغي.

ولكن المهم أنني تأخرت حتى نلت الشهادة الإعدادية، لأنني حصلت عليها يوم صرت في التاسعة عشرة من سنوات عمري. وفي ذلك السن بالضبط كان ينبغي أن أنال الشهادة الثانوية. ولكنني أضعت ثلاث سنوات دراسية بسبب التشرد الذي عشناه بعد النكبة التي حلت بنا مباشرة.

وذات يوم من أيام تموز سنة 1957، جاءني رجل من أقربائي، وقال لي إنه يعمل في فندق اسمه فندق الخديوية، وموقعه في جوزة الحدبا تقريباً، أو إلى الشمال الشرقي من ساحة المرجة، وعلى مسافة لا تزيد عن مائة متر. وأضاف بأن ذلك الفندق بحاجة إلى عامل جديد. وطلب إليّ أن أعمل فيه فقبلت وأخذني إلى المكان، واشتغلت بأجرة يومية مقدارها ليرتان ونصف الليرة، فضلاً عن البخشيش الذي أحصل عليه من مرتادي الفندق، والذي يعادل هذا المبلغ نفسه تقريباً. أما مدة العمل فهي ثماني ساعات يومياً. والعمل في الليل أهون من العمل في النهار، لأن الغرف تكون نظيفة والأسرّة مرتبة. فكنت أستفيد من الفراغ في القراءة، ولا سيما قراءة الروايات الإنجليزية. وكنت على اتصال بالمتنبي منذ سنة 1952، ولكنني صرت أميل إليه ميلاً شديداً ابتداء من تلك السنة، وقد ثابرت على حبي له وصلتي به حتى الآن.

وتعرفت في تلك الفترة على رجل فاضل مؤنس من أخوال أمي اسمه محمود إبراهيم الصمادي. وهو أكبر مني بعشر سنوات. ومع أنه لم يكن سوى آذن مدرسة ذي دخل محدود، فقد كانت لديه مكتبة غنية جداً، ولا سيما بالكتب التراثية. فاستعرت من كتبه الشيء الكثير، بل ما زلت أستعير حتى اليوم، فكان له الفضل في إطلاعي، منذ نشأتي، على ابن خلدون الذي أعتقد بأنه ما من أحد سواه قد ابتكر نظرية عن التاريخ جديرة بالإعجاب. يقيناً، إن اشبنغلر، صاحب «انهيار الغرب»، قد سطا عليه واستعار لبابه، ولكنه تكتم حتى إنه لم يذكر اسمه بتاتاً. ولقد رسخ ابن خلدون في بصيرتي نازعين، أولهما نازع العمق، وثانيهما نازع التفطن للصلات الخفية التي تشد الحقائق بعضها إلى بعض.

وذات يوم رحل جارنا الذي هو إلى الشرق منا، وعرض بيته للبيع، فاشترينا حصته بسبعمائة ليرة سورية، وضممناه إلى بيتنا، فصارت مساحة البيت الجديد ثمانين متراً مربعاً، وذلك لأول مرة منذ أن غادرنا فلسطين قبل تسع سنوات. وبما أننا صرنا نملك بيتاً واسعاً، فقد جاءت جدتي خضرا من المزة وسكنت معنا، وظلت عندنا حتى وفاتها سنة 1970.

* * *

ولا بأس من أن أتحدث بشيء من الإيجاز عن صلتي ببعض الفتيات خلال الفترة الممتدة بين قدومي إلى دمشق في شهر آب سنة 1955، وبين زواجي في الخامس من حزيران سنة 1959، أي في غضون أربع سنوات تقريباً. ففي الحق أن تلك الفترة كانت غنية

بالحب العذري وزاخرة بالفتيات النعناعيات اليانعات اللائي يشبهن الرياحين. ولا مرية في أن الحب العذري هو شيء مبتسر أو منقوص، ولكنه تجربة غنية بالمحتوى الداخلي، ومن شأنه أن ينعش الروح ويوسعه، وأن يجعل الحياة عذبة مستساغة، إذ ليس بالأمر اليسير أن تشعر بأن ثمة اتصالاً في العمق بينك وبين روح آخر أقنعك بأنه كائن فريد. وحسبه أن فيه همساً ووشوشة كي يُعدّ شيئاً مما تشتهيه النفس.

فإثر وصولي إلى دمشق تعرفت على فتاة فاتنة، أعني شديدة الجمال، وذلك في منزل لأسرة فلسطينية كنت أتردد عليه بين الفينة والأخرى. وكانت هذه الفتاة هي الثانية بعد فريال التي تركتها في بعلبك، والتي لم أنل منها ولو نظرة انتباه، ناهيك بابتسامة أو بكلمة غزلية عذبة. وسرعان ما أحببت هذه الثانية حباً يخترق الشغاف إلى سويداء الفؤاد، بل سرعان ما أدركت أن الجمال انتصار تحرزه الروح على المادة، الأمر الذي من شأنه أن يجعله سر الكون وزبدته أو خلاصته النفيسة. ولاحظت الفتاة أنني متيم بها فوهبتني حباً صامتاً هادئاً طاهراً نبيلاً، ولكنه ناصع تمام النصوع، إذ راحت تشي به عيناها الملهوفتان. والذين لا يفهمون لغة العيون هم أكثر الناس غباءً في هذه الدنيا التي لا يربحها سوى الأغبياء والأنذال والمجرمين. وفضلاً عن ذلك، فإن الفتاة قد صرّحت لي بحبها بعد زمن ليس بالطويل. ولكنها كانت فتاة محدودة الأفق، أو هي لا تتميز بذكاء خصيب، ولا بتعليم متوسط. وهذا يعني أنها بغير محتوى داخلي، أو قل إنها لا تتمتع بأية جاذبية روحية.

ومن الطرائف الغريبة أنني عشقت فتاة ثالثة وعشقتني الفتاة دون أن يتكلم أي منا إلى الآخر بتاتاً. وتفصيل ذلك أنني استأجرت غرفة في بوابة الميدان، التي كانت تسمى بوابة الله. وكانت الغرفة مجاورة تماماً لآخر موقف من مواقف الباص الداخلي، وكذلك من مواقف الترامواي. وكنت أنزل كل صباح إلى الموقف لآخذ باصاً يحملني إلى مدرسة صفد التي كانت في باب الجابية. وذات يوم لاحظت أن طالبة أصغر مني بسنتين أو ثلاث، تلبس حجاباً على رأسها، قد صعدت ورائي إلى الباص وجلست إلى جانبي على المقعد المزدوج الذي جلست عليه، مع أنه كانت هنالك مقاعد أخرى كثيرة شاغرة. وحين جاء الجابي ليأخذ الأجرة دفعت له الفتاة أجرة راكبين، وأشارت بيدها إليّ دون أن تكلمني. ومع أنها لم تكن جميلة فقد اجتذبتني نظراً لكونها هي التي بادرت بالتقرب مني، أو بالرغبة في أن تؤسس علاقة بيننا، حتى وإن تكن تلك العلاقة عذرية أو صامتة.

وفي اليوم التالي تكرر الحادث نفسه، مع فارق واحد وهو أنني دفعت أجرة راكبين هذه المرة. وصرنا نلتقي كل صباح وينتظر كل منا الآخر، كما أن واحداً منا يدفع أجرة راكبين يومياً، ولكن دون أن يكلم أي منا الآخر بتاتاً، وذلك خوفاً من أن يشاهدنا أحد الناس ويبلغ أسرة الفتاة، وفي ذلك مشكلة وفضيحة كبرى. ومما هو معلوم أن سكان حي الميدان كانوا محافظين جداً في تلك الأيام. فلو علمت أسرتها بأنها عاشقة لمنعتها من الذهاب إلى المدرسة.

وذات يوم بينما كنت أملأ الإبريق من الحنفية التي في الشارع، والتي لا زال لها أثر حتى الآن، قبالة غرفتي التي لم يكن فيها ماء، هجم عليَّ فتيان اثنان في مثل سني، وكانا يودان أن يضرباني بأيديهما القوية. ولكنني تملصت منهما وهربت إلى غرفتي دون أن أملأ الإبريق. وأخذت أراقبهما من النافذة المطلة على الشارع، وثابرت على المراقبة حتى تأكدت من أنهما

غادرا المكان. فنزلت وملأت الإبريق دون أن يتعرض لي أحد هذه المرة. كان كل منهما قوياً مثل عجل، بينما كنت أنا هزيلاً نحيلاً أصفر الوجه، بل اعتدت على مقاساة الدوخة بسبب سوء صحتي. فكنت أستهجن أن بعض الفتيات، ولا سيما اليافعات اليانعات، يُظهرن حباً لفتى ذابل شاحب مثلي، هو أقرب إلى مملكة الموت منه إلى مملكة الحياة.

ولم أشاهد الفتيين بعد ذلك اليوم بتاتاً. ولا أملك أن أجزم بأن لهما صلة بالفتاة الميدانية. وقد ظللت ألتقي بها على موقف الباص حتى رحلت من البوابة إلى المخيم في شهر نيسان سنة 1956، ولكن دون أن أكلمها أو تكلمني، وذلك خوفاً من أن يفتضح الأمر فتتعرض الفتاة للأذى من قبل ذويها. ولم أعد أراها قط. ولا أدري ماذا حل بها ولا أين هي اليوم. أهي حية أم ميتة؟ لا أعلم. لقد مرت خمسون سنة على تلك التجربة المثيرة للاستهجان.

وبعد سنة كاملة، أي في سنة 1957، تعرفت في بيت لأسرة فلسطينية على الفتاة الرابعة التي كانت أقل جمالاً من الثانية الفاتنة، ولكنها من ذلك الصنف الذي يتمتع بحضرة طاغية، بل بسطوة ذاتية لا يملك أحد أن يفلت منها مهما يك رصيناً، مع أنها روح رقيق طيب بريء مفعم باللطف والعذوبة وهدأة البال. يقيناً، إنها المرأة التي تجتثّ ما قبلها وتهمّش ما بعدها. وحين التقيتها، أو بعد لحظة وجيزة من التقائي بها، شعرت أنني قد عثرت على الفريد، أو على الموائم، بل قل على المثالي الذي هو الموضوع الأصلي للحب، مع أن جمالها لم يكن إلا من ذلك الصنف المتوسط وحسب. أجل شعرت بأنني عثرت على شيء حميم مفقود كنت ألوب عليه طوال ما سلف من عمري. ولا غلو إذا ما زعمت بأنها الحضور الأمثل لمبدأ التضوع والتألق والصفاء الماسي الشفاف. وحين خسرتها شعرت بأنني قد اختزلت وارتددت إلى هيكل عظمي، بل لم يبق مني سوى شبحي الباهت وحده.

وأهم ما في أمر تلك الحضرة أنها توقظ النفس على الرغبة في العيش، وذلك لأنها تشبه البشرى، أو الوعد بالهناء والسعادة. ثم إن لها قدرة على أن تمغنط الأشياء، وذلك بما يأهلها من براءة البكارة والطهارة، أو بما يكتنفها ويغلفها من قوة سرية تحيط بها كالهالة التي تحيط بالقمر في بعض الليالي الصافية. ولهذا، فإن لها استطاعة على الخلب والجذب لم أعرف لها نظيراً عند أية امرأة أخرى طوال حياتي. إن فؤادي ما انفك حتى اليوم يتضور شوقاً إلى تلك الفتاة التي لا تقل عن كونها جرحاً نغاراً في لحم روحي لن يرقأ له نزيف أبداً. ولا أحسبني قد أحببت بعمق أية امرأة سواها، ولا أحببت غيرها حباً جدياً يتمتع بالحد الكافي من الديمومة بتاتاً.

لقد كانت تلك الفتاة تجسيداً لطاقة الروح التي تتجلى في اللباقة الطبيعية التي هي غريزة لدى بعض النساء، أو في القدرة على الحيازة والاستيلاء، وذلك بسبب مالها من طاقة مغناطيسية جاذبة. وقد اعتادت أن تقول لي بأنني تجسيد للمثال، وهو قول لم أسمعه من أحد سواها في أي يوم من الأيام. وعلة ذلك أنني كثيراً ما حدثتها عن مناقب الأخلاق، ولا سيما الطيبة والإخلاص والعطاء. ولكنني أشهد فيها أنها التجسيد الوحيد للمثال في حياتي كلها، ولا سيما في تلك الأيام، عندما كانت الدنيا لا تزال عذراء، أو يوم كان من الطبيعي أن تنتصر رشاقة الروح على ثقل المادة وسماجتها الغليظة.

ولقد كتبت عدة قصائد للتشبيب بتلك السمراء الاستيلائية اليانعة، وذلك في سنة 1957، ثم في السنة اللاحقة. ولكن جميع تلك القصائد لم تعجبني بعدما كبرت، ولهذا، تخلصت منها في أواخر الستينيات. وما زلت أذكر قصيدة ختمتها بهذا البيت الذي ما زلت أحفظه في ذاكرتي حتى اليوم:

ما أنت، يا سمراء، إلا قبلة

طبع الزمان بها جبين حياتي

وظلت هنالك فتاتان دخلتا إلى دائرتي بعد الزواج. وقد أفرطت في حبي العذري لأولاهما، وذلك بسبب جمالها النادر الفتان، بل المنقطع النظير. أما الثانية فقد رفضتها منذ الساعة الأولى، مع أنها قد صرحت علناً بما تكنه لي من حب. ولكنني ندمت، وما زلت نادماً، على الرفض المتسرع الفج الذي لا لزوم له ما دام الأمر كله عذرياً ولا يتعدى حيّز الكلام. ولسوف أتحدث عن كل من الفتاتين في موضعين لاحقين من هذا الجزء الثاني حصراً.

* * *

دعني أنوه بأن الحب الصِبوي النشوان الذي لا يقل عن كونه صنفاً من أصناف التناسم مع الوسيم، والذي يعيشه المرء حين يكون العمر في الريعان، فيناغي فؤاداً عزيزاً لم يتشوه بالتجربة بعد، أو قل لم يزل يحتفظ ببكارته وخصوبته، ذلك الحب البريء الصامت الرائق الذي تسكت فيه اللغة وتتكلم العيون، تسكت حتى لا يبقى سوى التمتمة أو الهينمة – هو السعادة أو الغبطة بالضبط، وذلك لأنه ينطوي على وداعة نيسان ووروده اليانعة النادية، ثم لأنه قدرة جسيمة على نفي الشقاء واستحضار الهناء الذي يدمج النفس بالكون ويلحمها بالأشياء حتى لا يبقى هنالك إلا مسرة ودعة ورفاه.

وقد لا أجافي الحقيقة إذا ما زعمت بأن الغرام الصِبوي، أعني غرام الصبيان المراهقين النابع من ينبوع الينابيع الصافية، أو من الراقة التي تؤسس النفس وترسخ هويتها، هو وحده الحب الناجي من كل زيف، والقادر على الاستمرار إلى آخر نفس من أنفاس العمر. وأهم ما في أمره أنه نتاج لوعي الثمالة، إذ لا يكون وعي الدلالة، أو الوعي الذهني أثناء الصبا، إلا في بداياته وحسب. إنه التعبير الأمثل عن رغبة النفس في التضوع والتألق وفض محتوياتها وطاقاتها. فالشباب الباكر انتشاء بغير خمر. ولهذا السبب، فإن اللغة لا يسعها البتة أن تصف ذلك الحب الصادق العميق الذي يعيشه المرء حين لا يكون قد تخطى العشرين.

ومما هو صادق في ذهني أن بقية العمر ليست سوى شبح أو ظل شاحب باهت لفترة الصبا التي قد لا تزيد عن سنوات خمس تمتد بين الخامسة عشرة والعشرين. ففي تلك الفترة حصراً تتفتح النفس عن مضمراتها، أو قل عن طيبتها وألطافها، مثلما تتفتق الأكمام في نيسان

عن براعمها الطرية وتنفح أريجها المترع بالنشوة والحنين إلى الرقة واللطف. ومما قد يدركه الذهن على نحو حدسي أو بديهي أن الصبا الباكر هو طور الحلم والأسطورة والصفاء الشاعري أو الأثيري البريء. إنه الشعور بطفولة الحياة وبكارة الدنيا وطهرها والانتشاء بالعيش فيها بمنأى عن الهم والغم والحزن.

ثم إن الصبا هو طور الغرام والعذوبة وتألق الأشياء بفضل تألق النفس، بل طور الثمل الصوفي الذي تنتشي فيه الروح أو تسكر، ولكن بغير أنبذة أو خمور. إنه طور اللهفة، واللهفة معيار القيمة والأهمية. فما لا يثير اللهفة لا أهمية له ولا قيمة بتاتاً. فاللهفة، إذن، هي بيت القصيد في هذا العالم الخاوي، أو الذي لا يتيسر لشيء أن يفعمه بالنكهة سوى اللهفة وحدها، حتى لكأن اللهفة هي الشارط الأوحد للوجود على الأصالة. وهذه حقيقة من شأنها أن تؤكد ما فحواه أن الذاتي هو الجوهر أو المحور الذي عليه المدار. وربما جاز الزعم بأن التضور، وهو اللهفة نفسها وقد اشتدت وعرمت، هو الينبوع الأغزر للمتعة واللذاذة. وعلى مقدار المسغبة، أو التضور، تكون قوة النعمة والراحة في برهة التلبية والإشباع.

* * *

وبفضل الثمل الفطري أو الطبيعي الذي تفرزه الروح من تلقاء نفسها، كان الصبا طور الغناء الذي من خصائصه أن يحرر النفس من أغلال الكرب وإسار التوتر، ويجعلها تتدفق وتفيض وتتضوع. إنه يطلق سراحها فتهيم في أمداء مفتوحة تجهل التحديد والتقييد. فالنفس حين تغني تكون كمن أتى من الدرب المسيّج بالياسمين، أو كأنها جاءت إلى الأشياء من سفحها المشمس المغمور بالأنوار. نعم إن الصبا غنائي بطبعه، وراقص بحكم ماهيته، بل إن الغناء هو الآية الأولى على أن الحياة ظافرة، أو ناجية من كل خلل واعتلال. كما أن الأغنية محاولة تبذلها النفس ابتغاء تزويد الحياة بمعناها المفقود. وما من شيء يملك أن يخثر الغناء على الشفاه أو يجمده في الحناجر سوى الداء والهرم والهموم المضنية، إذ لا ريب البتة في أن السعادة غنائية وتؤسس للغناء.

أما الرقص، وهو سمة صِبوية كالغناء، فلا يقل عن كونه التجسيد الحسي للشعور. وهو مثل الغناء إطلاق لسراح النفس، ولكنّ ثمة فرقاً حاسماً بين الشيئين. فالرقص شرطه الموسيقى، أما الغناء فيشرط الموسيقى نفسها. ويبدو أنه لا يملك أن يكون سعيداً من لا يغني ولا يرقص.

وحين يتفور التقزز والاشمئزاز في جوف النفس، فإن الصبا والنزوع إلى الغناء والرقص يكونان قد رحلا أو تلاشيا دون أن تتمكن النفس من استردادهما في أي يوم من الأيام. وربما حالفني السداد إذا ما زعمت بأن نسبة حضور الصبا والغناء تتناسب عكساً مع نسبة حلول التقزز والهرم النفسي الذي هو الاسم الآخر للموت في الحياة. فكيف يسع الروح أن تغني حين تصير عاسية أو جانحة إلى التخشب أو إلى التخثر؟ عندئذ لا يظل شيء سوى

اللافرق. واللافرق شكل من أشكال الموت في الحياة. والموت في الحياة هو الجحيم بأم عينه، لأن المرء لا يكون حياً ولا ميتاً في آن واحد، ولأن الموت في الحياة لا يقل عن كونه خسران الشهية للعيش أو للاستمرار في الوجود. فأن ترى الموت شافياً، أو أن تصير المنايا هي الأماني، على حد عبارة المتنبي، ذلك هو المصاب الأكبر بين جميع المصائب التي قد تحل بالمرء، لأن من شأن ذلك الشعور أن يجعل للأشياء مذاقاً تافهاً يشبه مذاق الرماد.

وليس بالصدفة أن يرتبط الغناء بالأعراس، مثلما يرتبط البكاء بالمآتم، إذ الأعراس هي الأفراح، كما أنها وثيقة الصلة بالصبا أو الشباب. وهذا يعني أن الغناء صنف من أصناف السعادة، وأن الإنسان حين يغني فإنه يطفر من ربقة التعاسة ولو إلى حين، حتى لكأنه ينال إجازة صغيرة من اللعنة، أو من الغمة والتوتر. بل ربما جاز الزعم بأن الغناء من شيعة النور، أما البكاء فمن سلالة الظلام. وههنا يجد المرء تفسيراً للمكانة التي يحتلها المطربون عند الناس، ولا سيما عند الشبان والشابات، في كل زمان ومكان. فلعل المطربين أن يكونوا استحضاراً لروح الصِبا وتحريضاً للمرء على الحب الصبوي اللذيذ، وذلك بفضل رخامة أصواتهم التي هي، كالعشق تماماً، صنف من أصناف الرقة واللطف. كما يجسدون البهجة نفسها، ويساعدون روح الإنسان على الفرار من إسار الزمان إلى فسحة الحرية والانطلاق في الأمداء المفتوحة المنداحة، بل المسرّحة في كل اتجاه.

وينطوي الغناء على ضيق الإنسان بتجربته العملية، أو على ضجره من ضحالة المياومة وعوزها وسأمها وافتقارها إلى كل ما يبهج وينعش. وهذا هو مبدأ الفن كله. فالفن إغناء للحياة، أو تزويدها بما ليس فيها سلفاً، وبما لن يكون فيها إلا إذا تدخل الروح الأهيف الأملد الخلاق.

وعلى أية حال، فإن الأشياء لا يصير لها نكهة أو فحوى إلا إذا زودتها أنت بشرارة من روحك، إذ بهذه الشرارة، التي هي الشرط الشارط للمتعة، بل للسعادة، يمكن للحياة أن تتألق أو تتوهج، فتصير جديرة بأن تعاش.

* * *

حبذا أن أدون في هذه الاعترافات أن جميع النسوة اللائي عشقتهن وتعلقت بهن من صميم روحي وسويداء قلبي، بل اللائي لوعنني حتى درجة الفتك، لم يحدث بيني وبينهن قط أي تماس جسماني. كما أنني ما فتئت أنظر إليهن بعين الطهر والقداسة، حتى لكأن كلاً منهن لا تقل عن كونها صنفاً من أصناف التابو. بل لست أراهن البتة أجساماً أعطيت للحواس، وإنما أتخيلهن أرواحاً مجردة وأطيافاً مهيمة خلابة، أطيافاً من نور شعشعاني متألق ساطع دائم الحضور في البال لا يريم، وذلك على الرغم من الحسرة الفتاكة أو الجمرة الكاوية التي خلفنها في قعر النفس، والتي تأبى أن تترمد أو تبوخ تماماً حتى يوم الناس هذا. لقد استحلن إلى أنوار في ذاكرتي التي تتشبث بصورهن دون كلل أو ملل. أما في خيالي فقد صرن الصفاء نفسه، الصفاء الذي لا يجسده شيء كما يجسده الماس. ولهذا، يجوز لي أن أصف كلاً منهن بأنها البارحة التي لا تبارح قط، أو الغائب الذي لا يغيب بتاتاً.

وحبذا التنويه في هذا المقام بأن النعناعيات قلما يحضرن حضوراً فعلياً إلا للمحة

وجيزة وحسب، ثم يتوارين وراء المسافات الفلكية بعدما يرشقن المرء بنظرة لا تنسى، نظرة تنطبع في جوف النفس كما انطبعت صورة السيد المسيح على منديل فيرونيكا. فمما هو محزن حقاً أن النعناعيات مفارقات نائيات على الدوام، حتى لكأنهن لا وظيفة لهن سوى تلويع الفؤاد، أو جعل الحزن أكبر عنصر بين مجمل العناصر التي تؤلف نسيج الحياة. وبذلك، فإنهن يرسخن في قعر النفس عنصراً حنينياً يند عن سطوة الحركة التغييرية، أو هو لا يعنو لسلطة الزمن إلا قليلاً وحسب.

فحين تحوز المرأة ذلك العنصر الروحي أو المستوري الجاذب العاطف الفتان، والذي من شأنه أن يجعل الحب شيئاً أكثر بكثير من علاقة جسدية خالصة، حينذاك فإنها تغدو كائناً لا ينسى حتى بعد تقادم عهدها، أو بعد تصرم عشرات السنين على رحيلها، وذلك لأنها اتصلت بالعمق أو بالصميم، فيترسخ فحواها في مستودع النفس بحيث تصير البرهة الديمومية التي لا تحول ولا تزول.

وفي زعمي أن الجمال وحده لا يكفي لقدح شرارة الغرام الأصلي في سويداء الفؤاد، أقصد الحب العميق الثابت الذي يدوم ويدوم، والذي لا يرضخ لسطوة الزمان إلا لماماً. فلا بد من عنصر مثالي يرخم باستمرار في بنية الشخصية، أو في سجاياها الراسخة الدائمة، عنصر جاذب كالمغناطيس. لا بد من منقبة أو جملة مناقب في الطرف المحبوب الشائق، من شأنها أن تمغنط الطرف المشوق وأن تلفته إلى مصدر الإشعاع والنور.

*　　　*　　　*

الفصل الثالث

الكتيبة الثامنة والستون

مما هو طبيعي أو بديهي ألا يسكت شعبنا الفلسطيني على الكارثة التي ألمت به في عام النكبة، إذ إن من عادة البشر أو من طبعهم، أن يردوا الفعل على أي عدوان، وأن يكافحوا من أجل استرداد ما خسروه. وفي الحق أن شعبنا قد أرغم على أن يخسر وطنه بطريقة غادرة موغلة في اللؤم والخسة. فبينما راح العالم يدعم اليهود بنذالة عجيبة، فإن المنطقة العربية قد خذلت فلسطين على نحو غير مألوف من قبل.

حقاً، إن شعبنا المزود بنازع الإباء لم ينم على ضيم، بل راح يمارس الصدام الدموي المسلح منذ الأيام الأولى للنكبة التي أنزلتها بنا قوى غاشمة عاتية لا قبل لنا بمجابهتها. وكان الخذلان والاستخذاء العربيان من أهم العوامل التي جعلت النكبة حادثاً ممكناً، إذ لا يحضر الشيء إلا إذا حضرت جملة شروطه. فما كان في ميسور الصهيونية أن تحتل فلسطين وأن تشرد شعبها تحت كل سماء، وفي كل أفق، لو أن دولة عربية واحدة كانت تتمتع بالإرادة والالتزام برفض الوجود الصهيوني على أرض فلسطين. يقيناً، إن العرب هم الذين ناولوا فلسطين لليهود، مثلما ناولوا العراق للأمريكيين في الزمن الراهن. فمما يثير التقزز في قعر النفس أن اليهودي وحده له إرادة في هذا العصر الذي يملكه اليهود كما يملك المرء أياً من مقتنياته الدائمة.

إذن، لم ينقطع كفاح الشعب الفلسطيني ضد الصهيونية الرامية إلى اغتصاب فلسطين بذريعة زائفة مؤداها أن بلادنا الجميلة اليانعة، التي ترويها الأنداء طوال الصيف والأمطار طوال الشتاء، هي أرض أجداد اليهود الذين أتحداهم أن يبرهنوا على أن لهم أجداداً من أي نوع كان، وعلى أن الأخبار التي تسردها توراتهم التافهة قد جرت بالفعل، أي أن يكون لها أصل في الواقع والتاريخ وليس في الوهم والخيال. وإني أتحداهم أن يأتونا بحجر صغير، أو قصاصة من ورق البردي، لهما مصداقية أو شفافية وقدرة على إثبات صحة أي حادث من الأحداث التي ترويها تلك التوراة التهويمية الزائفة.

نعم ظل الشبان الفلسطينيون يتسللون إلى داخل بلادنا السليبة من جنوب لبنان وكذلك من الضفة ذات الحدود الطويلة، كما أنهم كانوا يرجعون من أرض الوطن المحتل محملين بالغنائم ينتزعونها من الصهاينة المغتصبين. وأنا أعرف عدداً لا بأس به من الرجال الذين مارسوا مثل هذا الكفاح ضد الصهيونية الغاشمة، وذلك على الرغم من تآزر الحكومات العربية مع حكومة الغيتو الصهيوني وتأييده سراً والعمل على حمايته بطريقة لا تخفى حتى على الأطفال.

ولقد روى أولئك الصناديد الذين كانوا يعبرون الحدود باستمرار، متجهين إلى داخل الوطن، قصصاً كثيرة عن جبن اليهود. ومن هذه القصص التي سردها بعض الاقتحاميين ما فحواه أن كمائن اليهود الليلية قد اعتاد كل منها أن يشعل قداحة بين الفينة والأخرى ليحيط المتسللين علماً بمكان وجوده، وذلك لكي يجتنبه أولئك البواسل خشية أن يحدث أي قتال بين الطرفين. وههنا تملك الحق في أن تؤكد على أن قيادة الحركة الصهيونية لم تستطع أن

تستوعب الحقيقة الكبرى بين حقائق الصراع الفلسطيني الصهيوني، والتي تتلخص بأن قوتنا تنبع من الداخل، أما قوة عدونا فتنبع من الخارج. وبإيجاز صريح، نحن شجعان وهم مسلحون. ترى، ماذا سوف يحل بهم عندما تتخلى عنهم الدول التي تدعمهم أو تسلمهم لمصيرهم الكامد ذي النهاية الكالحة؟

ومما يستحق أن يروى في هذا المقام أن واحداً من رفاقنا في السلاح اسمه صالح شرقاوي، ذهب من لبنان إلى قرية صفورية، مسقط رأسه، وذلك في سنة 1953، ومعه عشرة رجال آخرين، وجميعهم مسلحون، إذ إن شعبنا لم يضع السلاح قط منذ سنة 1920. وهناك وجد طبيباً يهودياً من رومانيا يسكن في بيته الذي ورثه عن أبيه وجده. وكان مع اليهودي زوجته اليهودية الشابة مثله. فما كان من الشرقاوي إلا أن قتلهما كليهما بالرصاص، ثم عادت المجموعة أدراجها إلى لبنان. فبأي حق يسكن يهودي قادم من رومانيا في بيت أسرة فلسطينية بعد طردها وإرغامها على الهجرة إلى خارج الوطن؟ ومثل هذه الحوادث كثيرة، وهي التي أدت إلى مجزرة قبية في سنة 1953، كما أفضت إلى مجزرة السموع سنة1966.

ولقد شاهدت في مخيم اليرموك سنة 1957 شاباً ينادونه باسم الأمير. ومع أنه مصاب بالسل، ومع أن مرضه كان في طوره النهائي، فقد جالسته وحاورته كثيراً وعرفت قصته بحذافيرها. فهو يومئذ في السابعة والعشرين من سنوات عمره، كما أنه من عشيرة بدوية نسيت اسمها. وهو في الأصل من اللاجئين المستقرين في مخيم خان الشيح. ولقد جمع الأمير مجموعة من ذكور الرجال وسافر بصحبتهم إلى الضفة، وكان بينهم واحد من الصقور يقال له ابن سودي. وهو بدوي من العشائر التي كانت تقيم في سهل الحمى الواقع إلى الشرق من ضيعتنا. وأنا أعرفه لأنه كان طالباً في مدرسة لوبيا التي درست فيها أكثر من سنة. وهناك راحوا يتسللون كل ليلة تقريباً إلى الجزء المحتل من بلادنا، ليقطعوا الدروب على السيارات المارة. فكانوا يوقفون أية سيارة تمر، وينزلون الركاب منها إن كانوا يهوداً وينهبون كل ما معهم من نقود وحلي وأشياء نفيسة، ومن استعصى قتلوه بالرصاص.

وشكا الصهاينة أمر تلك المجموعة للأردنيين، فنصب إخواننا في اللغة والدين كميناً للأمير وقبضوا عليه وزجوا به في زنزانة داخل قبو في عمان لا يرى الشمس بتاتاً. وبسبب الرطوبة والضرب المبرح والتجويع أصيب الشاب بمرض السل. وحين بلغ داؤه نقطة اللاعودة، أو درجة اليأس، قذفوا به إلى سوريا، فعاد إلى دمشق حيث عاش بضعة أشهر ثم مات في مخيم خان الشيح.

ففي صلب الحق أن الشعب الفلسطيني لم يكف عن الكفاح الدموي ضد الصهيونية منذ صدور وعد بلفور حتى اليوم. وكل ما في الأمر أن ذلك الكفاح كان يشب أو يعرم أحياناً ويتباطأ، بل يركد، أحياناً أخرى، ولكنه لم يتوقف بتاتاً. والشعب الفلسطيني سوف لن يكف عن الكفاح المسلح في أي يوم من الأيام إلى أن تتحرر بلادنا من ذلك الداء المقيت الذي يسمى اليهود.

وإنني أؤكد لكل يهودي، ولكل من يدعم الصهيونية في هذا العالم الذي ينتعله اليهود حذاء مهترئاً، أننا نحن الشعب الفسطيني الصغير الفقير المبعثر في أرجاء العالم كافة، سوف نسترد كل ذرة من تراب وطننا السليب، وأننا لا نميز بين القدس ويافا، أو تل أبيب، إذ إن وطننا قدسي كله دون استثناء أية ذرة من ترابه الثمين. وعندما أعلنت منظمة التحرير الثورة

على الصهيونية، وذلك في بداية سنة 1965، كانت بعض القوى الفلسطينية الشعبية ما تزال تمارس الصدام الدموي المسلح ضد الصهيونية المقيتة.

ولقد تأسست في غزة كتيبة فدائية مقاتلة بعد الثورة المصرية بزمن قصير، كما تأسست كتيبة أخرى في سوريا سنة 1954. وقد أتيح لي أن أنتسب إلى هذه الكتيبة الأخيرة، وذلك بعد تأسيسها بثلاثة أعوام. أما الدافع الذي دفعني إلى ذلك فهو الرغبة العارمة التي تعتمل في داخل كل فلسطيني، والتي تهدف إلى معاقبة الصهاينة على ما اقترفوه بحق شعبنا الذي اقتلعوه من أرضه كما يقتلع السن من اللثة، ثم طوحوا به إلى خارج الحدود حيث تنتظره جميع أشكال البؤس والشقاء. أضف إلى ذلك أنني كنت مراهقاً، ومثل معظم المراهقين كنت أهوى السلاح وإطلاق النار وممارسة المخاطر والمغامرات وتذليل الصعاب وترويض كل ما هو شاق أو عسير.

* * *

في صبيحة يوم من أيام تموز سنة 1957، شاهدت، عند التقاء شارع صفد بشارع لوبيا، سيارة عسكرية كبيرة تقف هناك ويتجمع حولها عدد كبير من الشبان. فسألت عن الأمر فقيل لي إن الأركان تريد متطوعين للكتيبة الفلسطينية التي كانت تسمى كتيبة الفدائيين، والتي يقع معسكرها بالقرب من حرستا. وحرستا هذه ضاحية من ضواحي دمشق على طريق حمص.

وحملتنا السيارة إلى موقع دمشق العسكري، الذي كان بجوار الجامعة من الجهة الجنوبية، إلى الغرب قليلاً من بناية سانا الحالية. وهناك فحصونا طبياً وسجلوا أسماءنا. ثم قالوا لنا: اذهبوا إلى بيوتكم وسنبلغكم بالنتائج بعد شهر. وبالفعل بلغونا بالنتائج، وكنت أنا من المقبولين. والتحقت بالمعسكر في حرستا، وذلك في التاسع والعشرين من شهر آب، بعدما قطعت صلتي بالفندق وأخذت ما أستحقه من نقود. وفي الأول من أيلول ابتدأت دورة تدريبنا التي كانت الدورة الثالثة، والتي انتهت مساء الرابع والعشرين من كانون الأول، أي عشية عيد الميلاد تماماً.

وبهذا الانتساب إلى الحياة العسكرية انتهت طفولتي ومراهقتي، وابتدأ طور شبابي ورجولتي، وتغير نمط حياتي كله. وعندما انتهت علاقتي بتلك الكتيبة بعد أربع سنوات وشهر، شعرت بأنني قد شخت إلى حد الهرم، وما زال هذا الشعور نفسه يهيمن علي منذ تلك الأيام وحتى الزمن الراهن.

* * *

كانت الكتيبة تسمى الثامنة والستين، وقد تأسست سنة 1954، أي قبل ثلاث سنوات من التحاقي بها. وسبق لها أن خرجت دورتين قبل دورتنا الثالثة. كما أنها أضافت دورة رابعة سنة 1958. ويوم التحقت بها كان يقودها ضابط برتبة نقيب اسمه شوقي الدقاق، يساعده ضابط آخر برتبة ملازم أول اسمه أكرم الصفدي، وهو من أصبح قائد الكتيبة بعد شهور قليلة.

وفي أوائل سنة 1958 جاء الهيثم الأيوبي من سلاح المدرعات، وكان برتبة نقيب. ومن المعلوم أن ذلك الضابط من البارعين في العلوم العسكرية، ولا سيما علم القتال.

وكان تدريبنا شاقاً جداً، إذ كنا في حالة إعداد لحرب الغوار، أو ما يسمى اليوم بحرب العصابات، وهي التي تعتمد على مبدأ "اضرب واهرب". ولعل أهم سلاح في هذا الصنف من أصناف القتال أن يكون الألغام والمتفجرات، التي صار كل واحد منا خبيراً بها. والحقيقة أن نهاية الدورة لم تكن نهاية التدريب، إذ واظبنا على تمارييننا العسكرية طوال السنوات الأربع التي قضيتها في الكتيبة.

لم يكن تدريبنا عسيراً وحسب، بل كان خطيراً أيضاً، أو هو لم يكن يخلو من خطورة. فذات مرة ذهبنا بعد انتصاف كانون الأول، سنة 1957، وربما في العشرين منه، لنناور في جبل الشيخ، فوجدنا الثلج يغطي الأرض كلها، فضلاً عن أنه راح يتساقط بغزارة. وكانت تلك المناورة بمثابة كمين لرتل آلي معادٍ يمر بممر إجباري.

ويقتضي التمرين أن نكمن مدة من الزمن لا تقل عن ساعتين، ثم نطلق النار ونرمي القنابل اليدوية على الرتل. وكان دوري يتلخص في أن أقذف أربع قنابل وضعتها في جيوبي. وبعد انقضاء المدة المحددة غمرنا الثلج الذي لم يعد من تحتنا فقط، بل صار من فوقنا أيضاً. وعند ذاك تجمدت يداي تماماً فلم تعودا تطيعانني بتاتاً. وحاولت أن أفتح القنبلة الأولى، ولكنني لم أقو على ذلك، ولهذا رميتها كما هي وكأنها حجر.

وأدرك الجندي الذي كان إلى يميني أن هنالك خللاً ما، فسألني عن الإشكال، فشرحت له الأمر. وعند ذاك أخذ القنابل الثلاث المتبقية وفتحها ورماها الواحدة إثر الأخرى. وجاء قائد الدورة وتحرى أرض الضرب فوجد القنبلة الأولى ملقاة كما هي. فسألني عن سبب ذلك، فشرحت له ما جرى. وخشيت أن يوبخني أو يعاقبني، ولكنه استوعب الأمر، إذ كانت درجة الحرارة تحت الصفر بكثير. فما كان منه إلا أن أعاد لي القنبلة وانتهى الإشكال.

وبعد ذلك بيومين رحنا نناور على طريق بيروت في مكان قريب من ضيعة اسمها الديماس، وهي القريبة من ميسلون، حيث جرت المعركة الشهيرة التي استشهد فيها يوسف العظمة. وكان علينا أن ننفذ العملية السالفة إياها، أي أن نكمن لرتل آلي معاد ثم ندمره بنيران غزيرة.

أما وظيفتي هذه المرة فهي أن أفجر العبوّة الناسفة بواسطة مفجر يدوي. وللمفجر سلك طوله مائة متر أو أكثر بقليل، والسلك مربوط بالمفجر من طرف، وفي طرفه الآخر صاعق وضع في اصبع ديناميت. أما أصبع الديناميت فوضع داخل العبوة. وكان طول السلك هو الذي يحدد المسافة التي تفصل بيني وبين المادة المتفجرة. ولكن بقية الجنود لم يكونوا ملزمين بتلك المسافة. ولذلك، فإنهم كانوا جميعاً ينتشرون خلفي، ولكن عن اليمين وعن الشمال. وكنت أجلس على صخرة صغيرة ملتصقة بسفح المنحدر. أما إشارة بدء الرمي فهي الانفجار الذي سوف أحدثه بواسطة المفجر.

وبالفعل فجرت العبوة الناسفة، وابتدأ الآخرون بالرمي، أما أنا فأخذت أسحب السلك لأعيده إلى المفجر. وأثناء ذلك رمى أحد الجنود، واسمه إبراهيم المصري، قنبلة ملز إنجليزية دفاعية، فأفلتت من يده عن غير قصد وصارت خلفي تماماً، ولكنني لم أشعر بها قط. وراح يصرخ ويناديني باسمي كي أنتبه وأتفادى الموت المحتم. ولكنني لم أسمع صوته بسبب أزيز

الرصاص ودوي القنابل. ولحسن الحظ تأخر انفجار القنبلة بسبب عطب أو تلف في فتيلها. وعندئذ تحرك إبراهيم من مكانه بسرعة ووصل إليّ ثم حملني ورماني عن الصخرة، ورمى نفسه إلى جانبي. وبعد ذلك فوراً انفجرت القنبلة فوقنا، ولكنني نجوت من شرها وخطرها بفضل شجاعة ذلك الرجل الذي ما زال حياً يُرزق، وبفضل قدرته على المبادرة والاقتحام. ولكنني فوجئت به ساعتئذ، ولم أفهم السبب الذي دفعه إلى ذلك الفعل. وعندما انتهت المناورة شرح لي جميع التفاصيل، فأدركت المخاطرة التي أقدم عليها، وكذلك مدى الشجاعة التي تقتضيها تلك المخاطرة.

* * *

أما لباسنا خارج المعسكر فهو بزة كحلية اللون، وأما شعارنا الذي نضعه على بريهاتنا فهو تجسيد نحاسي لصورة قبة الصخرة التي في القدس، محاطاً بنصف دائرة معدنية. وكان في منتصف باحة المعسكر صارية عليها علمان، العلم السوري (وفيما بعد علم الجمهورية العربية المتحدة) والعلم الفلسطيني الذي تتوسطه صورة المسجد نفسه.

وبما أن هذا الشعار إشارة إلى تشبث الفلسطينيين بمدينة القدس حصراً، وبما أن اليهود يزعمون بأن القدس هي "العاصمة الأبدية" لكيانهم القميء، مع أن توراتهم نفسها تقر بأن الكنعانيين أقدم منهم في القدس، فإن بعض الحكومات العربية، التي لا تزيد عن كونها أحذية ينتعلها اليهود، قد وضعت أسماءنا على اللائحة السوداء. فإذا عاداك اليهود عادتك الدنيا بأسرها. وسوف أدفع أنا ثمن انتسابي إلى الكتيبة الثامنة والستين التي ضربت أهدافاً عسكرية في عمق الغيتو الصهيوني أثناء حرب السويس سنة 1956، وذلك انطلاقاً من الضفة الغربية، وبالاتفاق مع الحكومة الأردنية نفسها. فقد كانت حدود الغيتو الصهيوني مع الأردن طويلة جداً بحيث يتعذر عليه أن يحرسها كلها.

ولسوف أتحدث عن هذا الثمن في الحين المناسب، ولكن حبذا التنويه في هذا الموضع بأنني أشعر بالغثيان، أو حتى بالرغبة في أن أتقيأ أحشائي، حين أرى صنفاً معيناً من أصناف العرب المنسوجين من الخور والاستخذاء أمام الأغيار، والذين استمرؤوا الذلة والنذالة وأدمنوهما، حتى ما عادوا يفكرون بأمر ثرواتهم التي ينهبها الغربيون واليهود في وضح النهار، ودون أن يخفى ذلك حتى على الأطفال.

كثيراً ما تهمس الحقيقة همساً، أما الكذب أو الهراء فيقال بالفم الملآن.

* * *

بعد انتهاء الدورة بشهرين، أي في شباط سنة 1958، تمت الوحدة بين سوريا ومصر. وأغلب ظني أنه لم تكن هنالك وحدة فعلية بتاتاً، وآية ذلك أن الحكومة المركزية، التي يجب أن تحكم الإقليمين معاً، لم يكن لها غير وجود زائف وحسب. أما الغاية من ذلك التزوير فلم تكن واضحة في ذلك الحين، ولكنها اتضحت أثناء مناوشة حزيران المريبة.

وعلى أية حال، فقد عاشت دمشق عرساً أو عيداً طويل الأمد، يرقص الناس فيه رقص

الدبكة ويغنون الأغاني المبهجة الباعثة على الأمل. حقاً، عاشت فرحة لم تعرف لها نظيراً طوال تاريخها. ولكن تلك الفرحة لم تكن سوى تمهيد لحزن طويل. وكان الغناء كله مخصصاً لجمال عبد الناصر. وراح الجنود في سوريا يغنون أغنية مطلعها: جمال يا موحد جيوش العرب.

وكان أهل حي الميدان في تلك الأيام البكر قوماً راسخين في الأصالة والعراقة. فلهم خيول مسوّمة مطهمة تنم عن أُبهة وأنفة وعزة نفس. والحقيقة أن ذلك الإنسان العربي المترع بالشمم والإباء هو الذي دجنته الأنظمة السائدة عندنا طوال السنوات الخمسين الأخيرة، وأحالته إلى قط مروّض، وذلك ابتغاء تمكين اليهود من احتلالهم لفلسطين ومن نهبهم لثروات العرب.

وأياً ما كان جوهر الحال، فإن أهل الميدان قد ركبوا خيولهم وجاؤوا بها إلى أواسط دمشق، ولا سيما إلى بوابة الصالحية وشارع أبو رمانة حيث قصر الضيافة الذي اعتاد الرئيس أن يحل فيه يوم يجيء إلى سوريا. وراحت الخيل تتسابق في تلك الشوارع التي لم تكن مكتظة بالسيارات. حقاً، كانت البهجة عارمة وتشمل الجميع. وقد اشتهر رجل اسمه الجلاوي، لديه فرس لعلها الأفضل بين جميع تلك الخيول.

وحين شاهدت ذلك المشهد الذي راح يتكرر يومياً في دمشق، ولمدة ليست باليسيرة، فقد استهوتني الخيول، وفكرت بشراء فرس أركبها وأشترك في السباق. فسألت عن سعر الفرس فقيل لي بأنه ألفان من الليرات السورية. وهذا مبلغ يعادل نصف كيلو من الذهب في تلك الأيام. فقلت لنفسي: حين أحصل على الألفين سوف أشتري فرساً. ولكنني حين حصلت عليهما صار ثمن الفرس عشرين ألفاً. فقلت لنفسي: حين أحصل على هذا الملبغ سوف أشتري فرساً. ويوم حصلت على ذلك المبلغ صار ثمن الفرس مائتي ألف. فقلت لنفسي سوف أحصل على المائتي ألف وأشتري فرساً. وبالفعل حصلت على مبلغ ضخم في سنة من السنين ولكنني كبرت فما عدت صالحاً لركوب الخيل.

* * *

وفي شهر أيار من تلك السنة اندلعت في لبنان ثورة شعبية هدفها الإطاحة بالرئيس اللبناني كميل شمعون. وحين أنظر اليوم إلى الوراء أشعر بأن تلك الثورة كانت تمارس الشر من أجل الشر. فما الجداء من طرد شمعون والإتيان برئيس جديد قد لا يكون أفضل منه؟

والحقيقة أن كتيبتنا هي التي صنعت تلك الثورة، ولكن بالتعاون مع بعض القوى الشعبية اللبنانية، ولا سيما أنصار جنبلاط في جبل لبنان، وأنصار صائب سلام في بيروت. وقد شحنتنا قيادة الكتيبة، ولا سيما الهيثم الأيوبي، بالنزوع القومي، وكذلك بفكرة مؤداها أننا سوف نقاتل في لبنان من أجل ضمه إلى الجمهورية العربية المتحدة. ولاريب عندي الآن في أننا قاتلنا في لبنان من أجل تخريبه فقط.

ولكي تتمكن الكتيبة من سد النقص في الرجال (لم يكن عددنا أكثر من مائتين وخمسين مقاتل عشية اندلاع الثورة في أيار). فقد عمدت إلى تطويع دفعة جديدة من الشبان تطويعاً

مؤقتاً. وكانت مدة تدريبهم لا تزيد عن بضعة أيام. وبعد ذلك يحملون البنادق ويتجهون نحو الأراضي اللبنانية. ومن هؤلاء المتطوعين تشكلت الدورة الرابعة فيما بعد، فصار عدد رجال الكتيبة النهائي زهاء ثلاثمائة رجل.

في أصيل الخامس من حزيران حملت السيارات معظم رجال السرية الثالثة التي كنت فيها إلى قرية لبنانية قريبة من الحدود السورية، اسمها دير العشاير. (سوف يرتكب اليهود مجزرة بالطيران في تلك القرية حوالي سنة 1970) كنا ستين مقاتلاً من الكتيبة الثامنة والستين، وسبعين متطوعاً من أولئك المؤقتين أو المستجدين. وانتظرنا غروب الشمس كي لا يضربنا الطيران العراقي الذي هب لينجد الحكومة اللبنانية إثر اندلاع الثورة. وسبق للطيران أن قصف حشداً من المتطوعين السوريين الدروز الذين ذهبوا إلى قرية المختارة الواقعة في جبل الباروك، حيث يقيم كمال جنبلاط الزعيم الدرزي المشهور. وعبر أولئك المتطوعون سهل البقاع نهاراً، ففتك بهم الطيران العراقي الذي فاجأهم قبل الوصول إلى بداية ذلك الجبل.

وانطلقنا باتجاه قرية الرفيد المتاخمة لسهل البقاع من جهته الشرقية، وغير البعيدة عن نهر الليطاني الذي أحبه لأنني تعلمت السباحة في مياهه التي كانت نظيفة يومئذ. كما أن الرفيد قريبة من ضيعة أخرى اسمها كامد اللوز، وهي التي كانت عاصمة لمعظم بلاد الشام خلال الحكم الفرعوني.

وصلنا إلى مشارف الرفيد بعد منتصف الليل. ولم يكن هنالك قمر في تلك الليلة لينير دربنا المظلم الطويل، ولكن بهرة النجوم كانت رائعة في فضاء حزيران الصافي. وجلسنا نرتاح، إذ أضنانا التعب بعد مسيرة ساعات طويلة في الجبال الوعرة. وحين بزغت الشمس اتضح المشهد تماماً وظهرت سلسلة جبال لبنان الغربية بكامل جلالها ومهابتها. وأمضينا النهار كله في سفح الجبل المجاور للرفيد ننتظر غروب الشمس كي نعبر سهل البقاع باتجاه الباروك. وكان كل منا يحمل مطرة مترعة بالماء، كما يحمل مزودة فيها شيء من الطعام، ولا سيما الخبز.

وفي بداية المساء، أي في اليوم السادس من الشهر السادس، سرنا باتجاه نهر الليطاني، إذ كان لا بد من عبوره فوق جسر قريب من جب جنين (بكسر فشدة على النون الأولى). وكان معنا أدلاء يعرفون الدرب ويرافقوننا منذ الانطلاق وحتى الوصول. وتطوعت مع رجل آخر لاستطلاع الجسر قبل بلوغه، فكان هنالك كمين للجيش اللبناني عند الجهة الغربية للجسر والنهر. ويبدو أنهم سمعوا جلبتنا العالية، وأدركوا أن لا قبل لهم بمجابهتنا، فركبوا سيارتهم وانسحبوا صوب الشمال، إذ كان هنالك طريق معبد يسير باتجاه شتورا بعدما يمر بعمّيق. ولم نطلق النار على السيارة التي شاهدنا ضوءها وسمعنا صوتها، بل تركناها تريحنا من شرها وشر من فيها.

وعبرت الجسر وحدي، ثم تبعني رفيقي في السلاح، ووصلنا إلى حيث كان الكمين فلم نجد أحداً. ولحق بنا رجلان من رجالنا، فبلّغناهما بأن الدرب سالك آمن، فراح واحد منهما إلى موقع السرية وبلغها بواقع الحال. وبعد هنيهة عبر الجميع. ثم رحنا نتسلق جبل الباروك الشاهق العسير. وظللنا نسير حتى وصلنا إلى قرية المختارة منهكين جائعين ظامئين، وذلك

إثر بزوغ الشمس في صبيحة اليوم السابع من شهر حزيران.

وأذكر أنني فور وصولي إلى بيت جنبلاط الذي يشبه قصراً من القصور الكبيرة، نمت نصف ساعة أظنها أعمق نوم نمته في حياتي كلها، إذ مضت ليلتان متتاليتان دون أن أنام بتاتاً.

مكثنا في المختارة ثلاثة أيام، أتيح لي فيها أن أشاهد كمال جنبلاط نفسه، ولكن لدقائق وحسب. وعرفت أنه مثقف وروحاني ويتقن اللغة الإنجليزية. وعندما كبرت اطلعت على الكثير من أخبار ذلك الرجل، كما طالعت بعض كتبه، واقتنعت بأن أمثاله نادرون في العالم كله.

ثم سرنا باتجاه بيروت على الأقدام، إذ لم تكن هنالك سيارات كافية لحملنا إلى أي مكان. ومرت دربنا بالقرب من بلدتين كبيرتين متجاورتين، وهما دير القمر وبعقلين. ولكننا وصلنا إلى قرية في الجبل لم أعد أذكر اسمها، فكمنا بين أشجار حرجها خوفاً من الطيران العراقي الذي قد يباغتنا على حين غرة. وأقمنا هنالك يومين آخرين فقط. وكانت سيارة كبيرة تأتي إلينا وهي تحمل الطعام والشراب من بيت جنبلاط في المختارة. وكان البحر يرى بالعين المجردة من ذلك المكان الذي أظنه شديد القرب من الدامور. وأهم ما في الأمر أنني ما زلت أتذكر الروائح الطيبة الذاكية التي كانت تفوح في ذلك الحرج من النباتات والزهور البرية الكثيرة، ولا سيما في الليل حين تصير الأنسام رطبة إلى الحد المنعش. فليست تلك المنطقة ماطرة وحسب، بل هي تتلقى أنداء البحر وأنسامه المفعمة بالماء طوال الصيف.

ثم جاؤونا بسيارات حملتنا إلى بيروت فدخلناها قبيل الظهر، وانتشرنا في الأحياء التي تسيطر عليها الحركة الوطنية بقيادة صائب سلام. واستقبلتنا بيروت بحفاوة وحرارة وأغدقت علينا الطعام والسجائر، وعشنا في ترف لم نألفه من قبل. وخصصت لنا القيادة الوطنية مبلغاً مقداره عشرون ليرة لبنانية كل يوم. وكان هذا المبلغ كبيراً في تلك الأيام. وكنت أدفع منه زهاء عشر ليرات للطعام والتدخين، وأدخر معظم ما تبقى منه.

*   *   *

علمت الحكومة اللبنانية بدخولنا إلى عاصمتها، فأرسلت كتيبة مشاة معززة بالدروع لتطردنا، أو لتهيمن على مواقعنا. وحدث ذلك في الرابع عشر من حزيران. أي بعد وصولنا إلى بيروت بيومين أو بثلاثة أيام. وتصدينا لتلك القوة، ودحرناها وهي تجرر أذيال الخيبة.

وكان ثقل الصدام في البداية إلى الشرق من سجن الرمل الذي صار الجامعة العربية فيما بعد. وكنا مجموعة من بضعة رجال على سطح إحدى البنايات. ورحنا نطلق النار على جميع مصادر الرمي باستثناء الدروع، لأنها لا تتأثر بالرصاص. وفجأة أصيب قائد المجموعة برصاصة في جبينه فاخترقت جمجمته وخرجت من مؤخرة رأسه. وراح يتشحط بدمه الذي استحال إلى بركة ضرجت ثيابه باللون الأحمر. ومات الرجل خلال ربع دقيقة أو أقل، ونحن نراقبه دون أن نتمكن من أي فعل ذي بال. ولكننا تابعنا الرمي وكأن شيئاً لم يكن. وعند ذاك فوجئنا بطائرتين عراقيتين أخذتا ترشان مواقعنا بما تملكان من جحيم. وأدركنا خطورة

الوضع فهبطنا إلى الأسفل تاركين جثة الشهيد في مكانها.

وكانت لنا هنالك خنادق محفورة وفقاً لما يسمونه خط الزكزاك الذي يحرم الطائرة من أن ترش الخندق كله برشة واحدة. وتمترسنا في الخنادق وأخذنا نطلق النار باتجاه الجيش. وفجأة هبطت علينا امرأة شابة عمرها دون الثلاثين، وفي يدها بندقية صيد، وتلبس بنطالاً أزرق كالرجال. وهي أول امرأة تلبس بنطالاً ممن رأيت. وأخبرتنا أن البندقية لزوجها الذي رفض أن يخرج إلى القتال، فحملتها وجاءت إلينا لتشاطرنا مصيرنا.

واشتدت نيران الدبابات فانسحب جميع الذين كانوا معي في الخندق وأخذوا المرأة معهم. وحين رفعت رأسي لأنهض وأنسحب معهم فوجئت برشة غزيرة أبقتني في مكاني قسراً. وفجأة رأيت ثلاثة جنود لبنانيين يقفزون عن سطح مصبغة كانت أمامي. فسددت بندقيتي الفرنسية الصنع ونصف الآلية، ثم أطلقت النار، ولكنني أخطأت الجندي الأول بسبب المفاجأة والسرعة. ورأيته يركض باتجاه سيارة عسكرية صغيرة كانت تقف في المكان نصف مرئية. أما الجندي الثاني فأطلقت عليه رصاصة رأيته بعدها يضع يده اليسرى على عضده الأيمن ويهرع باتجاه السيارة. ولكنني أصبت الجندي الثالث في صدره، ولهذا، فقد تمدد على الأرض ولم يتحرك بتاتاً. وقد رآه بعض الناس في اليوم التالي وأكدوا لي أن إصابته في صدره الأيسر. وأطلقت النار على السيارة وهي في بداية انطلاقها، ولكنها استطاعت أن تفر باتجاه الغرب.

ولا أدري كيف جُرحت، إذ أصابتني ثلاث رصاصات، ولكنها لم تزد عن أنها لامست الجلد وحده، ولم تدخل أي منها إلى داخل الجسد. وأظن أن الدبابة التي كانت قريبة مني هي التي جرحتني في وجهي وفي كتفي الأيسر. وأخذ الدم ينزف من وجهي الذي أصيب برصاصتين، فانسللت من الخندق زحفاً، واختبأت وراء البناية التي كانت خلفي تماماً. وأتاني شابان لبنانيان، فأخرجت الضماد الطبي من المزودة وطلبت منهما أن يضمداني، ففعلا. ثم أدخلاني إلى بيت في أحد الأزقة وذهبا. ولكن صاحب البيت، وهو لبناني أيضاً، قد خرج بسرعة ثم رجع ومعه طبيب.

أعاد الطبيب تضميدي من جديد بعد تنظيف الجروح الثلاثة وتطهيرها، ثم أعطاني إبرة قد تكون مضادة للإنتان أو الكزاز. وقال بأنني أحتاج إلى مشفى وإلى صور شعاعية. وبقيت في ذلك البيت حتى المساء، وعند ذلك كان الجيش قد دحر، فجاء رفاقي في السلاح وأخذوني إلى البيت الذي كنا نسكنه في شارع صبرا. وأخبروني عن تفاصيل الأحداث كلها، وأكدوا لي أن الدبابة التي ضربتني قد أحرقت بسلاح مضاد للدروع، وإثر ذلك هربت جميع الدبابات الأخرى خوفاً من أن يلحق بها المصير نفسه.

كانت خسائرنا أربعة شهداء وجريحاً واحداً هو أنا. وأما الجيش فكانت خسائره فادحة وفقاً للبيان الرسمي الذي أعلنته الإذاعة اللبنانية. وكان بين الخسائر عشرة جنود أسرى. وربما كانت معظم خسائر الجيش من سرية مشاة اندفعت من مدينة الرياضة باتجاه مواقعنا فوق أرض رملية مكشوفة، وفي وضح النهار، فتعرضت لنيران غزيرة جداً. إن ذلك الاندفاع هو، بلا مراء، حماقة ارتكبتها قيادة الهجوم، إذ كشفت ما لا يقل عن مائة جندي لنيراننا دون أي غطاء فعال، إذ لم يتمكن الطيران العراقي المساند للهجوم، والذي لم يدخر شيئاً من مهارته

الفائقة بغية تحقيق التغطية لتلك السرية المنكودة الحظ من أن يفعل أيما شيء ذي بال.

وجيء بالجنود العشرة إلى بيتنا. ورأيت بينهم واحداً يبكي بحرارة ولا يكف عن البكاء. وكان ذلك الجندي هو المسيحي الوحيد بين الأسرى. وراح يصرخ ويولول ويقول بأن أخاه قد مات في ذلك اليوم. وصار يرجونا كي نطلق سراحه ليذهب إلى أمه التي قد تخسر عقلها بسبب مقتل ابنها الغالي عليها كثيراً، وفقاً لادعائه. وأكد الجنود الآخرون صحة دعواه، فأشفقنا عليه وأطلقنا سراحه دون سلاح، بعدما أخذنا عليه عهداً بأن يرجع ليقاتل معنا من أجل إدراج لبنان في الوحدة العربية. ولكنني لم أره بعد ذلك اليوم بتاتاً.

أما الآخرون فأقسموا على أنهم سوف يقاتلون معنا إذا أعدنا لهم أسلحتهم. وبالفعل قاتلوا معنا في صدامات أخرى، وذلك بعدما أقنعناهم بأننا نريد أن نضم لبنان إلى الجمهورية العربية المتحدة، الأمر الذي من شأنه أن يحكم الطوق على الغيتو الصهيوني الذي ينبغي أن يزول من الوجود لأنه معتد أثيم. لقد تفهموا غايتنا بسهولة حقاً.

وفي اليوم التالي نقلت إلى مشفى المقاصد الإسلامية حيث مكثت ثلاثة أيام أجريت لي خلالها فحوص مخبرية، وأخذت صور شعاعية، وثبت أن لا وجود لأي شيء ذي بال. وكانت تشرف على تمريضي ممرضة لطيفة ولا تخلو من جمال، ولكنني نسيت اسمها. وكان المشفى خالياً من المرضى تقريباً، وربما كان ذلك بسبب سوء الأحوال الاقتصادية يومئذ. ولهذا، فقد راحت الممرضة تمنحني الكثير من وقتها، وتلاطفني وتعنى بي عناية شديدة. وبعد خروجي من المشفى بأيام قليلة عدت إليه زائراً أبحث عنها فلم أجدها، ووجدت بدلاً منها واحدة أخرى لا تعرفني. فغادرت المكان ملتاعاً، أو لعلني كنت أشعر بشيء من الحسرة على ذلك الخسران.

* * *

وفي اليوم الرابع عشر من تموز حدث انقلاب عسكري في بغداد أسفر عن مقتل عبد الإله، الوصي على العرش، وكذلك عن مقتل نوري السعيد، رئيس الوزراء، وخادم الإنجليز واليهود، إذ لم تجده أيما نفع جميع الخدمات التي قدمها لأسياده، فسمحوا للغوغاء بأن يجروا جثته في شوارع بغداد. ولكن أهم ما في الأمر أن الطيران العراقي الذي أربكنا كثيراً قد غادر لبنان وعاد إلى بلاده بناءً على أوامر من القيادة الجديدة. ولكننا فوجئنا بوصول الأسطول السادس الأمريكي إلى الشاطئ اللبناني، أو قبالة بيروت من الجهة الجنوبية.

وذات يوم نزل الجنود الأمريكيون إلى حرش بيروت، حيث تكثر أشجار الصنوبر الجميلة. وهناك تصدينا لهم قبيل الغروب فتراجعوا عن الأماكن التي كنا نسيطر عليها، ولكنهم نصبوا خيامهم قرب مستديرة المطار. وظلوا في ذلك الموضع حتى انسحبوا من لبنان بعدما غادرنا بيروت بقليل. وأذكر أن سيارة أمريكية صغيرة مرت من أمامي على الطريق المحاط بأشجار الصنوبر من جانبيه، الشرقي والغربي، متجهة نحو الجنوب، وفيها سائق ورقيب. وكان الرقيب من جهتي، وعلى مسافة قريبة جداً. فأطلقت النار ورأيته يضع يده اليمنى على عضده الأيسر، تقريباً كما حدث مع الجندي اللبناني الآنف الذكر. ثم أطلقت النار على

السيارة، ولكنها ظلت تسير بسرعة صوب الجنوب. ولا أدري ماذا حدث لمن في داخلها.

* * *

في الزاوية الجنوبية الغربية من مدينة بيروت، التي لم يكن لها هذا الحجم الراهن العملاق، كانت هنالك تلة اسمها تلة الخياط. وهي مكان يشرف على ثكنة كبيرة للجيش اللبناني قريبة من التلة، وكذلك من البحر. وكانت لنا خنادق هناك، وبيت في إحدى البنايات التي كانت لا تزال في بداية إنشائها. واعتادت قيادتنا أن ترسل مجموعة كل أسبوع لتتخندق في تلك الخنادق ولتراقب الثكنة خوفاً من أن ينقض الجيش على مواقعنا. وكانت الأوامر تنص على الالتزام بالهدوء مع الحق في الرد على العدو إذا ما فتح النار. ومع ذلك فقد اعتدنا على إطلاق النار باتجاه الثكنة دون أن يبادرنا العدو بالهجوم. وكنا دوماً نتذرع بأن الثكنة هي التي فتحت النار أولاً.

وجاء دور مجموعتنا لتناوب أسبوعاً في تلك التلة المشرفة على البحر وعلى الثكنة في الوقت نفسه. فذهبنا إلى هناك وانشطرنا إلى شطرين، واحد في الخندق وآخر في البناية يرتاح، ثم يتبادلان المواقع بعد ساعتين. وكان معنا فتى لبناني اسمه محمود، لعله أصغر مني بسنة أو سنتين. وقد اعتدنا أن نمنحه الطعام والسجائر وشيئاً من النقود، وذلك إشفاقاً عليه لأنه كان يتيماً، وقد تركته أمه مع جدته لأبيه وتزوجت.

وذات يوم من أيام تموز الخانقة انسحب الجميع من الخندق، عند الرابعة تقريباً، بسبب الحر، وذهبوا إلى المبنى حيث نسكن، وقالوا بأنهم سوف يراقبون الثكنة من النوافذ. أما أنا فأصريت على البقاء في الخندق. وبقي معي محمود الذي هو معتاد على رطوبة بيروت وحرها الاضطهادي. وفجأة رأيت حشداً من الناس عند أسفل التلة من الجهة الجنوبية، أي من جهة الثكنة المعادية لنا، وعلى مسافة قد لا تزيد عن مائة متر إلا قليلاً. وسألت محمود عن الأمر، فقال: ألا تعلم؟ قلت: لا. قال: هنالك نساء. فقلت: نساء؟ قال: نعم، نساء شابات جداً، وجميلات جداً، ورخيصات.

كانت جيوبي مكتظة بالنقود. فقلت للفتى اللبناني: هيا بنا نغادر هذه الخنادق اللعينة. لقد آن الأوان لآخذ إجازة مدتها ساعة على الأقل. إن اللعنة لا تهدأ. ولئن لم تمنح نفسك إجازة منها فإنها لن تمنحك إجازة من تلقاء نفسها في أي يوم من الأيام.

ولهذا، عدت إلى غرفتي في البناية، فوضعت السلاح كله جانباً، وخلعت ملابسي التي تفوح منها رائحة عرق وعفن. ودخلت الحمام فاغتسلت جيداً وحلقت لحيتي. ثم لبست أجمل ملابسي، ودهنت شعري الكثيف بمادة دهنية اسمها "بريلكريم"، كانت دهان الشعر المفضل لدى شبان ذلك الزمن. ويبدو لي أن الإنسان محارب عرضي، أو مؤقت، ولكنه عاشق على نحو دائم. فلكم صدق الصوفيون حين أكدوا على أنه "لا مرام سوى الغرام".

نزلت أنا ومحمود باتجاه المكان الذي كان شديد القرب، والذي يشبه حفرة واسعة وعميقة في طرف التلة الجنوبي، أحدثتها الآلات التي كانت تحفرها ابتغاء تزويد الحركة

العمرانية بالرمل اللازم. ولهذا، فإن لها من الجهتين الشرقية والغربية ما يشبه أن يكون جداراً عالياً جداً من شأنه أن يصد الشمس عن الناس. وكان في الجدارين غرف، بل كهوف، لها أبواب من خشب عتيق أو مستعمل.

ورأيت هنالك امرأة عمرها زهاء خمسين سنة تجلس على كرسي صغير جداً كان ثمنه ليرة سورية واحدة في دمشق يومئذ، وأمامها طبلية عليها صينية فيها كاسات زجاجية كبيرة، وإلى جوارها بريمس عليه إبريق شاي كبير. وهي تبيع كاسة الشاي الواحدة بعشرة قروش، أي أن الليرة كانت تشتري عشر كاسات.

ويجلس حول المرأة عدد ليس باليسير من الفتيات اليانعات الفتّانات اللائي لم تكن فيهن من تتخطى العشرين من سنوات عمرها. أما أجرة الفتاة فهي ليرة ونصف الليرة، وذلك لأن الوضع الاقتصادي متدهور في ذلك الصيف المضطرب.

واشتريت الشاي لي ولمحمود ونحن نجلس على كرسيين صغيرين. وأخذنا ندخن سجائر اللوكي الأمريكية الصنع. (إن الإمبريالية متحالفة مع غرائزنا) ورحت أتفرس في وجوه الفتيات لأختار واحدة منهن. وفجأة رأيت فتاة أعرف وجهها تمام المعرفة. فما كان مني إلا أن حملت كرسيي وذهبت إليها وجلست بجوارها. فالتفتت إلي وابتسمت ظناً منها أنني سوف أطارحها الغرام. ثم سألتها: ألست فريال؟ قالت: من فريال؟ قلت: أما كنت تعملين خادمة في منزل الدكتور حيدر في بعلبك قبل ثلاثة أعوام؟ أما كنت تأتين إلى سينما ركسي كل أحد عند الساعة الثالثة ومعك الطفلان ابنا الطبيب؟ قالت: إنك تعرفني جيداً، إذن. نعم، أنا فريال.

عندئذ نهضت وناديت محمود وغادرنا المكان معاً باتجاه البناية حيث نقيم. وسألني محمود عن سبب المغادرة المفاجئة فأجبته بأنني أصبت بصداع اضطهادي سببه الحر. وحينما وصلنا وجدنا الجميع يغطون في النوم إلا واحداً منهم كان يقف إلى جوار النافذة ويشهر بندقيته ويسددها نحو الثكنة. وخلعت ملابسي النظيفة الجديدة، وأعدتها إلى الحقيبة مرة أخرى، وارتديت لباس الميدان القذر، وتمددت على السرير، ورحت أفكر بهذه الدنيا العجيبة التي يفتك بها المال فتكاً ذريعاً، والتي ترغم الحب على أن يتوارى في زوايا التكتم، بل حتى في زوايا النسيان. فلقد صدمت صدمة لم أمارس لها مثيلاً من قبل ولا من بعد.

لم يستطع الحب الصادق النبيل الذي كنت أكنه لها يوم كنا نعيش في بعلبك، ولا استطاع دفئه أو طهره، أن يجعلها تلقي عليّ نظرة أو تمنحني ابتسامة أو كلمة طيبة، أما الليرة فكفيلة بتعريتها تمام التعرية. وكاد فؤادي أن ينفجر بوجيبه، ولشدة ما كابد الهيام صار يتوقد مثل جمرة ذات ضرام. ولكن شتان ما بين نبل الغرام وهذا الفعل الشبقي العرضي المبتذل. ولقد اهتزت ثقتي بصلابة الوجود وتعزز لدي شعور بهشاشة الحياة وتفاهتها وعقمها وخلوها من أي جداء، وصار مشهد الحياة يجعلني أرتعش وأكتئب، وذلك لأنني أدرك ما يندرج فيها من الفظائع والمنغصات والسفالات التي من شأنها أن تصحن قرص الشمس. يقيناً، إن تلك الهنيهة لم تكن أقل من زلزال زلزل كياني كله، وما زالت أعماقي تردد أصداء الهزة وأرجاعها حتى الآن.

* * *

وذات يوم تم التفاوض بين الكبار بغية إخراجنا من بيروت وإعادتنا إلى سوريا. وبالفعل نقلتنا سيارات الجيش اللبناني نفسه إلى الحدود بعدما سلمنا أسلحتنا للقيادة الوطنية. وقد عدنا في الأول من أيلول سنة 1958. ولم يكن معي سوى حقيبة فيها بعض الكتب وقميص واحد أنيق لم أنسه حتى الآن. هذا عدا عن الملابس الجديدة التي لبستها عشية السفر بعد تسليم السلاح مباشرة وجئت بها إلى دمشق. ولأعترف بأنني سرقت الكتب من مكتبة إحدى المدارس التي أقمنا فيها لفترة من الزمن. فقد كسرت زجاج الخزانة وأخرجت منها جميع كتبها، ثم انتقيت أفضلها وأنسبها لي. واشتريت حقيبة ملأتها بتلك الكتب المسروقة. وحين سافرت أخذتها معي إلى دمشق. ولكنني لا أذكر البتة أنني سرقت شيئاً آخر في حياتي كلها.

وفي ذلك الطور من أطوار عمري، يوم كنت خالياً من النضج تماماً، لم أندم على أنني قتلت الجندي اللبناني، لأنني كنت قانعاً بأنني أقاتل من أجل الوحدة العربية التي إذا تحققت أزالت الغيتو الصهيوني من الوجود. ولكنني ندمت كثيراً على قتله بعدما كبرت وأدركت أننا نقاتل خدمة لليهود الذين لا تعيش دويلتهم القميئة إلا إذا أحيطت بالخراب من جميع الجهات، بل إلا إذا خرب العالم الإسلامي كله من المغرب حتى أندونيسيا، وإلا إذا ظهر الدين الإسلامي نفسه بوصفه ديناً إرهابياً معادياً للحياة، أو للجنس البشري بأسره. وفي الحق أن الحكومات العربية المتحالفة مع اليهود ومع أدواتهم الغربيين قد أنجزت تخريب العالم العربي وانتهى الأمر. ولهذا، فإنني اليوم نادم أشد الندم وآسف أشد الأسف لأنني قتلت ذلك الجندي المنكود الحظ. وعزائي على قتله أن رفيقي في السلاح قتل من قبل، وأنني جرحت بعد موت ذلك الجندي اللبناني بقليل.

أما الأمريكيون الذين رأيت أسطولهم الهائل يرسو قبالة شاطئ بيروت، فقد استخلصت من المناوشة الصغيرة التي خضناها معهم في الحرش بأنهم جبناء ولا يصلحون للقتال، على الرغم من أسلحتهم الإبليسية الشديدة التطور. فقد فتحوا علينا الجحيم نفسه، ولكنهم كانوا يرمون على نحو عشوائي، ولا يعرفون كيف يتصرفون. ولهذا، فإننا لم نخسر أية إصابة في ذلك الصدام الصغير. يقيناً، إن الأمريكيين أمة تافهة ضعيفة العقل وتتهافت على الشهوات تهافت المنحلين. وهذا ما يفسر هزيمتها في كوريا ثم في الفيتنام. ويلوح لي أن الإنسان حين يطور أدواته القتالية إلى هذا الحد المتطرف، فإنه يصير غير صالح للقتال، بل هو لم يسرف في تطوير أسلحته إلى الحد الجحيمي إلا لأنه يريد لتلك الأدوات أن تقاتل بدلاً منه، أي هو يبتغي تغطية عجزه وجبنه وخوائه الروحي والأخلاقي بهذه الأدوات الإبليسية.

ولكنني منذ عودتي من بيروت دأبت على الاعتقاد الجازم بأن العرب لا مفر لهم من خوض معركة حاسمة، بل نهائية، ضد الأمريكيين، الذين لا زالوا يحملون روح الإفرنج القدماء، أعني روح الكراهية التي يكنونها للعرب، وإن كانوا بغير دين في هذه الأيام. لا محيد عن معركة فاصلة من شأنها أن تؤدب الغربيين كما أدبتهم شعوب الطرف الشرقي من آسيا. وحين هجم الجيش الأمريكي على العراق في شباط سنة 1991، توفرت فرصة نادرة لإنجاز تلك الملحمة الهائلة التي من شأنها أن تصون الكرامة والشرف، ولكن ثبت بالممارسة أن ما جرى لم يكن سوى مؤامرة قذرة هدفها تدمير العراق وتجزئته إلى فتات عاجز عن تهديد أمن الغيتو الصهيوني. وهذا يعني إخراجه من التاريخ.

لماذا انتصر شرق آسيا على أمريكا بينما هزم غرب آسيا أمام أمريكا؟ لأن حكومات شرق آسيا متحالفة مع شعوبها ضد الغربيين، بينما تتحالف حكومات غرب آسيا مع الغربيين واليهود ضد شعوبها.

* * *

حينما وصلنا المعسكر في حرستا، وذلك عند بزوغ الشمس، فتشونا ليتأكدوا من أننا لم نسرق شيئاً. وشاهد أكرم الصفدي الكتب معي، وأدرك أنها مسروقة. ولكنه سامحني بصريح العبارة، وقال بأنني سرقتها لأطالعها، لا لأبيعها. وأكدت له صحة قوله.

ثم منحونا إجازة مدتها أسبوع. وأذكر أنها كانت ممتعة جداً، لأنها جاءت بعد فترة طويلة من التعب والاضطراب. وذهبت إلى القنيطرة لأزور عمتي فاطمة وأسرتها. وكان اللقاء حميماً مبهجاً للطرفين. يا إلهي ما أكبر الفرق بين الحرب والسلام! ولا أشبه ذلك الفرق إلا بالفرق الفاصل بين المرض والسواء تماماً.

ولكن الحياة عادت إلى رتوبها الممل، أو الأحادي اللون، بعدما التحقت بالمعسكر من جديد، لولا أن حادثاً طارئاً قد حدث في آذار، سنة 1959. فبينما كنا في المعسكر ذات يوم، صدر أمر مفاجئ باجتماع الكتيبة، وجيء بسيارات شاحنة، وأمروا زهاء مائة منا بالصعود إليها. وحملتنا السيارات إلى مطار المزة العسكري. وهناك صعدنا إلى طائرات ناقلة للجنود لم أعد أذكر عددها. وأقلعت تلك الطائرات وطارت بنا إلى جهة مجهولة. وحين مررنا فوق تدمر عرفتها من آثارها، مع أنني لم أرها من قبل بتاتاً. وبعد قليل طرنا فوق نهر عملاق، وذلك قبيل غروب الشمس. وقلت لمن معي في الطائرة بأن ذلك النهر لا يمكن له أن يكون إلا نهر الفرات. وتأكد ذلك كله حين نزلنا في مطار كتب على أحد جدرانه بخط عريض: «مطار القامشلي». وجاء حشد كبير من الناس إلى محيط المطار، فقد بلغهم أن جمال عبد الناصر سوف يصل إلى مدينتهم في ذلك اليوم.

ثم حملتنا سيارات عسكرية كبيرة إلى محطة القطار في تلك المدينة، وصعدنا إلى أحد القطارات، وسرنا ليلاً حتى وصلنا إلى إحدى المحطات حيث توقف قطارنا. وعلى واجهة مبنى المحطة كتب اسم المكان، وهو تل كوجك. وعلمنا أننا عند الحدود العراقية، أو على مبعدة مئات الأمتار من تلك الحدود. وهرعنا إلى المذياع بعد بزوغ الشمس، فعرفنا أن ثورة قد جرت في مدينة الموصل، وأن الشواف، قائد الثورة، أردي قتيلاً، فانتهت الثورة أو دحرت.

أما نحن فكانت مهمتنا الوصول إلى الموصل ودعم الثورة التي إذا نجحت أسفرت عن انضمام العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة.

وبعد إخفاق الثورة أخذ الضباط المشتركون فيها يهربون إلى سوريا. وحين يصلون إلى المخفر الحدودي المرئي بالعين المجردة من تل كوجك، فإنهم يجتنبونه، ويمرون بسياراتهم على طريق ترابية تمر بإحدى القرى العراقية المرئية بالعين من الأراضي السورية. فاختار قائد الكتيبة، أكرم الصفدي، عشرة عناصر كنت أنا واحداً منهم، لمهاجمة تلك القرية التي تمركزت فيها مجموعة من الشرطة العراقية وراحت تطلق النار على السيارات الفارة من الموصل

والمتجهة صوب تل كوجك السورية. وهاجمنا القرية في رأد الضحى، فما كان من رجال الشرطة إلا أن غادروها بسيارة كانت معهم. أما نحن فبقينا هناك بانتظار الأوامر، ولكن دون أن نطلق النار على السيارة التي مضت بأمان.

وعند العصر تقريباً جاءت طائرتان عراقيتان. ويبدو أن المخفر الحدودي العراقي بلّغ القيادة في بغداد بحركتنا، فحركت القيادة الطائرتين للنهوض بمهمة طردنا من أرضهم. ومن حسن الحظ أن الطائرتين قد راحتا تقصفان بالصواريخ ضيعة عراقية كانت إلى الشمال الشرقي من المخفر، بينما تقع ضيعتنا إلى جنوبه، وعلى مسافة لا تزيد عن كيلو مترين. ورأيت الدخان يتصاعد إلى عنان السماء في تلك القرية العاثرة الحظ. ومن المحتمل أن يكون المخفر نفسه قد أبلغ القيادة في بغداد بأن القرية المطلوبة هي إلى الجنوب من المخفر وليست إلى الشمال. وعند ذاك تحولت الطائرتان إلينا، ولكن بعدما نضبت حمولتهما من الصواريخ أو القذائف المدمرة. فلم يبق سوى رشاشاتهما الثقيلة التي فتحت الجحيم فوق رؤوسنا. وأغارت عليَّ إحدى الطائرتين وأنا منبطح على بطني في أرض سهلية مكشوفة، ورشت رشة غزيرة جداً حفرت خطاً يشبه التلم إلى جانب رأسي تماماً. وعندما اختفت الطائرتان وتوقف الضرب الجحيمي، ظننت أن رفاقي التسعة قتلوا جميعاً، ولكنني فوجئت حينما رأيتهم كلهم سالمين تماماً، إذ لم يكن بيننا أي جريح.

ولبثنا في ذلك المكان، ولكن بلا طعام ولا ماء، فقد رفض الأهالي تزويدنا بأي شيء، بل رفضوا أن يفتحوا أبوابهم طوال ذلك النهار. أما قيادتنا فنسيتنا تماماً، وربما عاملتنا وكأننا جمادات لا تأكل ولا تشرب. وعبثاً دققنا الأبواب وصرخنا طالبين الماء. وفي المساء، أو بعدما انتشر الظلام، أتانا واحد من عناصرنا وبلغنا بأمر الانسحاب والعودة إلى مواقعنا داخل الأراضي السورية. ووصلنا جائعين، ظامئين منهكين، ولكننا وجدنا وجبة شهية بانتظارنا. فأكلنا ونمنا في القطار، إذ كنا مرهقين تعباً، أو ربما بسبب القلق والتوتر. وكان رفاقنا في السلاح يراقبون الطائرتين وهما ترشاننا. وظنوا أننا قتلنا جميعاً، وفوجئوا عندما شاهدونا سالمين تماماً.

وفي ذلك اليوم نفسه وصل ضابط عراقي كبير إلى الحدود بسيارته فاراً من الموصل، فأوقفه رجال الشرطة أمام المخفر الحدودي، وأطلقوا عليه النار فأردي قتيلاً. (أغلب ظني أنه كان برتبة عقيد.) وأرسل قائد كتيبتنا، أكرم الصفدي، الذي يوجهه ضباط سوريون كبار كانوا هناك، أرسل مجموعة صغيرة من العناصر هاجمت المخفر وفقاً لمبدأ الغزارة النارية التي من شأنها أن تمنع العدو من استخدام سلاحه، فأرغمت الشرطة على الاختباء داخل المبنى، واندفعت المجموعة نحو السيارة وأخرجت جثمان الضابط المغدور، ثم انسحبت انسحاباً تكتيكياً. ووصلت إلى تل كوجك سالمة تماماً بعدما أنجزت المهمة بنجاح. ومن هناك نقل الجثمان بسيارة إلى القامشلي، ثم بطائرة إلى دمشق.

وأرسلت قيادتنا عنصرين إلى الموصل بغية استطلاع الأوضاع فيها، ورجعا بعد ليلة واحدة ليؤكدا على أن الثورة قمعت ودحرت، وعلى أن الجيش العراقي مهيمن على المدينة هيمنة تامة. فلا لزوم لإرسال أية قوة إلى تلك المدينة بتاتاً.

وعدنا إلى دمشق بالطائرات، ومنح كل منا إجازة مدتها ثلاثة أيام أو أربعة. وقُيّض لي أن أشهد جنازة ذلك الضابط العراقي نفسه. وقد نسيت اسمه بسبب طول العهد. وكانت الجنازة شديدة الضخامة، بل إنني لم أشاهد لها مثيلاً من قبل. ولعل في الميسور القول بأن الجماهير الغفيرة في دمشق راحت تشيع، لا جثة إنسان، بل جثة الثورة العراقية التي أجهضت أو انطفأت فور شبوبها، أو بعده بزمن يسير. وقد ظن الناس أن نجاح تلك الثورة قد كان كفيلاً بضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة. فإجهاض الثورة كان إجهاضاً لأمل كبير.

* * *

ثم أخذت الشهور تمر متشابهة، أو ذات صباغ واحد. ولم يجر أي حادث ذي بال في بقية تلك السنة سوى أنني تزوجت في الخامس من حزيران. ومما هو جدير بالتدوين أن العرس الذي أقيم لي في مخيم اليرموك من شأنه أن يذكر المرء بأعراسنا في فلسطين، فالحشد كبير جداً، والدبكة حامية عارمة، وعدد الخراف التي ذبحت بلغ اثنين وعشرين خروفاً، لم أشتر منها سوى خروف واحد، أما الباقي فكان هدايا من الناس وفقاً لعاداتنا في فلسطين. وقد سددت تلك الديون كلها فيما بعد. فلا مرية في أن الدنيا قد كانت لاتزال بكراً في تلك الأيام.

* * *

وفي الخريف، سنة 1959، أجريت للكتيبة دورة خاصة في جبال الساحل المجاور لمدينة اللاذقية، ولكن السرايا الثلاث أُخذت كل واحدة منها على حدتها. وخيّمنا عند مصب النهر الكبير الشمالي، أي في مكان قريب من مخيم الرمل الخاص بالفلسطينيين. وكانت تلك الدورة قاسية جداً بسبب ما فيها من تدريب شاق وعسير. وقد برز بين المدربين رقيب من حمص اسمه عبد الله ظاهر. وهذا الرجل واحد من أندر الذين يتقنون الأفعال الخاصة بجنود الصاعقة.

ولم يسبق لي أن رأيت ذلك الصقع الزمردي بتاتاً. وفي الحق أنها بلاد فاتنة تعبّ العين من بهائها وفتونها، ولكن دون ارتواء، ولا سيما مجرى ذلك النهر نفسه حيث كنا نناور، وكذلك قرية كسب وجبل الأقرع وغابة الفرلق التي بتنا فيها ليلة، وضيعة القسطل المطلة على البحر، ومجموعة من الأودية أشهرها وادي قنديل ووادي الموت ووادي جهنم. وما شاهدت أجمل من ذلك الأفق في حياتي سوى بعض الأماكن في جبال لبنان، وكذلك في الريف الإنجليزي اليانع الأنيس.

وإثر عودتي إلى دمشق، رحت أستعد لفحص الشهادة الثانوية. فأحضرت الكتب، وأخذت أطالعها كلما سنحت فرصة للقراءة. واجتذبتني الفلسفة، وهي التي تعرفت عليها لأول مرة في حياتي. وبما أنني كنت أدرس القسم الأدبي، فإن الرياضيات لم تكن إلا مادة هامشية. ثم رحت أتقدم باستقالتي إلى رئاسة الكتيبة المرة تلو المرة، وذلك ابتداء من أوائل سنة 1960،

غير أن تلك الرئاسة قد دأبت على رفض مسلسل الاستقالات باستمرار.

حين انتسبت إلى الكتيبة الثامنة والستين أوهمونا بأننا سوف نقاتل اليهود لنسترد بلادنا السليبة، ولكنني اقتنعت بعد سنتين بأن القتال لن يحدث، وبأن سياسة «ماكو أوامر»، أي «ليست هنالك أوامر بالقتال»، ما زالت على حالها تماماً، بل هي باقية حتى يوم الناس هذا، ثم إنه لا فرق بين نظام عربي تقدمي وآخر رجعي حين يتعلق الأمر باليهود. فالجميع في خدمتهم، وعلى سوية واحدة. ولهذا، فإن الكتيبة الثامنة والستين التي كنت جندياً فيها، نعم جندي كأي جندي في التاريخ، بل إن جميع كتائب العالم بأسره، ما عادت، في نظري، تنطوي على أية قيمة بتاتاً.

ومع أنني لم يكن بيني وبين الجيش أي عقد مهما يك نوعه، فإن القيادة رفضت استقالتي بغير وجه حق. ثم أخذوني في الأول من أيار (1960) مع اثنين آخرين من رجال الكتيبة إلى حرج مسعدة الواقعة إلى الشمال الغربي من مدينة القنيطرة، أي إلى الجبهة. وكان الجنديان الآخران يصران على الاستقالة مثلي. وسكنّا في خيمة مدة شهر كامل. ولم يكن معنا أي سلاح. والطريف أنه كانت هنالك سينما عسكرية في مسعدة، وقد اعتدنا على الذهاب إليها كل مساء. ومن تلك القرية المطلة على سهل الحولة المحتل، كنا نذهب إلى بانياس التي هي في الطرف السفلي لجبل الشيخ، لنسبح في المسبح العسكري.

وفي مسعدة صادفنا الرقيب أحمد هارون، وهو من الميادين. وقد سبق له أن خدم في كتيبتنا مدة يسيرة. ودعانا إلى الغداء في نادي ضباط الصف. كما أنه اعتنى بنا كثيراً وعاملنا معاملة الأخ لإخوته. والحقيقة أن ذلك الشاب قد كان مدرباً ممتازاً لدورات الصاعقة، فضلاً عن أنه ذو عزيمة ومضاء. وقد تدربنا على يديه كثيراً، وأعجبنا به وبرقيب آخر اسمه عبد الله ظاهر.

وكانوا يبلغوننا بين الفينة والأخرى بأن نستعد للدخول إلى فلسطين المحتلة كي نضرب بعض الأهداف العسكرية. ولكننا عدنا إلى المعسكر في حرستا، عند نهاية أيار، دون أن نفعل أي شيء بتاتاً.

* * *

وأخذت إجازة في أوائل حزيران مدتها عشرة أيام، وذهبت إلى البيت لأتفرغ لفحص الشهادة الثانوية. وخفت من الرياضيات مرة أخرى، مع أنها كانت مادة خفيفة جداً لها عشرون علامة فقط، ولكنها مع ذلك ظلت غصة في الحلق لا أستسيغها. وكان لا بد من الحصول على ربع العلامة كي ينجح الطالب. ونجحت بالفعل، ولكنني أرجح أنني نجحت بالمساعدة، أي أنني لم أحصل على خمس علامات في الرياضيات، وربما حصلت على ثلاث أو على أربع فقط. وعندما شاهد المسؤولون علاماتي الأخرى، وأدركوا أنني ناجح في جميع المواد الباقية، ساعدوني بعلامة أو بعلامتين في الرياضيات فنجحت في الشهادة كلها. وانتسبت إلى جامعة دمشق كي أدرس اللغة الإنجليزية وآدابها.

وبحكم طبيعة الحال كان جو الجامعة مختلفاً عن أي جو آخر، فهناك يتصل المرء بأساتذة مثقفين، وكذلك بزملاء من عادة بعضهم أن يتابعوا أخبار الثقافة والسياسة معاً. كما أن

بعض الطلاب كانوا شعراء ويهتمون كثيراً بالصحف الثقافية، ولا سيما مجلة "الآداب" البيروتية، ويعرفون الشعر الحديث ومنتجات رواده، وخاصة السيّاب الذي كانت له شعبية واسعة بين المثقفين في تلك الأيام. وفي الجامعة التقيت بالشاعر الفلسطيني فواز عيد، وهو من ظل صديقاً لي حتى وافته المنية في كانون الثاني سنة 1999.

وفضلاً عن ذلك، فإنني صرت ألتقي في الجامعة ببعض الفتيات المختلفات شكلاً ومضموناً عن فتيات المخيم اللاتي تجتاح الأمية غالبيتهن العظمى يومئذ، ويطحن الفقر أسرهن طحناً. فالطالبات في الجامعة، وهن من كنا نجالسهن ونتحدث إليهن في الندوة، ينتمين إلى أسر متوسطة الحال في الغالب الأعم. ومما هو معلوم أن النساء العصريات في تلك الأيام، لا وجود لهن في الطبقات الدنيا، إلا على ندرة وحسب.

ولقد شعرت بالاستهجان كثيراً حين طالعني قول كيركجور، الفيلسوف الدانماركي المعروف: «إن الآنسات لا تبهجنني.» ففي مذهبي أن من لا تبهجه الآنسات لن يبهجه أي شيء مهما يك نوعه، بل هو كائن صميمه ميت، حتى وإن تبدى ظاهره حياً ومشرقاً ويمارس الفعل والانفعال.

وعلى أية حال، مر العام الدراسي الأول في جامعة دمشق، وفي حزيران سنة 1961 تقدمت للفحص ونجحت. وتصرمت بقية الصيف وأنا أحاول أن أكتب الشعر باللغة العربية، ولكن شعري لم يرق لي بتاتاً، لأنه لم يرتفع إلى مستوى شعر المتنبي والمعري وابن الفارض، ومن هم في مرتبتهم من الشعراء. وفي أوائل أيلول جاء أمر بتسريحي ومعي ثلاثة آخرون. وينص ذلك الأمر على أن يبدأ انفكاكنا من الخدمة في الأول من تشرين الأول.

*　　　*　　　*

بينما كنت أستعد للتخلص من التجربة العسكرية، فوجئ العالم العربي بحادث لم يكن في الحسبان. لقد استنفرت جميع القوى العسكرية في سوريا، منذ أواسط أيلول تقريباً. وأشيع بأن انقلاباً عسكرياً سوف يجري عما قريب، وأن عبد الحميد السراج هو من يترأس ذلك الانقلاب. (كانت للسراج مكانة رفيعة عند عبد الناصر.)

وبالفعل فوجئنا قبل فجر الثامن والعشرين من ذلك الشهر نفسه بأن معسكرنا مطوق. وبينما كنا نائمين في أسرّتنا، راح الرصاص يئز ويخترق جدران مهاجعنا المصنوعة من ألواح الزنك. وهرعنا إلى مستودع السلاح، وتناول كل منا بندقيته الروسية الصنع وذخيرته، وركض كل منا إلى خندق من الخنادق المحيطة بالمعسكر داخل الشريط الشائك العريض، أو ذي الأسلاك الكثيرة جداً. وأخذنا نطلق النار باتجاه الجنود الذين يحيطون بنا من كل صوب.

ووصل عند أذان الفجر رجل برتبة مساعد، زحف على رجليه ويديه حتى بلغ إلى الشريط الشائك تقريباً، واقترح على أحد الضباط المصريين أن يوقف الطرفان النار. فقال الضابط المصري: أنا النقيب أبو طالب، آمرك بأن تسحب قواتك من حول المعسكر، وإلا فإنك سوف تمثل أمام محكمة عسكرية في الصباح. فرد المساعد قائلاً: إن لدينا أوامر بتدمير

المعسكر كله، ولهذا فإن وقف النار سوف يكون لصالحكم أكثر مما هو لصالحنا. وبالفعل توقفت النيران كلياً وساد هدوء شامل. لم نخسر جريحاً واحداً، ولكن معظم الجنود الذين اقتربوا من سياج معسكرنا قتلوا أو جرحوا، وذلك لأن الطرف المهاجم يخسر أكثر مما يخسر الطرف المدافع.

وبعد ذلك بقليل سمعنا صوت الرصاص يتصادى آتياً من جهة الغرب، أي من جهة دمشق، وكنت في الخندق من الجهة الجنوبية الغربية إلى جوار قائد سريتنا الثالثة، الآنف الذكر نفسه، وهو من كان يتعاطى المخدرات ويظهر عليه ذلك بوضوح تام. وعندما سمع صوت الرصاص في دمشق سألني: ماذا يجري الآن، يا يوسف؟ فقلت: إنه انقلاب عسكري، وأغلب الظن أن صداماً دموياً يدور الآن حول مبنى الأركان في ساحة الأمويين. فقال الضابط المصري: وكيف عرفت ذلك؟ فقلت: هذه هي طبيعة سوريا المشهورة بانقلاباتها العسكرية منذ أيام حسني الزعيم سنة 1949، وهذا هو التفسير المنطقي لما يجري الآن، أو لما ترى وما تسمع، أيها السيد النقيب. ثم إن خبر هذا الانقلاب الراهن قد انتشر في دمشق منذ أوائل الشهر الجاري وسمع به القاصي والداني، وها هو ذا يتحقق تماماً كما قالت الإشاعة. وعندئذ طرح علي النقيب هذا السؤال التحشيشي: ألست مشتركاً مع هؤلاء الذين يصنعون هذا الانقلاب نفسه؟ فكيف عرفت ما يجري لو لم تكن واحداً من هؤلاء الانقلابيين؟ وعند ذلك قلت: لو كنت منهم لما أطلقت النار عليهم معك. وهذا فعل جرى للتو، ولقد رأيته بأم عينك.

يا إلهي ما أغبى طريقة ذلك المأفون في الاستنتاج. ولقد ندمت لأنني لم أتهرب من الإجابة عن أسئلته البليدة. وكان يجلس إلى يميني رفيق في السلاح من عشيرة الصبيح اسمه حسن رشدان، وهو شاب متميز بطيبته وجودته، وكذلك بقدرته الممتازة على الرمي. وعندما غادرنا الخندق، بعد ساعة أو أكثر بقليل، همس ذلك الشاب في أذني قائلاً: سوف يؤذيك هذا الغبي البليد، فاحترس.

وقد ثبت فيما بعد أن صداماً صغيراً قد جرى بين المهاجمين وبين حراس المبنى. وقد أسفر عن مقتل جندي واحد فقط. وهكذا انفصلت سوريا عن مصر دون أن يخسر أنصار الوحدة سوى رجل واحد وحسب. فالرأي الذي أبديته للنقيب المصري، والمتعلق بالصدام عند الأركان، قد كان رأياً صحيحاً تماماً. ولكن ذلك الرأي لا يحتاج إلى أية عبقرية بغية البلوغ إليه.

وحين أشرقت الشمس رأينا قوة مدرعة صغيرة تحيط بنا، ورأينا عدة مدافع منصوبة فوق التلال القريبة من المعسكر. كما أن عدداً كبيراً من جنود الهجانة المختصين بحماية البادية كانوا في عداد تلك القوة. وكانت هنالك كتيبة مشاة كبيرة جداً ترابط في البساتين المجاورة لمعسكرنا من جهته الجنوبية. وهذا يعني أننا خطيرون جداً في نظرهم. ألسنا موالين للوحدة العربية ولاء لا يتغير ولا يهتز؟ أليست الوحدة العربية هي الخطر الأكبر على الغيتو الصهيوني، وكذلك على مصالح الغربيين الذين ينهبون ثروات العرب ولا يعطونهم من الجمل سوى أذنه، كما يقول أحد أمثالنا الشعبية؟

وركضنا إلى المذياع لندرك ما يجري. وسمعنا إذاعة صوت العرب من القاهرة زهاء

الساعة السابعة. وأعلنت تلك الإذاعة أن الرئيس عبد الناصر سوف يلقي خطاباً بعد هنيهة وجيزة. وبالفعل خطب الرئيس، وقال بأن شرذمة صغيرة من الجنود الضالين قد تمردت في دمشق، ولكنها سوف تتعرض لعقاب شديد. وانتظرنا العقاب، ولكنه لم يأت قط. فالكتيبة المصرية التي هبطت بالمظلات بجوار اللاذقية، والتي كان يقودها ضابط مشهور اسمه جلال الهريدي، وهو من أخذ المرتبة الأولى في الدورة العالمية لقوات الصاعقة في الولايات المتحدة ـ إن تلك الكتيبة قد استسلمت فور بلوغها إلى الأرض ودون أية مقاومة.

وعند الساعة العاشرة تقريباً دخل إلى المعسكر مقدم اسمه حيدر الكزبري، وهو قائد كتائب الهجانة. دخل في مصفحة سريعة الحركة من طراز (ب. ت. ر.) لم يكن فيها أحد بالإضافة إليه سوى السائق. ورأيته وهو وراء رشاش المصفحة كله عزيمة ومضاء. وطلب قائد الكتيبة، ولكن ذلك القائد كان في مصر حينذاك. فجاء إليه مساعده الذي لم يكن قد خرج من مكتبه بتاتاً حتى تلك الساعة. كان اسمه حسن غازي، وهو شاب وسيم جداً، جاء من كتيبة المظليين، وأظنه من مدينة حمص، إن لم يكن من حلب. وعند ذاك طلب المقدم من حسن غازي أن يسلمه جميع الضباط المصريين الذين في المعسكر. ولا زلت أذكر النقيب وهو جامد في مكانه أمام الكزبري. وفي غضون عشر دقائق جيء بالمصريين كلهم إلى المقدم وجاءت سيارة عسكرية من داخل معسكرنا، وأخذتهم إلى جهة لا أعرفها.

وبعد ذلك بساعة أو اثنتين، دخل ضابط آخر برتبة نقيب اسمه أحمد راتب مرزوق. وأمر الضباط وضباط الصف أن يجمعوا الكتيبة فاجتمعت وقرأ علينا ذلك الرجل الطارئ أمراً صادراً عن الأركان ينص على تنصيبه قائداً للكتيبة الثامنة والستين. ثم ألقى علينا خطاباً شفوياً باللهجة العامية فحواه أننا نحن الفلسطينيين لا نتدخل في الشؤون الداخلية لإخواننا العرب (وهو الآن يتكلم بوصفه فلسطينياً، مع أنه ليس كذلك. لم يبق انتهازي إلا وتاجرَ بالقضية الفلسطينية، قضية الدم المراق والتشرد والجوع والبرد والإهانات، وجميع أصناف المكابدة) وأضاف بأنه أقنع الكتائب التي تحاصرنا بأن لا توجه مدفعيتها إلى معسكرنا، لأننا نحن الفلسطينيين لا نقاتل إخواننا العرب، بل نقاتل اليهود وأنصار اليهود. وبالفعل ما عادت المدافع موجهة باتجاه معسكرنا، ولكن إعادة تسديدها نحو رؤوسنا هو أمر في منتهى اليسر والسهولة. وأضاف بأن القوة التي تحاصرنا قد وعدته بأنها سوف تدعمنا إذا ما ذهبنا إلى الجبهة لنقاتل اليهود الذين استغلوا الاضطراب الجاري في سوريا، فحشدوا جيشهم على الحدود ابتغاء الاستيلاء على مواقع إخواننا السوريين. ولهذا، فإن من واجبنا أن نذهب لنقاتلهم في سبيل تحرير أرضنا التي اغتصبوها عام النكبة. فلنضع أسلحتنا في مستودع السلاح، ولنصعد إلى السيارات التي سوف تقلّنا إلى الجبهة. وهناك سوف نجد أسلحة أفضل من أسلحتنا هذه.

لم تكن اللعبة خافية على أحد قط، فالمطلوب أن نسلم أسلحتنا لنصير قططاً بغير براثن، وأن نسافر إلى مكان بعيد عن دمشق التي هي بؤرة التوتر كله. وعند ذاك بدأت الهمهمة تسري بين الرجال. ولقد سألني الكثيرون في تلك اللحظة المكروبة عما يجب أن نفعل، وذلك بوصفي الطالب الجامعي الوحيد في الكتيبة كلها. وكان جوابي بأن الأفضل أن نسلّم أسلحتنا، لا لأننا سوف نباد حتماً، ودوننا جداء، ولكن لأن مهمة الدفاع عن الوحدة العربية لا تقع على

كاهل كتيبة صغيرة من الفلسطينيين، بل على كاهل الجيش السوري بالدرجة الأولى. ثم إننا بغير قيادة فالضباط السوريون أذعنوا لمرزوق الذي استولى على الكتيبة بكل يسر. والضباط المصريون لم يستغلوا الظلام للانقضاض بالكتيبة على الأركان ابتغاء الاستيلاء عليها والدفاع عنها ريثما تصل قوات ضخمة من مصر، أو من مكان ما في سوريا، كي تتولى مهمة الدفاع عن جمهورية العرب التي عولنا عليها كثيراً، بل أكثر مما يبيح العقل.

والذي فاتني يومئذ أنه لم تكن هنالك وحدة عربية قط، وأن قيام الجمهورية العربية المتحدة هو حدث شكلي ومؤقت، وله هدف سوف يتبدى ناصعاً إثر مناوشة حزيران المريبة. ولا ريب في أن الكبار يعرفون هذه الحقيقة كما يعرفون أسماءهم أو أطفالهم.

وصعد رجال الكتيبة إلى السيارات بعد تسليم السلاح. وجاء أمر بأن نبقى نحن الأربعة المسرّحين في المعسكر. فقد سلمنا عتادنا كله لمستودع الكتيبة، ولبسنا اللباس المدني قبل ليلة الانفصال. ورحلت الكتيبة، وبقينا بانتظار ما سوف يأتي من أوامر. وقبل الغروب دخلت إلى المعسكر قطعة مشاة كبيرة جداً، وأول عمل قامت به أنها أنزلت العلمين عن السارية، علم الجمهورية العربية المتحدة وعلم فلسطين الذي كانت في وسطه صورة لمسجد الصخرة. ثم رفعوا العلم السوري الذي كان معتمداً في سالف الأيام، أعني قبل الوحدة، وأدوا له التحية العسكرية، حينما راحت الموسيقى تعزف النشيد الوطني السوري الذي لم يعد يسمع منذ بداية الوحدة في شباط سنة 1958. وهكذا انفصلت سوريا عن مصر، هذا إن كانت سوريا اتحدت مع مصر فعلاً لا شكلاً.

وحينما رأيتهم ينزلون علم فلسطين عن السارية، ولا يحترمون صورة الصخرة التي في وسطه، أدركت لماذا خدعتنا وخذلتنا هذه الأعاريب المنتشرة بين المحيط والخليج. فنحن أعداء اليهود الدائمون، ومن عادى اليهود عادته البشرية بأسرها. ولكن اليهود - عند العاقل - هم قيوح التاريخ وعفونته وأقذاره، ومع ذلك فإن الجنس البشري برمته في خدمتهم على الدوام. فأية مفارقة هي هذه المفارقة المذهلة التي تعيشها الأزمنة الحديثة؟ ماذا؟ هل أغمي على البشرية بقضها وقضيضها حتى تمكن اليهود المزورون الذابلون من البلوغ إلى هذا المبلغ العجيب؟ أو يعقل أن توضع هذه الحيوية كلها في خدمة هذا الاصفرار والشحوب؟

وبقي معنا من كتيبتنا رجل برتبة مساعد اسمه علي الدحداح، وعمره زهاء أربعين سنة. وهو من ضيعة اسمها القريتين، وموقعها في البادية إلى الشمال الشرقي من الضمير. وقد حذرنا الرجل من الجنود الذين كان دمهم يغلي لأننا قتلنا عدداً منهم أثناء هجومهم على المعسكر في الليل. وأكد لنا بأنهم قد بلّغوه هذا الخبر الذي يفسّر حقدهم على رايتنا التي أهانوها وابتذلوها أيما ابتذال. وأوصانا المساعد بأن نظهر بمظهر عمال التنظيفات، وأن نقول بأننا عمال، إذا ما سألنا أحد عن سبب وجودنا في ذلك المكان. وأمرنا بأن ننتقل من الطرف الشرقي للمهجع إلى طرفه الغربي، لأن من شأن هذه النقلة أن تجعلنا بعيدين قليلاً عن عيون الجنود. كما أنه أمرنا بأن لا نخرج من المهجع إلا إلى الكنيف وحسب.

وصار المساعد يأتينا مرتين كل يوم، مرة في الصباح ومرة في المساء، ويأخذني وحدي إلى الندوة لأشتري للجميع قوتهم الذي لابد منه، مع أن تلك الندوة لم يكن فيها من طعام

سوى السندويش. وكنا أنا والمساعد نمرّ من بين الجنود الذين يملأون أرض المعسكر وينامون في العراء دون فراش. إنهم كثيرون، بل كثيرون جداً. وكثرتهم لها دلالة مؤداها أن قيادة الانفصال كانت تتخوف إلى حد الهلع من كتيبتنا الموالية أيما ولاء للرئيس جمال عبد الناصر.

وبقينا في المعسكر حتى صباح الثاني من تشرين الأول. وحملتنا سيارة عسكرية كبيرة من المعسكر إلى ساحة باب المصلى، حيث نزلت وأخذت الباص إلى المخيم. ولكنني شاهدت عدداً لا يحصى من الآليات العسكرية، ولا سيما الدروع، مصفوفة من حرستا حتى ما بعد الساحة الآنفة الذكر باتجاه الغرب. وهناك من أخبرني بأن الآليات مصفوفة حتى ساحة الأمويين، حيث الأركان والإذاعة والتلفزيون. لقد كان انقلاباً عسكرياً فصل سوريا عن مصر، وأنزل بالناس أول إحباط في سلسلة الإحباطات التي لم تنته حتى اليوم. فكيف قال عبد الناصر بأن الانفصاليين زمرة صغيرة من الضالين والمارقين عن جادة الصواب؟

وفي صلب الحق أن نظام الوحدة ما كان إلا نظاماً مستبداً لا يؤسف عليه. فقد ألغى جميع السمات الإيجابية التي تركها الفرنسيون في سوريا، ولا سيما حكم البرلمان وحرية الصحافة وتعدد الأحزاب الذي ألغي ليحل محله حزب السلطة وحده، وهو ما سمي باسم الاتحاد الاشتراكي، الذي فتح الباب واسعاً أمام الانتهازية والتدجيل. ومع ذلك، فإن الناس ما أحبوا رجلاً بقدر ما أحبوا جمال عبد الناصر، رئيس الجمهورية العربية المتحدة.

وإثر قيام الوحدة بين سوريا ومصر، أخذت الصحف والكتب المصرية بالتدفق على دمشق بكميات كبيرة جداً. وانتشرت روايات نجيب محفوظ، وكذلك مسرحيات توفيق الحكيم. وطالعت الكثير من تلك الكتب، ولكن لم يسحرني أي من كتّابها قط، أو لم يجذبني كما جذبني جبران قبل ذلك الزمن ببضع سنوات.

بيد أنني أعجبت بيوسف إدريس، ولا سيما حين قرأت له قصة عنوانها "النداّهة". وبرهن خلال عقد الستينيات على أنه قاص متميز أو متفرد، ولا يضاهيه في العالم كله سوى نفر من كبار القاصين على رأسهم تشيخوف.

* * *

عادت عليّ تجربتي في الكتيبة الثامنة والستين بالكثير من المزايا الإيجابية، فقد أسهمت أيما إسهام في تعميق شخصيتي، وإغنائها وترصينها وجعلها ميالة إلى كل ما هو جدي، بل إلى كل ما هو نبيل وأصيل. كما أسهمت في تخصيب ذهني وجعله أكثر قدرة على الإدراك والتمثل. فالعلم العسكري له مزية كبرى خلاصتها الاهتمام بما هو واقع، وكذلك رؤيته كما هو تماماً، لأن تعكيره بواسطة الإضفاء ليس في صالح المقاتلين. وهذا يعني أن عليك أن تكون حاضراً، بل شديد الحضور. ثم إنه يعلمك الحاجة إلى التوقع، ولا سيما إلى توقع أسوأ الاحتمالات. فلئن كنت من الحاضرين الناجين من داء الغياب استطعت أن تتوقع من أين سيهجم العدو، وأين وضع كمائنه، وكيف تتحرك دورياته، وذلك نتيجة لتقريك الأرض وتضاريسها وطبيعتها. ففي الصراع ليس أمامك سوى واحد من أمرين، إما أن تفترس العدو

وإما أن يفترسك. وهذا يعني أن يكون عالمك الداخلي مستنفراً ومحشوداً ومتحفزاً على الدوام. وههنا يتبدى ناموس التحدي والاستجابة بكامل نصوعه. إن عليك، وأنت أمام الخطر، أن تستنفر جميع ما في صميم بنيتك الباطنية من طاقة، أو من غرائز نفسية، ولا سيما التذهن والتفطن والحدس، وأن يتم ذلك على نحو فوري وتلقائي، وإلا فإنك سوف تصير فريسة للأقوى. وحين تتأهب استطاعتك الباطنية الفطرية إلى هذا المستوى الكلي، فإنك تكون قد أتيت من عمقك الذي ما بعده أي عمق بتاتاً.

وفضلاً عن ذلك، فإن جسدي، حتى جسدي، قد نال نصيباً من الجدوى جرّاء تلك التجربة العسكرية الخصيبة، إذ صار رشيقاً وخفيف الحركة، وسريعاً في المشي، ومنتصباً كالرمح، مع أنه هش كالقش فعلاً. وصار السير في الجبال سهلاً عليّ كالمشي في الشوارع، وهي التي لم تكن مزدحمة في تلك الأيام. فبالتأكيد كنا نسير عشرات الكيلومترات بين الجبال وفي ظلام الليل البهيم، ونحن نحمل عتادنا الحربي الكامل. وفضلاً عن المشي كنا نقفز عن أبراج ارتفاعها ستة عشر متراً، على شبكة تحتها حفرة واسعة. وبداهة، لابد لهذا التدريب القاسي من أن يغير النفس والجسم معاً نحو الأفضل، أو من أن يخلق شخصية تثق بنفسها كثيراً.

وقد أعجبت بالنقيب أكرم الصفدي الذي أعجب الجميع، والذي إذا تعرفت عليه فلن تنساه بتاتاً. إنه يصلح أن يكون قائداً شعبياً، أو زعيماً تاريخياً، لو أن هذا العصر الراهن يسمح لذوي المواهب بالبروز. أو قل إن هذا هو الانطباع الذي تركه في ذاكرتي يوم كنت لا أزال فجاً لم أنضج بعد. فمن مثالب عصرنا أنه يطفئ الأصالة ويشعل النذالة، أو نزعة الانتهاز والتحصيل بغير جهد، مع أن أولى فضائل الإنسان هي بذل الجهد، وفقاً لما ذهبت إليه الفلسفة الرواقية العظيمة.

كما أعجبت بالمعرفة الاستثنائية التي يحوزها الهيثم الأيوبي في مضمار العلوم العسكرية. فقد أعد الكتيبة، التي هي قطعة مشاة، لتجابه لواءً مدرعاً وتهزمه. وفضلاً عن ذلك فإن الرجل يتميز بإرادة وعزيمة ومضاء. ولا غلو إذا ما زعمت بأنه مصنوع من الصلادة نفسها، أو هكذا تراءى لي في تلك الأيام. فلا عجب إذا ما حاول المرء أن يتقمص تلك الشخصية أو أن يستلهمها، فمن عادة الناس أن يتمثلوا سمات الأقوياء وأن يتخذوهم قدوة في كل مكان وزمان.

ولكن الأكثر أهمية والأجلّ قيمة من ذلك كله هو أن الكتيبة نفسها لا تقل عن كونها ذخراً ومفخرة للشعب الفلسطيني الأصيل. فلو كانت الأنظمة العربية جادة في مواجهة العدو الصهيوني الغاصب، لأبدت الكتيبة من الأفعال ما يملك أن يصنع شرفاً للأمة العربية كلها. فهي تجسيد لروح التضحية ونازع الإباء، بكل تأكيد. كما أنها أُعدت إعداداً عسكرياً لا يبذه إعداد في أي جيش من جيوش العالم كله. ولهذا بالضبط اعتاد أكرم الصفدي أن يقول بأنه يستطيع أن يسترد محافظة الجليل (الطرف الشمالي من فلسطين) بهذه الكتيبة وحدها.

إذن، كان من فادح الخطأ أن يصار إلى حل الكتيبة سنة 1963. وبدلاً من حلها، كان ينبغي أن تضاف إليها كتائب كثيرة مثلها، لو كانت الحكومات مخلصة حقاً لفلسطين، وعازمة

على استردادها من الاغتصاب، بل حتى لو أرادت أن تسترجع جزءاً منها دون التعرض لهذه الإهانات والإحباطات التي تعرضت لها الأمة العربية منذ مناوشة حزيران وحتى يوم الناس هذا.

وبما أن الكتيبة قطرة ضوء في تاريخ الشعب الفلسطيني، صار لابد من أن يتطوع أحد الناس ليكتب تاريخها، مع أنها لم تعش سوى تسع سنوات فقط، ولكنها فترة غنية وخصيبة حقاً. وإذا ما قُيّض لهذا التاريخ أن يُكتب، فإن من الواجب أن تذكر بالتفصيل أخبار شهداء الكتيبة من أمثال محمود عزيمة ومفلح السالم وعلي الخربوش ورفيق عساف وسواهم ممن ينبغي أن تكتب أسماؤهم بالنور في سجل الخالدين.

لقد جاءت الكتيبة الثامنة والستون بمثابة إنجاز أصلي لعصر كانت الدنيا فيه ما تزال تحتفظ بالكثير من بكارتها وطهارتها وينعها وأصالة أخلاقها. إنه عصر الندرة التي من شأنها أن تنتج رجالاً أشداء، كلهم رصانة وعزيمة، ونفوسهم الناجية من كل اعتلال تأبى الوهن وتستنكر الاستخذاء. وهذا شأن يعجز عن إنجازه الطور الراهن الرخو، طور الاستهلاك وتوثين البضائع. فلكم كان ابن خلدون صادقاً حين بيّن ما فحواه أن الإنسان يتفسخ في الترف والاسترخاء.

الفصل الرابع

المدرسة

عدت إلى الحياة المدنية، ولكنني عدت معها إلى الفقر من جديد. فما من عمل وما من دخل. وأخذت أستدين فتات النقود من هذا وذاك. غير أنني تفرغت لحضور المحاضرات في الجامعة. وفوجئت بعد شهر واحد فقط بأنني مطلوب للخدمة الإلزامية التي يسمونها خدمة العلم. عن أي علم يتحدثون؟ فأنا أومن بأن جميع الرايات ينبغي تنكيسها، بل إزالتها من الوجود لأنها تسهم في صنع الشقاء على الأرض.

وبالفعل ساقوني إلى كلية ضباط الاحتياط في حلب (وهي التي صارت مدرسة المدفعية فيما بعد)، وذلك في الخامس من كانون الأول سنة 1961. وكانت الحياة شديدة القسوة في ذلك المكان، فهم يقتلعوننا اقتلاعاً من فراشنا في الساعة السادسة والنصف كل صباح كي نظل نتحرك حتى التاسعة مساءً. ومن سوء الحظ أن البرد كان شرساً فتاكاً هناك. ولهذا، بل لأنني لم أعد أومن بالسياسة ورجالها، فقد طلبت تأجيلي لمدة سنة بسبب وضعي الصحي الذي لم يكن على ما يرام، فحوّلوني إلى لجنة طبية في المشفى العسكري الذي كان في أطراف مدينة حلب. ولكن اللجنة ما فحصتني قط، بل اكتفت بسؤال واحد وجهته إلي: من أين أنت؟ فقلت: من فلسطين. فقالوا لي: عد إلى الكلية.

وبعد ثلاثة أيام جاء كتاب نتج عنه إطلاق سراحي لمدة سنة كاملة. ويبدو أن حكومة الانفصال ما كانت تريد الفلسطينيين، وذلك لأنهم موالون أيما ولاء لمصر ولعبد الناصر وللوحدة العربية.

وفي مساء الرابع والعشرين من كانون الأول غادرت الكلية، ونمت ليلة في أحد فنادق حلب الرخيصة، ثم سافرت في اليوم التالي، أي في عيد الميلاد، إلى دمشق. وهكذا رجعت إلى الجامعة من جديد. ولكنني كنت مفلساً بحيث لا أكاد أن أجد في جيبي ليرة واحدة.

وعلى أية حال، فقد تحسن وضعي المالي ابتداء من أوائل شباط (1962)، إذ دفع لي الجيش كتعويض عن خدمتي في الكتيبة الثامنة والستين مبلغاً مقداره أربع مائة وخمسون ليرة، أي راتب شهر عن كل سنة من سنوات الخدمة. ولكن هذا المبلغ هو تعويض عن ثلاث سنوات فقط، ولا أدري لماذا سكتوا عن السنة الرابعة.

وفي أواخر شباط نفسه حصلت على وظيفة معلم مياوم مع الأونروا في قرية المزيريب الواقعة على ضفة بحيرة جميلة إلى الغرب من درعا. فكنت أتقاضى أجراً عن كل يوم عمل، وإذا لم أشتغل فلا اجر لي، أياً كان السبب. أما أجري فهو اثنتي عشرة ليرة يومياً. وهذا أجر جيد جداً في تلك الأيام. وبعد شهرين نقلت إلى درعا نفسها، وهي التي لم تكن سوى قرية كبيرة، أي ليس فيها من سمات المدينة شيء. وبقيت هنالك حتى إغلاق المدارس في أواخر حزيران، إذ تأخر إغلاقها شهراً كاملاً، وذلك أن الدوام قد اضطرب كثيراً بسبب المظاهرات والاضطرابات الكثيرة في تلك السنة، وهي التي كانت تطالب بعودة الوحدة بين سوريا ومصر.

*　　　　*　　　　*

وهنالك حادثتان جديرتان بالتسجيل في هذا المقام. أما الأولى فخلاصتها أن قوة كبيرة من الجيش الصهيوني قد عبرت نهر الأردن قرب جسر بنات يعقوب وذلك في أوائل نيسان من تلك السنة (1962)، وهاجمت مواقع الجيش السوري في القطاع الأوسط من الجبهة، وهو المتمركز في ضيعة اسمها العلّيقة الشديدة القرب من الجسر إياه. ومما يجب تدوينه أن الجيش السوري قد كان متفوقاً على جيش الصهاينة منذ عام النكبة وحتى تلك السنة.

وجرى صدام كبير ليلاً أسفر عن هزيمة لحقت بالصهاينة، فولوا الأدبار مخلفين أسلحة كثيرة وراءهم. ومن شأن هذه الحقيقة أن تؤكد ما فحواه أن الخلل ليس في البنية العسكرية، وإنما هو في البنية السياسية أولاً. وبرهن العدو لأول مرة أنه قادر على إنارة سماء المعركة حتى لكأن القتال يجري نهاراً وليس ليلاً.

وفي اليوم التالي اصطدم الطيران السوري بطيران الصهاينة، وأسفر الصدام عن سقوط عدة طائرات معادية، بينما لم تسقط سوى طائرة سورية واحدة غاصت هي وطيارها في بحيرة طبريا. فلم تستطع طائرة المستير البريطانية المتخلفة أن تصمد أمام طائرة الميغ الروسية الحديثة جداً. ولهذا اشترى الصهاينة صفقة الميراج الفرنسية الصنع، وبعدئذ لم تعد طائرة الميغ (17 و19) قادرة على الصمود. وبهذه الصفقة الجديدة خاض الصهاينة مناوشة حزيران التي أُخرجت بفجاجة ما بعدها فجاجة. وأهم ما في الأمر أن من فادح الخطأ الظن بأن طائرة الميراج هي التي منحت الصهاينة نصر حزيران الزائف، لأنهم ما نالوا ذلك النصر إلا بواسطة قوى مستترة من عادتها أن تتحكم بالعالم العربي كله.

ولا أذكر ما إذا كانت المدفعية السورية قد رمت في ذلك الصدام أم لا. ومما هو معلوم أن تلك المدفعية كانت ترمي على نحو متميز بين سنة 1948 وسنة 1967.وربما كان سبب تميزها أنها وريثة لتقاليد المدفعية الفرنسية التي أحرزت انتصارات نابليون الكبيرة.

ولعل مما صار ناصعاً تماماً فيما بعد أن تلك الإغارة ما كانت إلا بمثابة تدريب لجيش العدو على احتلال الجولان الخصيب الماطر، وذي المياه الغزيرة، والذي يصلح للدفاع المبكر عن الغيتو الصهوني الهش، لأن قدره العلمي أن يكون قميئاً، أي ضئيلاً وطفيف الشأن. وفضلاً عن ذلك، فإن تلك الإغارة الشديدة الدلالة هي اختبار لقدرة الجيش السوري على الصمود، فأقنعهم بأنهم ليسوا كفؤاً له، على الرغم من أن حكومة الانفصال قد سرحت الكثير من أجود الضباط. إذن، لم يعد أمامهم إلا أن يفكروا بطريقة ليست حربية للاستيلاء على الجولان.

ونقل الجيش السوري جثث الشهداء بالقطار من الحمة إلى دمشق، وذلك بعد نقلها من القطاع الأوسط إلى القطاع الجنوبي بالسيارات. وعندما وصل القطار إلى درعا فتح الجنود المرافقون أبواب العربات وسمحوا للمواطنين بمشاهدة الجثث التي كان عددها مائة وستين. وقد تعمدت حكومة الانفصال المكروهة من الشعب أن تفعل ذلك ابتغاء إقناع الناس بأنها حكومة مخلصة للوطن، على نقيض الإشاعات التي روّجها بعض المغرضين. أما دبابات الصهاينة التي خلفوها وراءهم، على الرغم من تميزهم في إخلاء أرض المعركة، فقد

عرضت في ساحة المرجة وللغرض نفسه.

وتتلخص الحادثة الثانية في أن خالد العظم، رئيس وزراء سوريا في ذلك الربيع المضطرب، قد جاء إلى درعا وألقى في الناس خطاباً من شرفة السرايا. وكانت أعداد غفيرة من الطلاب محتشدين في الساحة المجاورة. وفجأة امتدت الأيدي إلى صناديق البندورة الآتية من المزيريب، وأخذت تقذف الرجل بمحتوياتها. وراح الجميع يصرخون بأنهم يريدون الوحدة مع مصر. وكانت هنالك في درعا كتيبة من الفرسان أو الخيالة المسلحين بالسيوف، فما كان إلا أن تحركت تلك الكتيبة برشاقة وأخذت تجلد الناس بالسياط. كما تحركت سيارات الأمن والشرطة وراحت تعتقل كل من كان عاثر الحظ.

أما رئيس الوزراء فقد غادر المكان باتجاه العاصمة قبل أن يتم خطابه. وفي الطريق مر بمحطة محروقات، وهنالك تناول الهاتف واتصل بمحافظ درعا، وأبلغه بوجوب إطلاق سراح جميع المعتقلين. وأشيع أن المحافظ قال لكبير الوزراء: لقد ضربوك بالبندورة. فأجاب: أريد شعباً يضرب رئيسه بالبندورة. ومما هو معلوم أن الانفصال قد أعاد الحياة الديموقراطية التي كانت سائدة قبل الوحدة. وصار في ميسور الأحزاب أن تنشط جهرة. وقد راح بعضها يشرح الاشتراكية وكأنها ترياق لجميع الشرور النازلة بهذا العالم البائس المسكين.

ويوم كنت معلماً في درعا ولد ابني وليد في شهر أيار، فأصبحت والداً لأول مرة في حياتي. ومما هو مألوف أن المرء يفرح كثيراً حين ينجب طفلاً، ولا سيما حين ينجب الطفل الأول. ولكن ينبغي على العاقل أن يتحسس وجوده وأن يفحصه بدقة وشمول. فهل يجوز لمن نجا من الضحالة والابتسار، بل حتى من الغيبوبة أو الإغماء، أن ينجب أطفالاً في هذا العالم القاحل والراضخ لهيمنة اللؤم والنذالة والإرهاب الأورو- أمريكي؟

وتقدمت إلى الفحص في تموز هذه المرة، فنجحت وترفعت إلى الصف الثالث. وبعد الفحص سافرت بصحبة اثنين من أصدقائي إلى الساحل. وقد رجعا قبل أن نصل إلى اللاذقية، أما أنا فتابعت السفر إلى كسب وغابة الفرلق وضيعة القسطل الجميلة، حيث كنا نناور قبل ذلك بثلاثة أعوام. وفكرت بارتقاء جبل الأقرع، ولكنني منعت نفسي من ذلك الفعل لأنه يحتاج إلى رفيق درب. ولهذا، عدت إلى دمشق دون أن تتاح لي فرصة التمتع بأي مشهد من الأعلى. وكانت مدة غيابي أسبوعين، تمتعت فيهما بالاستجمام والتحرك الحر ورؤية البحر والمشاهد الطبيعية الخلابة والشديدة القدرة على إنعاش النفس.

* * *

وفي أواخر أيلول سنة (1962)، صدر قرار عن رئاسة الأونروا في دمشق بتعييني معلماً في مدرسة مخيم الرمل المجاور لمدينة اللاذقية. فسافرت إلى تلك المدينة، والتحقت بالمدرسة صبيحة الرابع من تشرين الأول، وصرت معلماً ذا منصب دائم هذه المرة، وهو المنصب الذي احتفظت به طوال السنوات الثلاثين اللاحقة. وكنت أعلّم الصف الرابع

الابتدائي، فتلك السنة هي العام الدراسي الوحيد الذي أمضيته في مدرسة ابتدائية.

ولعل أهم ما في الأمر أن ذلك العام كان ممتعاً جداً، وذلك لأن محيط اللاذقية، أو ريفها، شديد الجمال. وحين جاء الربيع في آذار صرت أسافر كثيراً إلى الجبال، ولا سيما إلى صلنفة، حيث الخضرة والمياه والزهور البرية والهواء المنعش البليل. كما أن البحر كان يرى من نافذة الصف، بل إن أمواجه راحت تضرب جدران المدرسة في قلب الشتاء. وكان الشعر الرومانسي مقرراً علينا في الجامعة يومئذ. ومن المعلوم أن وردزورث هو الشاعر الذي أسس الرومانسية الإنجليزية، كما أنه شاعر الطبيعة الذي لا يبذه أي شاعر آخر من شعراء الطبيعة في أي ثقافة من الثقافات. فكنت أطالع قصائده الفاتنة في ذلك الجو الطبيعي الفاتن.

ولكن ما قد فاجأني بالفعل أن بعض المعلمين والمديرين في المدارس هم من أجلاف الأوباش وسفلة الأوغاد. ويبدو أن الإنسان كلما تعلم أكثر ازداد إيغالاً في الأنانية وعبادة ذاته، وابتعد كثيراً عن البشر وصار فردياً متطرفاً ونائياً عن الجماعة والحياة العامة، وذلك على النقيض من الجنود والعمال والأميين الذين يتسمون بروح إخائية حميمة. وإذا ما أضفت إلى هذه الحالة الكثير من الصفات السلبية التي تشين المدارس، فإنك سوف تتخيل حجم المشقة التي يكابدها معلم المدرسة، ولا سيما إذا اشتغل ثلاثين سنة في تلك المهنة العسيرة الشاقة.

وعاد التجنيد يطالبني بالرجوع إلى الكلية العسكرية في حلب، وذلك بعد مرور سنة تماماً. ولكنني تجاهلت الأمر أو أهملته وثابرت على الذهاب إلى المدرسة، إذ كنت في أمس الحاجة إلى الراتب الذي أتقاضاه من الأونروا، وهو زهاء ثلاثمائة ليرة سورية شهرياً. ومن حسن الحظ أنهم أعلنوا عن فتح باب البدل، وذلك في آذار أو نيسان سنة 1963، فدفعت ألف ليرة سورية وحصلت على إعفاء من الجندية الإلزامية لم يعقبه أي إزعاج.

وانتهى العام الدراسي ورجعت إلى دمشق، حيث كان الفحص بانتظاري. وظهرت النتائج في تموز ونجحت، فلم يبق أمامي سوى سنة واحدة ثم أصير خريجاً جامعياً. وهذا إنجاز كبير يعني الكثير في تلك الأيام، عندما كان العالم لا يزال طازجاً يانعاً ناجياً من التشويه العميق الذي ألحقته به الفورة النفطية ابتداءً من أواسط السبعينيات. فمما أذكره جيداً أن مخيم اليرموك لم يكن فيه سوى طالب جامعي واحد يوم أعلنت الوحدة بين سوريا ومصر سنة 1958. وكان ذلك الطالب محط أنظار جميع الناس حين يسير في شوارع المخيم.

وإثر شجار جرى بيني وبين مدير المدرسة، وهو شخصية متشنجة أو متحجرة، عوقبت فنقلت إلى مدرسة طبريا في مدينة القنيطرة التي تبعد عن دمشق ستة وستين كيلو متراً باتجاه الجنوب الغربي. وصرت مدرساً للغة الإنجليزية لأول مرة في حياتي. وقضيت هنالك سنتين، أي حتى أيلول سنة 1965.

وإثر وصولي إلى تلك المدينة، أو في فترة اغتيال الرئيس الأمريكي جون كندي (تشرين الثاني،1963) تعرفت على الفتاة الخامسة الشديدة الفتون، والتي كنت أسميها الفرحة لأنها تجسيد للفرح أعطي لمقلة العين. يقيناً، إن المرأة المصطفاة هي ما يطيّب العيش ويضفي النكهة على حياة الرجل، فيجعلها خلابة شفافة سائغة، ومن دون المرأة المنتقاة يتصدع الوجود، فلا تعود الحياة سوى اعتلاف بالتبن والزؤان. ولهذا، يجوز لك أن تعرّف المرأة بأنها

الكائن الذي يكمل الرجل ويكتمل به.

يا إلهي! كم كان الفرق كبيراً بيني وبينها. فأنا شاحب ذابل، مصفر اللون، ومتكهف الخدين، وشديد الهزال والنحول. أما تلك الغادة فهي التجسيد الأمثل للحياة والحيوية والسواء والنجاة من كل داء وسقام. فشعرها الغزير الطويل، وعيناها الواسعتان العسليتان، وكذلك وجهها المتوهج الطافح بالبشر وهدأة البال، والوسامة التي لا تبذ، إن هذه السمات كلها لا تقل عن كونها مؤشرات إلى أن تلك اليافعة اليانعة من سلالة الزهور واليخضور.

وكثيراً ما لاحظت أن الحساسين يحدسونني. ففي أحد الأيام بينما كنت أجالسها في ندوة الجامعة، سألتني هذا السؤال: هل أنت شاعر؟ قلت: أظن. قالت: إذن أسمعني شيئاً من شعرك. وبفعل ناموس التحدي والاستجابة الذي من شأنه أن يستنفر الطاقة الكامنة كلها في بعض الأحيان، ارتجلت على الفور قصيدة صغيرة ما زلت أحفظ مطلعها في ذاكرتي حتى اليوم:

هام الجمال على خديك وانتشرت

أطياف شهد مصفّى في مآقيك

ولقد علمتني تجربتي العذرية مع تلك الفتاة، وهي تجربة شديدة العذوبة ومترعة بالهناء والسعادة، أن في الإنسان ميلاً ماهوياً للتناسم مع الوسيم، أو للاتصال في عمق الروح، لا الجسد، بالمدمّث الأهيف الفاتن الخلاب. نعم، اتصال بغير أية وصلة جسدية مهما يكن نوعها.

ولكن تلك الفتاة الطافحة بالحيوية والجمال قد تزوجت ورحلت، وخلفت في قعر نفسي حزناً ما لبث تصرم الأزمان الطويلة أن أزاله إزالة تامة. أما الشعور بالهناء وسعادة الاتصال البريء بالدماثة، أو بالرقة نفسها، فما زال مذاقه في فمي حتى اليوم. يا إلهي! لماذا كانت الدنيا على هذا النحو ولم تكن على نحو أفضل؟

*   *   *

وفي القنيطرة رحت أدرّس حصصاً إضافية في مدرسة تابعة لوزارة التربية. وكانوا يدفعون أربع ليرات مقابل كل حصة لغير الخريجين. وقبضت أتعابي كلها على دفعتين، واشتريت بها قطعة أرض صغيرة كي أبني عليها بيتاً لي. ولم يف المبلغ بالغرض فرحت أسدد البقية على دفعات.

وتخرجت من الجامعة في تموز سنة 1964. وكان الخريجون نادرون في تلك الأيام. وبعد تخرجي من الآداب انتسبت إلى كلية التربية لأحصل على شهادة الدبلوم. وبقيت في تلك الكلية عدة سنوات وصلت في نهايتها إلى صف الماجستير. ولكنني تركت الجامعة كلها إلى

غير رجعة سنة 1968.

وأذكر أنه كانت لدينا مادة اسمها فلسفة التربية. ولكن تلك المادة لم تستطع أن تحدد الغاية الرفيعة أو الجليلة للفن التربوي العظيم، وهي الغاية التي ينبغي أن يتبناها الجنس البشري بأسره. ولقد تشكلت لدي فكرتان بهذا الخصوص استلهمتهما من ممارستي للحياة وكذلك من مطالعاتي الكثيرة الواسعة:

أولاً ـ إن الإنسان كائن يخاف، في الغالب الأعم، ولكنه كثيراً ما يكون نائياً عن مبدأ الخجل والحياء. أما وظيفة التربية فهي أن تستقلب الوضع بحيث يصير الإنسان كائناً يخجل ولا يخاف.

ثانياً ـ إن هدف التربية الأكبر والأسمى هو تنمية الضمير قبل تنمية الذهن، أي تعزيزه وصقله وشحنه بالعافية وجعله الحكم الفيصل في جميع تفاصيل الحياة وشؤونها. ولعل في ميسور هذه التربية النبيلة أن تفضي إلى إغلاق جميع المحاكم الرسمية، وذلك لأن المحكمة الحقيقية سوف تعقد جلساتها في داخل الضمير وحده. إن الضمير في اعتقادي، هو كل شيء في حياة البشر، وبغير الضمير لا يبقى سوى اليهودي.

فالإنسان الكامل هو غاية التربية الناجية من كل زيف وابتسار. وإنه لكائن لا يعتدي على أحد، وإذا ما اعتدي عليه سامح وغفر. والسماح أصعب من الثأر على النفس الناقصة الخديج. وهذا يعني أن الإنسان الذي لم يبلغ الكمال هو من يحتاج إلى محكمة رسمية ليحصل على حقه إذا ما تعرض لأي اعتداء.

*　　　*　　　*

ثم انتقلت إلى دمشق في أيلول سنة 1965، ومارست التدريس في عدة مدارس تابعة للأونروا. وأخذت أبني البيت الواقع في الجادة الرابعة عشرة من شارع صرفند المحاذي لشارع فلسطين. واستغرق هذا المشروع مدة طويلة بسبب عدم توفر المال الكافي، إذ كان لابد من أن نتوقف عن البناء ريثما يتكدس لدينا مبلغ صغير يمكن له أن ينجز جزءاً جديداً من أجزاء البيت.

وفي تموز سنة 1965 سافرت إلى القدس، يوم جاء خبر مفاده أن لجنة كويتية قد وصلت إلى تلك المدينة ابتغاء التعاقد مع بعض المدرسين للعمل في الكويت. فذهبت إلى إربد حيث نمت ليلة لدى بعض أقاربنا، ثم انطلقت في الصباح التالي إلى نابلس، وفي الطريق رأيت قناة الغور الشرقية. وعبر الباص نهر الأردن على جسر لا أذكر اسمه، وراح بعد ذلك يتسلق الجبال الفلسطينية المتاخمة للغور من جهته الغربية. وفي نابلس أخذت باصاً آخر إلى القدس حيث نمت ليلتين في أحد الفنادق. وتعرفت في الفندق بشابين أحدهما فلسطيني والآخر أمريكي يحمل إجازة في اللغة الإنجليزية من إحدى جامعات أمريكا، ويعمل مدرساً لتلك اللغة في نيجيريا براتب جيد. وذهبنا نحن الثلاثة إلى رام الله حيث شاهدنا حديقة اسمها حديقة البلدية. ثم رجعنا إلى القدس في المساء الباكر وذهبنا إلى واحدة من دور السينما لنشاهد فيلماً أمريكياً مضحكاً.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت إلى اللجنة، والتقيت باثنين من زملائي في التدريس أتيا من دمشق للغرض نفسه. ولكن اللجنة رفضت أن تتعاقد مع أي معلم قادم من سوريا، حتى وإن كان فلسطيني الجنسية. ورفضت أن توضح لنا السبب الذي دفعها إلى هذا التشنج الأحمق. فغادرت المكان وحيداً، وذهبت لزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة وكنيسة القيامة، واستمتعت بذلك التراث المعماري الجليل.

وفي اليوم التالي سافرت إلى عمان عن طريق جسر الانبي القريب من أريحا، وكذلك من البحر الميت. ووجدت عمان قرية كبيرة، ليس إلا. وأخذت سيارة أخرى إلى دمشق، فاتجهت شمالاً ومررت بالقرب من جرش ذات الآثار المشهورة. فقد كان الطريق يومئذ يمر بالرمثا، وكذلك بمدينة درعا. ولكنه تغير في هذه الأيام.

ومر عام 1966 بهدوء ولم يعكر صفوه شيء سوى حادث مروع يتلخص في أن الهمجية التوراتية الشديدة الميل إلى الإرهاب واحتساء الدم البشري قد أنجزت مذبحة ذات يوم أسود، وذلك حين دهم الصهاينة قرية اسمها السموع، وهي القريبة من مدينة الخليل، وفتكوا بسكانها، وذلك في الثالث من تشرين الثاني، أي بعد مضي عشر سنوات على مجزرة كفر قاسم التي لا تبعد كثيراً عن السموع، وبعد ثلاث عشرة سنة على مجزرة قبية التي ارتكبها الصهاينة في الرابع عشر من تشرين الأول سنة 1953، وذلك بذريعة تأديب "المخربين"، على حد زعمهم، فقتلوا سبعين فلسطينياً من العزّل دون أن يرف لهم جفن. واتكأوا على الذريعة نفسها يوم هاجموا السموع. ولم تقل الإصابات في هذه القرية الأخيرة عن مائة وخمسين إصابة بين قتيل وجريح. إن ولع اليهود بالاعتداء على من ليست لديهم أسلحة، ولا سيما على النساء والأطفال هو آية ناصعة، أو شديدة الجلاء، على نذالتهم وخستهم وضِعة أرواحهم وافتقارهم إلى كل أصالة إنسانية نبيلة. بل إن هذا الولع نفسه هو برهان على أن الشخصية اليهودية ميتة أو معطوبة في الصميم.

بيد أن الحادث الأكثر ترويعاً وبؤساً في تلك السنة هو المجزرة التي ارتكبها جزار اسمه سوهارتو في إندونيسيا. وقد ذكرت وسائل الإعلام يومئذ أن عدد ضحايا تلك المجزرة قد بلغ مليوناً من الأرواح. وهذا فعل لم أسمع بما يضارعه ولا قرأت في أي كتاب.

*　　　*　　　*

في سنة 1957 ظهر في دمشق كتيب عنوانه "خنجر إسرائيل"، قيل إن صحفياً هندياً سرق وثائقه من إدارة حلف الأطلسي، وهذا خبر لا يستطيع اللبيب أن يثق به. والمهم في الأمر أن الكتيب يتحدث عن عدوان سوف يقوم به الصهاينة الذين يبتغون أن يحتلوا الجولان وجنوب لبنان والضفة وقطاع غزة وصحراء سيناء.

وذات يوم بينما كنت أسير في شوارع مخيم اليرموك في تموز سنة 1962، عثرت على منشور مغفل التوقيع يتحدث عن ذلك العدوان الآنف الذكر نفسه. وفي سنة 1964 أصدرت الهيئة العربية العليا، التي كان يترأسها الحاج أمين الحسيني، مفتي فلسطين، مذكرة

وجهتها إلى الحكومات العربية الرسمية، وذلك لتحذر تلك الحكومات من عدوان صهيوني وشيك يهدف إلى احتلال جميع المناطق الآنفة الذكر. وقد أتيح لي أن أقرأ تلك المذكرة في حينها. وفي السنة التالية، نشرت إحدى الصحف السورية، في شهر من شهور الصيف، وأظنها جريدة الثورة، مقالاً كتبه الإرهابي المشهور، دافيد بن غوريون، وهو أول رئيس للغيتو الصهيوني. وقد طالعت ذلك المقال في الحديقة التي هي أمام مدرسة التجهيز الأولى.

وما زلت أذكر فكرتين من ذلك المقال الخطير. أما أولاهما فخلاصتها أن الجيش الصهيوني صار قادراً على أن ينقل المعركة إلى أرض العرب. وأنا واثق من أنه كاذب، لأن جيشهم جبان ولا يصلح للقتال، بل إن في الميسور أن يهزمه جيش يتألف من بضعة آلاف مقاتل وحسب. وأما ثانيتهما فخلاصتها أن الصهاينة سوف لن يصالحوا العرب على الحدود القائمة يومئذ، إذا ما نشبت حرب بين الطرفين بعد سنة أو سنتين. واللافت للانتباه في هذا الموضع هو قوله "بعد سنة أو سنتين". وبالفعل اندلعت مناوشة بعد سنتين بالضبط بين العرب واليهود. وهاهم أولاء يرفضون أن يصالحوا على الحدود التي كانت قائمة يوم ظهر المقال الآنف الذكر. ولكن أهم ما في الأمر أن بن غوريون قد ألمع إلى أن ما سمي بحرب حزيران كان يطبخ في تلك الفترة، بل منذ زمن سابق طويل، على الأرجح.

وكثر هم الذين قالوا بأن ما جرى في ذلك الحزيران، بل منذ عام النكبة، هو نتاج لمؤامرة عالمية كبيرة اشترك فيها العرب والعجم والديلم والروم والفرنجة. وأضافوا بأن شيئاً مما جرى لن يفهم بغير مقولة المؤامرة، إذ لو مسخت الجيوش العربية واختزلت مائة مرة لظلت قادرة على أن تقاتل بشكل أفضل مما فعلت في تلك الأيام الستة. وربما تساءل المؤرخون في المستقبل عن السبب الذي منع الجيوش العربية من خوض أي قتال ذي بال في حزيران، سنة 1967.

كان الخلاف يدور حول مياه نهر الأردن، فسوريا تريد حصتها من نهر بانياس الذي ينبع من الأراضي السورية، والغيتو الصهيوني يريد أن يجر ماء النهر إلى صحراء النقب ليجعلها صالحة لاستيعاب اليهود القادمين إلى فلسطين. وتوتر الجو بين الطرفين، وراحت طائرات الميراج تقصف. وسحبت مصر قوات الطوارئ الدولية التي كانت تفصل بينها وبين الغيتو منذ سنة 1957 يوم أنهيت مناوشة السويس. ومع أن الخلاف بين عبد الناصر وبين الملك حسين، ملك الأردن، قد كان على أشده في ذلك الحين، فإن هذا الأخير فاجأ الدنيا ونزل في مطار القاهرة ليلتقي بالرئيس المصري، وذلك في أوائل شهر حزيران. ولم يكشف الحجاب حتى اليوم عن سر تلك الزيارة المباغتة.

وبدأت المناوشة بإغارة شنها الطيران الصهيوني على المطارات المصرية في الصباح الباكر، يوم الخامس من حزيران. وأعلن فيما بعد أن تلك الإغارة قد حطمت الطائرات المصرية وهي على مدارجها. وهذا كذب دون ريب، إلا إذا تآمرت قيادة الطيران المصري على ذلك الطيران نفسه. فمما هو معلوم أن الطائرات تكون في ملاجئها تحت الأرض، وأن عدداً طفيفاً منها يكون على سطح الأرض استعداداً للطوارئ.

وبعد يومين أعلن الصهاينة أن جنودهم يسبحون في مياه خليج السويس وأنهم وصلوا

إلى الضفة الشرقية للقناة، وهذا مكان لم يتح لهم أن يبلغوه يوم العدوان الثلاثي على مصر، سنة 1956. وحسبنا في البدء أن الصهاينة يلعبون على أعصاب الناس ومعنوياتهم. ولكن ثبت أن قولهم صحيح حينما أعلن عن وقف الصدام على الجبهة المصرية في الثامن من حزيران، وحين ألقى الرئيس المصري خطاباً جاء فيه أن القيادة سحبت القوات إلى خط الدفاع الثاني. وفي هذا القول احتيال على الناس فعلاً، فبدلاً "من خط الدفاع الثاني" كان ينبغي أن يقول غرب القناة. وفوجئ الناس بما جرى. فقد كانوا واثقين من أن الجيش المصري سوف يسحق الغيتو الصهيوني. ولهذا كان الإحباط مريراً. ثم جاءت مهزلة الاستقالة التي أعلنها عبد الناصر، فاحتشدت الجماهير الغفيرة في شوارع القاهرة لتثني الرئيس عن قراره، فتراجع بالفعل.

إن الجيش المصري لم يصنع شيئاً في تلك المناوشة سوى أنه خاض صداماً صغيراً في مكان يسمى أبو عجيلة، وهو قريب من الحدود المصرية الفلسطينية. ومما هو معروف أن ذلك الموضع قد سبق أن خيض فيه صدامان بين الصهاينة والجيش المصري، أولهما سنة 1948 وثانيهما سنة 1956.

أما في سوريا، فراحت طائرات الميراج تقصف أهدافاً عسكرية فقط. ودارت مناوشة صغيرة في مكان يسمى تل الفخار، وهو شديد القرب من بانياس. وأسفرت تلك المناوشة عن استشهاد جميع الجنود السوريين الذين كانوا فيه. وقيل إن عددهم ثمانين جندياً أو أكثر بقليل.

أما في الضفة فقد انسحب الجيش الأردني من ذلك الصقع ابتداء من أوائل حزيران، أي قبل بدء الصدام بأيام. ولكن كتيبة مدرعة ظلت في جنين، وقيل بأنها تمردت. وكان يقودها رائد بدوي لشعره أربع ضفائر. واشتبكت تلك الكتيبة مع الصهاينة في قتال مرير أسفر عن تدميرها بعدما دافعت عن المدينة دفاعاً لا ينهض بمثله إلا الصناديد. وهذا حادث من شأنه أن يؤكد ما فحواه أن الخلل يربض في البنية السياسية وليس في البنية العسكرية. ونجت مدرعة واحدة يقودها ضابط اسمه أبو هاشم. انسحب أبو هاشم بدرعه نحو الجنوب، وبالقرب من نابلس شاهد حشداً من دروع الصهاينة، فهاجمه وفتك بأربع مدرعات قبل تدمير مدرعته واستشهاد من فيها.

*　　　*　　　*

وهكذا ثبت أن التوقعات التي تنبأت بأن الصهاينة سوف يحتلون مساحات واسعة من الأراضي العربية لم تكن توقعات، وإنما هي معرفة مسبقة بمؤامرة عالمية هدفها ترسيخ الغيتو الصهيوني بواسطة زرع اليأس في نفوس العرب. ومما هو في صلب الحق أن كل الذي أراده اليهود قد أنجز بحذافيره فعلاً. وربما جاز الزعم بأن جميع أهدافهم سوف تتحقق كلياً طوال الجيل الآتي. فهم وحدهم لهم إرادة في هذا العالم السخيف.

ولا مرية في أنه لم تكن هنالك حرب قط، بل إن أية حرب بين العرب والصهاينة لم تجر في أي يوم من الأيام. والأهم من ذلك هو أن الحرب ممنوعة الحدوث في منطقتنا منعاً

باتاً، وذلك لأن سكان الغيتو الصهيوني سوف يفرون إلى الأقاصي في حال نشوب أية حرب طاحنة، حتى لو انتصر جيشهم الذي لا يتيسر له أن ينتصر بتاتاً. وذلك يعني نهاية الغيتو الصهيوني إلى الأبد.

وأعلن الصهاينة أن عدد قتلاهم في الأيام الستة التي استغرقتها المناوشة هو 777 جندي فقط. وأغلب الظن أن هذا الرقم صحيح، وذلك لأن قتالاً ضخماً لم يحدث قط. ولكن الهزيمة التي مني بها العرب هي أعجوبة من أعاجيب التاريخ. فمن الغرائب المستهجنة أن جميع الأمم تستطيع أن تقاتل إلا العرب وحدهم. ومما ينبغي أن يلفت انتباه الألباء أن منطقتنا تعج بالجيوش منذ ثلاثينيات القرن العشرين، ومع ذلك فإن معركة واحدة، جديرة بأن تسمى معركة، لم تحدث بتاتاً. أما من دلالة لهذه الحقيقة الناصعة التي تفقأ العين؟

ولقد اعتاد أحد المتمسكين بمقولة المؤامرة أن يؤكد على أنها قد أُخرجت بأسلوب شديد الفجاجة، بل هو لا يستر عورة الحال، على عكس ما جرى في عام النكبة، وهو ما أخرج على نحو أفضل ولو قليلاً. وكان بعض المتمسكين بمقولة المؤامرة يصرحون بأنه لا يرفض هذه الحقيقة إلا من تعطل جهاز بداهته الراخم في صميم روحه. وراح بعضهم يستشهد بقول المتنبي:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

ويجوز القول بأن حجم القتال الذي مارسته الجيوش العربية الثلاثة في تلك الأيام الستة لا يعادل واحداً في الألف من طاقتها الحربية. هذا فضلاً عن أن الجيش العراقي لم يصل إلى الجبهة إلا بعد انتهاء المناوشة بكثير. ومن العبث القول بأنها معركة خسرناها، إذ لم تكن هنالك معركة قط، بل مهزلة ومناوشات طفيفة الشأن هدفها ذر الرماد في العيون. ثم إن هذه الظاهرة اليهودية الزائفة، التي كل ما فيها منتحل أو مسروق، لا تملك البتة أن تنهض بفعل كهذا الفعل الجسيم الذي تم في حزيران، سنة 1967، ذي النتائج الخطيرة التي من شأنها أن تسمح للمرء بأن يطرح على نفسه هذا السؤال المرير: ترى، ماذا يصنع التاريخ بهذا الرهل الذي يسمى العرب؟

وعندي أن مقولة المؤامرة لا تكفي لتفسير ما جرى، إذ لابد من أن يكون الخلل قد عطب الصميم نفسه. ويبدو أن شخصية الإنسان في هذه البلاد قد محلت وعقمت حتى لم يعد فيها أي محتوى ذي بال. فهو ماهر، بل شديد المهارة، في صنع وقائع ثلاث مرئية بالعين: (1) الوسخ و(2) الفوضى و(3) الضجيج. وهو في حاجة إلى وحي محكم أنزل من أسمى الأعالي كي يعنى بوالديه، أو كي يجعل كفتي الميزان متعادلتين في البيع والشراء. أما قدرته على الملاحظة والربط، أو رؤية تفاصل الرقعة كافة فهي ضعيفة بل هزيلة. وأهم ما في أمره أنه لا يدهشه حادث كبير مثل هزيمة حزيران، بل يدهشه دجال يجيد اللعب بالكشاتبين. وفضلاً عن أنه بليد كسول مستهلك وخفيض الحساسية، فإنه يتناسل ويتكاثر بإفراط لا يشبهه إلا إفراط الأرانب، أو نمو النباتات في المناطق الاستوائية والمدارية، وهذا شأن ينم عن الغيبوبة وهزال العقل. وبسبب هذه الصفات مجتمعة، فإن إنساننا مهزوم حتماً، ولا أمل له

على المدى المنظور.

وفي مذهبي أن أي شعب من الشعوب يتحدد مصيره بمحتويات شخصيته، أي بصفاته الذاتية والجسمية قبل كل شيء. أما الاقتصاد الذي ألهته الإيديولوجيا أو قدمته وكأنه المطلق الشارط واللامشروط في الوقت نفسه، أي يحدد الحياة ويتحكم بها، ولكن دون أن يحدده أو يشرطه أي شيء، فهو في حقيقته نتيجة مشروطة أكثر مما هو سبب أو علة شارطة.

* * *

لقد جاء ذلك الحزيران ليكون بمثابة رسالة إلى كل عربي لبيب بالدرجة الأولى، وخلاصتها أن العرب بلا إرادة بتاتاً، ويعيشون على حافة العدم، وأنهم مملوكون لليهود ولأدواتهم الغربيين، وليس ثمة أي أمل طوال جيل أو جيلين أو ثلاثة، وأن على كل امرئ ههنا أن ييأس من تحرير فلسطين أو من تدمير الغيتو الصهيوني على المدى المنظور. فالأنظمة التي وصفت بأنها تقدمية لا تقل سوءاً، بل لا تقل ميلاً إلى الخيانة، عن تلك الأنظمة الرجعية التي سلمت فلسطين لليهود في عام النكبة. ويبدو أن كل الذي جرى منذ سنة 1948 وحتى حرب العراق الراهنة (2005) ينطوي على هدف كبير فحواه أن ييأس الإنسان العربي وأن يرضى بالأمر الواقع، وذلك لأن القبول بوجود الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين هو أفضل من هذه المهزلة المستمرة طوال السنوات الستين الأخيرة. وهذا يعني أن العرب سوف يظلون صنفاً من أصناف النمو المعاق أو المكبوح إلى أجل غير مسمى.

ولقد أصيب معظم الناس باليأس منذ ذلك الحزيران الفضيحة، أو الكاشف للحقيقة، إذ مالت الغالبية العظمى إلى الحل السلمي جهرة منذ ذلك الحين. وهذا يعني أن خطط الصهاينة قد نجحت في ترويض الإنسان العربي وتدجينه. إنهم يلقموننا الرضى بالغيتو الصهيوني لقمة إثر أخرى. فهم ليسوا على عجلة من أمرهم. وسيأتي يوم يصير فيه الغيتو الصهيوني عضواً طبيعياً في منطقتنا المضعضعة أو المفككة الأوصال؟

بيد أن هذا السؤال المرير ما انفك يطرح نفسه عليّ منذ سنة 1967 حتى اليوم: ترى، من ذا الذي يشكم جيوشنا عند شدة حاجتنا إليها؟ وإنني منذ الآن أتخيل المؤرخين وهم يبحثون، في قابل الأزمان، عن السبب الذي لجم الجيوش العربية ومنعها من القتال في ذلك الحزيران الخطير، تماماً كما يتقصون اليوم السبب الذي منع هنيبال من محاصرة روما بعد النصر الكبير الذي أحرزه في كاناي سنة 216 ق.م. ولسوف يكون من السخف وصفاقة الذهن أن يقال بأن العرب كانوا بلا جيوش، أو بأن جيوشهم لا تصلح للقتال. فمن المؤكد أن ثلاثة من الجيوش العربية، وهي المصري والعراقي والأردني، قد بناها الإنجليز لتجابه الألمان إذا ما وصلوا إلى قناة السويس أو إلى منابع النفط في العراق أو في شبه جزيرة العرب. أما الخراب الذي فتك بتلك الجيوش فقد جاء بعد مناوشة حزيران بعشر سنوات تقريباً.

ويبدو أن استخذاء العرب لا شفاء منه على المدى القريب. وما هزم العالم العربي على هذا النحو الشائن المرير إلا لأنه يفتقر إلى الإنسان. فربما جاز الزعم بأننا قد تخثرنا في

الماضي السحيق. ولا أجد حرجاً في أن أكرر ما فحواه أن مقولة المؤامرة لا تكفي لتعليل ما جرى، بل في الحق أن المؤامرة نفسها تحتاج إلى ما يعللها، أو إلى معرفة بالسبب الذي جعلها ممكنة، إذ إن الحكومة، أية كانت، لا تستطيع أن تتآمر على شعبها إلا إذا كان ذلك الشعب نفسه بلا شخصية ولا عمق ولا حضور.

* * *

وأذيع نبأ انتحار المشير عبد الحكيم عامر، وزير الدفاع المصري. وما من أحد يعرف ما إذا كان قد انتحر أم نحر. كما أن سبب الحادث ما زال مجهولاً حتى الآن. فربما انتحر لأن ما جرى لم يرق له أو لم يقبل به. وربما اعترض على ما جرى فقتلته إحدى الجهات. ولئن كان المشير قد انتحر فعلاً، فإن المرء يستهجن أن يكون قد فعل ذلك قبل أن يعلن الحقيقة على الملأ. ولقد أشيع بأنه تمرد على الرئيس، فما كان من هذا الأخير إلا أن تخلص منه بقتله. ولا يدري أحد متى سوف يرفع الستار عن هذا الحادث الذي قد يكشف بعض الدلالة، أو يسلط شيئاً من الضوء على تاريخ تلك الفترة المكروبة.

ولكن ما هو شديد الأهمية أن الوحشية التوراتية الناجمة عن لؤم معتّق مخزون قد شهدت دورة جديدة من دورات انفجارها، إذ قتلت في سيناء أعداداً كبيرة من الأسرى المصريين الذين أسلمتهم قيادتهم للعدو دون مبالاة. إنها التوراة مستودع الحقد الكالح على الجنس البشري بأسره. لقد حرّموهم للرب، كما يقول ذلك الكتاب اللئيم الذي كتبته فئة من الكائنات تحترف الخِسة والنذالة، وذلك لكي تستعمله في ممارسة لؤمها وحقدها كلما وجدت إلى الممارسة سبيلاً.

أما أخطر الأمور على الإطلاق فهو أن تكون هنالك، في كل إقليم عربي بنية خاصة لها وظيفة قوامها تخريب البلد الذي تتحكم به. ومن جملة وظائفها الكثيرة أن تشكم سلاح ذلك الإقليم حين يكون استخدامه ضرورة ملحّة. وفضلاً عن ذلك، فإن تلك البنية هي التي تضمن تدفق النفط العربي إلى بلاد الغربيين، ليصب في جيوب اليهود قبل سواهم.

وعندما توضحت نتائج المناوشة الحزيرانية وتكشف حجم الخسران المرير، تذكرت ـ ولا زلت أتذكر ـ ما قاله لي والدي إثر خروجنا من قريتنا التي دكها الصهاينة بالمدفعية طوال ثلاثة أيام متتالية: إياك أن تثق بالعرب بعد اليوم. والحقيقة أنني وثقت بالعرب بعد ذلك اليوم، ولكنني لم أعد أثق بهم بتاتاً منذ تلك المناوشة الحزيرانية حتى الوقت الراهن.

لم يكن من قبيل الصدفة أن أبي قد وجه إليّ تلك النصيحة الذكية الناضجة، فهي في الحق نتيجة لمرارة النكبة التي لم تزايل فمه منذ ساعتها الأولى وحتى وفاته بعد ست سنوات، بل منذ أن صارت حقيقة مؤكدة يوم جرت معركة لوبيا في الثامن من حزيران، ووقف جيش الإنقاذ يتفرج دون أن يقوم بأية مشاركة مهما تك صغيرة. ففي الحق أن النكبة قحفت أرومة حياته وجرّفت الأسس التي تدشن عمره بأسره، فكان يتبدى على الدوام وكأنه قد احتسى كأساً من صهارة معدن يغلي، وإن كان ميالاً إلى الصمت، ويغضي على قذى مع طفيف من شكاة. لقد أنهكته الحسرة والمرارة فتوفي بعد فترة وجيزة وهو في شرخ الشباب. وكيف لا يتلوع وقد غاص في عوز مدقع بعدما كان فلاحاً ميسور الحال.

*　　　　*　　　　*

وفي أواخر تلك السنة تعاقدت مع المملكة السعودية على التدريس في إحدى مدارس الرياض الثانوية. وفي مساء الخامس عشر من شهر كانون الأول هبطت في مطار تلك المدينة. ولكنني اعتقلت فوراً، وأُخذت إلى أحد المباني، وأُدخلت إلى قاعة فسيحة مفروشة بالسجاد، وفيها عدد كبير من الأرائك. وفي صدارة القاعة، ووراء طاولة فخمة كان يجلس رجل ضخم عليه عباءة ثمينة وعلى رأسه كوفية وعقال من قصب. ومثلت أمامه ورجاله يحيطون بي من ثلاث جهات. وفقدت أعصابي وانفلت لساني وأخذت أصرخ وأشتم كل شيء. وكان هذا القول من جملة أقوالي: أيها الأوباش، إن العلم والثقافة في هذه الأيام مكتوبان باللغة الإنجليزية، وقد جئت إلى هذه الصحاري القاحلة كي أعلمكم اللغة الإنجليزية، أي كي أربطكم بالحضارة الحديثة وعلومها وثقافاتها. ومع ذلك فإنكم تجازونني بالاعتقال والامتهان. ألا تؤمنون بأن جزاء الإحسان هو الإحسان؟

ولكن الرجل ذا الشكل المهيب، والذي لا أحسبه إلا منخوراً من داخله، قد أشار بيده إشارة فهم منها رجاله أن خذوه. فأخذوني إلى سجن قريب حيث نمت ثلاث ليال بائسة. وفي صباح اليوم التالي نقلوني إلى مبنى من المباني لأمثل أمام أحد المحققين. وهناك أخبرني ذلك المحقق بأنني ممن لا يسمح لهم بدخول المملكة. وأضاف بأنه يستهجن كيف أعطتني القنصلية السعودية في دمشق تأشيرة الدخول. ولكنه رفض أن يكشف لي عن السبب الذي أدى إلى ذلك المنع.

وعلى أية حال، فقد أعادوني إلى السجن. وفي الصباح الباكر بعد ليلتين، استيقظت على رجال الشرطة وهم يركلونني بأرجلهم كي أنهض من الفراش، وذلك بغية ترحيلي إلى سوريا بطائرة كان إقلاعها وشيكاً. وحين وصلت إلى البيت قررت أنني لن أشتغل مع العرب بتاتاً، فإما أن أعود إلى الأونروا وإما أن أرحل إلى الغرب. ولكنني التحقت بمدرستي التي كنت فيها قبل سفري إلى الرياض، وذلك بعد يوم واحد فقط.

ترى، لماذا رفضتني تلك البلاد التي انتقلت من البداوة إلى الانحطاط دون أن تمر بالحضارة؟

لا ريب في أن السبب هو انتسابي إلى الكتيبة الثامنة والستين المعادية للصهيونية. فالصهاينة يريدون أن يعاقبوا كل من سوّلت له نفسه بأن يضرب الغيتو الصهيوني. ففي الحق أنني لو بقيت في السعودية لانتصرت على الفقر الذي ظل ينخر حياتي منذ عام النكبة وحتى اليوم الراهن (2005)، وإن كانت أحوالي المادية ليست بالسيئة في هذا الطور الأخير من أطوار العمر.

أن تطردني تلك المجتمعات الموحلة الباهتة، القابعة على هامش التاريخ، هو دليل حاسم على أنني كنت أعمل بشكل صحيح سليم. ثم إنه لشرف كبير لي أن ترفضني تلك المجتمعات التي لا أراها سوى تجسيد عيني لشيء مصطنع وزائف، شيء يتسربل بالترف

ويئتزر بكل ما من شأنه أن يستر خواءه واتضاعه وابتذال محتواه، إن كان له أي محتوى ذي بال. فمما هو جلي أن تلك المجتمعات قد عبرت من طور الرعي إلى طور الاتضاع دون أن تمر بأية برهة وساطة مهما يك نوعها. ثم لو كان الكلام مباحاً لحددت عورة الأمة العربية وسوأتها بدقة متناهية.

فيا للنفط وبؤسه! لقد جاء نقمة على الفلسطينيين ونعمة على اليهود! فلو كنتُ صهيونياً أو أمريكياً لتفتّحت لي الأبواب كلها دون أية إعاقة، ولانحنى لي الجميع بلا استثناء.

*　　　*　　　*

تفاقم التوتر في منطقتنا ابتداء من عام 1968، فجرت في آذار معركة الكرامة في غور الأردن، بين الصهاينة من جهة، وبين الجيش الأردني وقوات العمل الوطني الفلسطيني، من جهة أخرى. وقد تمكن الجانب العربي من صد لواء صهيوني مدرع، بعد تدمير عدد كبير من آلياته، وبعد مقتل عدد ليس بالطفيف من جنوده أيضاً. وفي تلك السنة نفسها أقدم يهودي حقود على إحراق المسجد الأقصى، فأتلفت النار منبر صلاح الدين (وهو في الحقيقة منبر نور الدين) الذي وضع في داخل ذلك الجامع يوم تمكن القائد الأيوبي من استرداد القدس سنة 1187م.

أما أنا فرحت أقرأ كثيراً، ولا سيما كتب الأدب والتاريخ. وقد أتيح لي أن ألامس شيئاً من التراث، وبقيت منجذباً إليه حتى الآن. فبينما كنت أسير في بوابة الصالحية ذات يوم من أيام تشرين الأول سنة 1968، صادفت على عربة محملة بالكتب كتاباً عنوانه "رسائل ابن عربي"، فاشتريته بعشر ليرات، ووجدت فيه لغة وخطاباً لم أألفهما من قبل. وما زال ذلك الكتاب في حوزتي حتى اليوم (تشرين الأول، سنة 2005). وسبق لرجل عجوز ضرير من قرية الشجرة اسمه كامل هويّن أن حدثني عن ابن عربي وعن "الفتوحات المكية"، وذلك أثناء حرب السويس سنة 1956. وكان هذا الرجل العجوز من تلاميذ علي الأحمد، الذي هو شاعر كان معروفاً في الجليل الأدنى قبل عام النكبة، وقد ظل في الناصرة حتى وفاته في الخمسينيات.

وفي تلك السنة بدأت تستهويني الموسيقى الكلاسيكية، فأخذت أنفتح على دنيا لم تكن لي بها سابقاً سوى خبرة ضئيلة جداً. وأحببت موتسارت كثيراً، على الرغم من شعوري بأنه ليس شديد العمق. وربما كان هذا الوصف هو السبب الذي شدني إليه. فالموسيقى تجريد محض، والإيغال في التجريد صنف من أصناف الضياع. وهذه هي بالضبط معضلة الشعر الحديث.

كما أحببت الرسم والنحت الأوروبيين، ولا سيما منجزات مايكل أنجلو الذي أراه أعظم فنان أنجبته أوروبا الحديثة منذ القرون الوسطى حتى اليوم. وفي الحق أن الفن الأوروبي والأدب الأوروبي عظيمان فعلاً وجديران بكل تقدير واحترام. أما الفكر الأوروبي منذ ديكارت وحتى سارتر فكثيراً ما يتبدى لي كما لو أنه هراء أو هذيان. وإنني منذ زمن طويل أفكر بتأليف كتاب عنوانه «سخف العقل الأوروبي» لأبين كيف راح المفكرون في تلك القارة

الباردة يهذون كمن أصابتهم الحمّى، وهم يحسبون أنهم يفكرون. فالكوجيتو الديكارتي، أو "أنا أفكر إذن أنا موجود"، ليس سوى كلام فارغ، إذ في البداهة أن الشيء موجود، سواء فكر أو لم يفكر. وأسخف منه وأتفه مذهب سارتر القائل بأن "الوجود سابق على الماهية".

إن هذه الشطحة لا تنطوي إلا على المحال. فكيف يتيسر لأي موجود أن يكون دون أن تكون له ماهية؟ كما أن ثمة مفارقة حادة في قول بعض الوجوديين بأن الإنسان عبث مسؤول عن نفسه. أليس من الحماقة، بل من الصفاقة، أن تطالب العبث بأن يكون مسؤولاً عن أي شيء مهما يك نوعه. وإذا ما أضفت إلى ذلك كله سخف المطلق الهيغلي، وهشاشة مذهب فرويد الذي أراد أن يفسر كل شيء بمقولة الجنس والعقد النفسية، وكذلك إخفاق التفسير الاقتصادي للحياة والتاريخ، فإنك سوف تدرك مدى انغماس الذهن الأوروبي في التفاهة والضحالة ورثاثة الحال.

يقيناً، إن الفكر الأوروبي قد أنتج الكثير من هذه السخافات والحماقات التي تثلبه وتشينه، بل تولج النقصان إلى جوف الثقافة الأوروبية بأسرها.

* * *

بيد أن واحداً من أكبر أحداث حياتي هو أنني استطعت في تلك السنة أن أبني جزءاً من بيتي، فرحلنا إليه واستقلت أسرتي عن أسرة أهلي، وذلك في شهر آذار سنة 1968، أو بعد معركة الكرامة بأيام قليلة. وأتاح لي البيت الجديد، بسبب سعته، فرصة كافية لاقتناء الكثير من الكتب. واشتريت خزانة مكتبة بالتقسيط، وأخذت أشحنها بالكتب شهراً بعد شهر. ففي الحق أن الكتاب هو صديقي الأول منذ أواسط القرن العشرين حتى اليوم.

وبعد الانتقال إلى بيتنا الجديد تعرفت على كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني. وهو كنز نفيس حقاً، أو قل إنه موسوعة الشعر العربي منذ بدايته وحتى أواسط القرن الرابع الهجري. واستعرت أجزاءه الواحد إثر الآخر من محمود إبراهيم الصمادي السالف الذكر، والذي هو من أخوال أمي. وظللت أطالعه طوال سنتين تقريباً. وفي الحق أنه متعة وإشباع للذائقة وتغذية للعاطفة. ولا أحسبني قرأت كتاباً أدبياً أمتع من هذا الكتاب النفيس. ولكنني قرأت كتباً كثيرة أخرى في غضون تينك السنتين، بعضها في الفلسفة والتاريخ والسياسة. ومما هو جدير بالذكر أنني قرأت الكثير من الكتب الماركسية، وذلك منذ صارت تلك الكتب متوفرة في مكتبات دمشق ابتداء من سنة 1962، بعدما حظرت الحكومة تداولها طوال سنوات الوحدة.

ولن يفوتني أن أذكر ههنا حديقة بيتنا الجديد التي لم تقل مساحتها عن أربعين متراً مربعاً. وهذه مساحة تساوي أربعة، أو خمسة أضعاف بيتنا في بعلبك. وأهم ما في أمرها أنها احتوت على مجموعة من الأشجار الجميلة، وذلك بعدما دخلت مياه الفيجة إلى بيوت المخيم سنة 1969، فكان فيها نخلة وياسمينة ودالية، أو شجرة كرمة، وشجرة كباد وشجرة مشمش، فضلاً عن نباتات أخرى من الفصيلة الزنبقية. واعتدت أن أنظر إليها بوصفها رئتي التي أتنفس منها.

وذات يوم جاءني أحد تجار العقار، وطلب مني أن أبيعها له، فهي تصلح أرضية لمحلات تجارية مربحة، وذلك بحكم موقعها على حافة شارع نشيط. ولكنني رفضت المساومة رفضاً باتاً، مع شدة حاجتي إلى المال حينذاك، لأن الرواتب لم تعد قادرة على تغطية الحاجات الضرورية، وذلك بسبب التضخم المالي الذي خلق أزمة حادة لجميع أصحاب الدخل المحدود.

* * *

وتفاقم التوتر كثيراً في البلدان المحيطة بفلسطين المحتلة، ولا سيما حين راحت مصر تخوض حرب الاستنزاف على جبهتها المتاخمة لقناة السويس، وذلك في شتاء سنة 1968 - 1969. وفي تلك السنة انتشرت قوات منظمة التحرير الفلسطينية في الجنوب اللبناني وأخذت تمارس الصدام الدموي كل يوم مع جيش الصهاينة. كما أن المقاومة الفلسطينية قد صارت ظاهرة بارزة في سوريا ولبنان والأردن بعد مناوشة حزيران مباشرة. ومما هو معلوم أن الجيش الأمريكي قد كان يهزم يومياً في الفيتنام أثناء تلك السنين. فلماذا لا يهزم هؤلاء الصهاينة الجبناء في الشطر الغربي من آسيا؟ وفي الحق أن حرب الفيتنام، ولا سيما في نصفها الثاني، جاءت بمثابة إعصار من أعاصير التاريخ العاتية. وقد استطاع شعب فقير أن يهين خلال تلك الحرب إمبراطورية من أقوى الإمبراطوريات التي شيدها التاريخ.

وعلى أية حال، كثرت العمليات القتالية ضد الصهاينة، وصارت جنازة الشهيد ظاهرة جد مألوفة في مخيمات الفلسطينيين، ولا سيما في مخيم اليرموك الذي تجاوره مقبرة كبيرة للشهداء. وحينما افتحلت المقاومة صار لا بد من ضربها لكيلا تنفلت فتجتاح المنطقة بأسرها وتثورها وتعيد صياغتها من جديد، على نحو لا يتناسب مع مصالح الإمبريالية والصهيونية والطبقة الخائنة. وبالفعل تعرضت المقاومة لمجزرة مروّعة في الأردن أثناء أيلول الأسود (1970). كما نزلت بها ضربة أخرى في تموز، سنة 1971، يوم استشهد أبو علي إياد في جبال عجلون. وهذا حادث من شأنه أن يذكر باستشهاد عبد القادر الحسيني في عام النكبة.

* * *

وفي شهر شباط سنة 1970، سافرت إلى بعلبك بعد غياب طويل دام زهاء أربع عشرة سنة. وقضيت هنالك بضعة أيام، ثم سافرت إلى طرابلس عن طريق بيروت، وذلك لأزور أهل زوجتي الذين كانوا يقيمون في مخيم نهر البارد القريب من تلك المدينة. ثم رجعت إلى بيروت، ومنها سافرت إلى صور حيث زرت بعض الأقرباء في مخيم البرج. وعدت بعد ذلك إلى بيروت ومنها إلى دمشق. ولدى عودتي وجدت جدتي خضرا قد أنهكها السرطان الذي أصابها في أمعائها، مما أدى إلى وفاتها في ذلك الشهر نفسه. فحزنت عليها حزناً شديداً، وذلك لأنها أحبتني كثيراً، بل أحبتني أكثر مما أحبني أي إنسان آخر، سواء أكان ذكراً أم أنثى.

بيد أن أبرز حادث في ذلك العام هو وفاة جمال عبد الناصر في الثامن والعشرين من

أيلول. وفي ذلك اليوم، وكذلك في الأيام القليلة التالية، أخذ الناس في دمشق يموجون كما يموج البحر تحت العاصفة الهوجاء. والجنازة الرمزية التي أجريت له في العاصمة السورية لا تبذها إلا الجنازة الفعلية التي أقيمت لأبي جهاد، خليل الوزير، الذي قتله الصهاينة في داخل بيته بتونس، سنة 1987. لم أشاهد أحداً يبكي من أجل الوزير، أما من أجل عبد الناصر، فإن آلاف البشر قد بكوا دموعاً غزيرة ساخنة. إنها برهة موت الزعيم السرية التي هي من فصيلة اللامفهوم.

ثمة إشاعة بأن عبد الناصر قد اغتيل. وهذا قول محتمل وحسب. ومما هو ملحوظ أن وفاة عبد الناصر قد تمت بعد مضي ثلاث سنوات على مناوشة حزيران، تماماً كما أن مقتل عبد الله، ملك الأردن، قد حدث بعد ثلاث سنوات من النكبة. وقتل أنور السادات بعد مضي ثلاث سنوات على بدء المفاوضات في معسكر داوود. فهل لهذا الأمر من معنى، أم هو من فصيل الصدفة وحسب؟

*　　　　*　　　　*

ومنذ سنة 1970 وحتى سنة 1981 رحت أتردد على لبنان كثيراً، إذ صار الدرب مفتوحاً أمام الفلسطينيين بعد اتفاقية القاهرة بين الحكومة اللبنانية ومنظمة التحرير (1969). ومن أبرز أخباري في تلك الآونة أنني أصبت بحمى شديدة منذ أواخر تشرين الأول سنة 1971. وقد استمر مرضي زهاء مائة يوم قضيتها في الفراش لا آكل أي طعام، بل أكتفي بعصير الفواكه والحليب. وقد دخلت مشفى المواساة في دمشق، وكذلك مشفى القدس في بيروت. ثم عوفيت ورجعت إلى المدرسة في شباط سنة 1972.

أما انتسابي إلى أحد الأحزاب الشيوعية في هذه السنة الأخيرة، فهو حادث عرضي قصير لا يستحق أن أخوض في تفاصيله التي لا قيمة لها بتاتاً. وقصارى الكلام أنني وجدت الشيوعية داخل الحزب تختلف كثيراً عن حال الشيوعية على الورق أو في بطون الكتب، إذ على الورق تجد الأفكار، وداخل الحزب تجد البشر بما لهم وما عليهم.

وتحت تأثير ولعي بالجبال، وهو الذي لا يبذه سوى شغفي بالحقيقة، وربما كان الشيئان سيان، فقد ذهبت مع صديق لي في أوائل أيلول سنة 1973 إلى بلدة كسب المحاذية لتركيا، وذلك بغية الصعود إلى ذروة جبل الأقرع. واستيقظنا مبكرين صباح اليوم التالي ورحنا نتسلق السفح الشديد الوعورة. وبعد ساعة واحدة من بدء الصعود سمعنا صوتاً ينادينا. والتفتنا إلى يميننا فرأينا بناءً صغيراً ترفرف عليه راية من الرايات. فذهبنا إليه لنجده مخفراً للشرطة السورية. وأخبرناهم بأمرنا، فأعطونا المنظار، وقالوا لنا: انظروا. فشاهدنا كميناً نصبه لنا الجنود الأتراك عند الحدود تماماً، وراحوا ينتظرون وصولنا إليهم ليقبضوا علينا.

وعلمنا أن ذروة الجبل ليست لسوريا وإنما هي لتركيا. فكان الكمين التركي على السفح في مكان قريب من الذروة.

ولكن رئيس المخفر السوري، وهو برتبة رقيب، أخبرنا بأنه يعرف رئيس المخفر التركي. وأضاف بأن علينا أن نأتيه في أواخر النهار ليأخذنا إلى ذلك المخفر، وليتوسط مع

رئيسه عساه يسمح لنا بالصعود إلى قمة جبل الأقرع.

ونزلنا إلى كسب وتناولنا طعام الغداء، ثم نمنا القيلولة في الفندق. وفي الأصيل صعدنا الجبل باتجاه المخفر السوري. وأخذنا الرقيب إلى المخفر التركي الذي هو في أعالي سفح الجبل. ولم تكن هنالك شرطة في المخفر، بل جنود. وشرح الرقيب أمرنا للأتراك، ولكن بصعوبة قصوى، إذ لم يكونوا يتكلمون سوى لغتهم التركية وحدها. ولكنهم رفضوا طلبه بحجة مؤداها أن ذروة الجبل هي منطقة عسكرية مغلقة. وقد ساعد في الترجمة راع تركي مرّ بقطيعه من باب المخفر، وكان يعرف القليل من العربية. وعند ذاك عدنا بخفي حنين بعدما حرمنا من تجربة رؤيوية منعشة.

وفي اليوم التالي عزمنا رجال المخفر إلى الغداء في الفندق الذي كنا ننزل فيه. ثم ودعناهم وسافرنا إلى اللاذقية. ومنها إلى صلنفة عسى أن نجد جبلاً إذا ما ارتقيناه حصلنا على رؤيا، أو على مكافأة روحية ذات شأن. ونمنا تلك الليلة في نزل صغير، وفي الصباح الباكر صعدنا الجبل الرابض إلى الشرق من تلك البلدة الوادعة، حيث كان هنالك عمود واحد من أعمدة البث التلفزيوني. وسرنا على طريق معبدّ يمضي من باب النزل ويستمر حتى ذلك العمود نفسه، أي حتى ذروة الجبل، حيث ترخم غابة فاتنة، فيها صنوبر أبيض اللون لم أبصر له مثيلاً في حياتي من قبل أو من بعد، وأظن أنه ذلك الصنف الذي يسمونه الصنوبر الفضي.

ويظهر سهل الغاب من تلك الذروة إذا ما نظر المرء إلى الشرق. أما في الغرب فشاهدنا مشهداً استشرافياً يدخل في فصيلة المستورات. فقد تبدى كل شيء كما لو أنه تلويح أو إيماء إلى أصل مكنون. وهذا أمر من شأنه أن ينتج في النفس شعوراً بنشوة روحية قد لا تضارعها أية نشوة أخرى وذلك لأنه يتيح للمرء فرصة استلال الفحوى من جوف المرئيات. فلقد تكشف الساحل وجباله من الأقرع حتى عكار، فبدا المكان ساجياً ناعساً هانئاً موحياً مستتباً ومفعماً بالطمأنينة وهدأة البال، كأنما الهدف من وجوده أن ينعش النفس ويسعدها ويوقظ الفرح النائم في صميمها. لقد ظهر ذلك المشهد وكأنه تدشين للروح، انكشاف المستور أو تجليه للعيان. هكذا تراءى لي في ذلك الحين، أو ربما كان هذا هو الشعور الذي تخلقه تلك الذكريات في خيالي الراهن.

وربما كنت يومئذ أشعر بأن الأشياء يعتورها نقص مريع، ولهذا حصراً رحت أفتش لها عن كمال من شأنه أن يضيف إليها قيمة ذات بال. فمما تأباه النفس أو ترفضه بإصرار حاسم أن تكون هنالك مادة لا تحايثها أية صورة من صور الروح.

واليوم، إذ تخطر في البال تلك الهنيهة العابرة، ولكن الراسخة في الخيال رسوخ الجبال، أشعر وكأنني وقفت على سنام الكون، ونلت رؤيا شملت الحقيقة بأسرها. إنها الرغبة في الإشراف والعلاء والنفاذ إلى كنه الأشياء، أي في الحرية التي ما بعدها حرية قط. فمثل تلك النظرة أو الوقفة هي وليمة دسمة جداً يقدمها الخارج للداخل، أو تقدمها المادة للروح.

ولكن، يا إلهي! ما هذا الظمأ الذي لا يرتوي؟ لعل هذا الظمأ الديمومي الذي لا نهاية له أن يكون وقود الحياة الباطنية أو الطاقة التي تحركها دون كلل، فلو كان هنالك ارتواء، أو انتهاء، لما ظل للحياة أي مذاق لذيذ، أو لاستحالت إلى سأم خانق مرير.

يا إلهي! ما هذه المسغبة الأبدية الباهظة الفاتكة؟ إنها الانتماء إلى اللانهاية، أو إلى المسرَّح واللامحدود.

ولما كان الشبع أو الارتواء أمراً متعذراً، فقد صار التوقان المنهوم إلى الحقيقة، أو السعي إلى الاستحواذ عليها ـ وهذا شكل من أشكال اللهفة ـ هو المنقبة التي تستأثر بالقيمة الجلّى بين جميع مناقب الروح.

ولقد ذهبت إلى صلنفة وحدي في تشرين الأول سنة 1994، أي بعد مضي إحدى وعشرين سنة على تلك الوقفة الرؤيوية النادرة، وذلك لأكرر تلك التجربة الباطنية الرائعة نفسها، ولكن المطر المباغت قد حال دون ذلك، فرجعت إلى دمشق وأنا أتحسر على ما ألمّ بي من خسران.

* * *

لم تهدأ الجبهة السورية طوال السنوات الست التي تفصل بين (1967) وسنة (1973). وكذلك كان حال الجبهة المصرية، ولا سيما في فترة حرب الاستنزاف، الذي هو في الحقيقة استنزاف لمصر وليس للغيتو الصهيوني، وذلك لأن الغيتو ينبع من ينابيع لا تنضب بتاتاً. فالعالم كله احتياطي لذلك الكيان الممسوخ. وهذا ـ وآيم الحق ـ من عجائب الدهور.

وبرهن الصهاينة، كعادتهم، على أنهم مجرمون أو إرهابيون، إذ ارتكبوا جملة من المجازر بالطيران في تلك الفترة. فقد جزروا قرية دير العشاير اللبنانية بذريعة مؤداها أنها "وكر للمخربين"، كما جزروا قرية سورية بالقرب من نوى بالذريعة نفسها. وفي مصر جزروا سجناً اسمه أبو زعبل، كما جزروا مدرسة للأطفال اسمها بحر البقر في دلتا النيل. وبذلك برهنوا على أنهم مغرمون بدماء الأطفال حتى درجة المرض.

واحتدمت ظاهرة المقاومة الفلسطينية في سوريا ولبنان والأردن بعد مناوشة حزيران. فقد كثرت العمليات التي كان ينفذها المقاتلون الفلسطينيون، ولا سيما في غور الأردن وجنوب لبنان. وخيضت معركة الكرامة في آذار سنة 1968 لتبرهن على أن الجيش الصهيوني جبان ولا يصلح للقتال. فقد صده الدفاع صداً يشينه، على الرغم من الفارق الكبير في التسلح الذي هو لصالح الصهاينة. ويبدو أن العسكرية شيء ليس من سوس النفس اليهودية التي تهيمن على العالم بواسطة المال وليس بواسطة السلاح. يقول شاعر تراثي:

ومن يبتدع ما ليس من سوس نفسه

يدعه، ويغلبه على النفس خيمـها

(أي طبعها)

ومن بين عمليات المقاومة المتميزة في تلك الآونة عملية نفذها شاب ياباني ينتمي إلى المنظمة التي كان يقودها وديع حداد، ذلك الرجل النادر النظير في تاريخ الشعب الفلسطيني منذ وعد بلفور حتى اليوم. فلقد هبط ذلك الشاب الياباني في مطار اللد سنة 1972، وفتح النار

على الصهاينة فقتل بمفرده أكثر من مائتي صهيوني. وفضلاً عن ذلك، فقد عمدت جماعة وديع حداد إلى اختطاف الطائرات، وذلك ابتغاء الحصول على المال اللازم من أجل تمويل المقاومة.

وبينما كانت لهجة الإعلام العربي قبل مناوشة حزيران تتجه نحو إزالة الكيان الصهيوني من الوجود، فقد ظهرت بعد تلك المناوشة، لهجة جديدة تتلخص في «إزالة آثار العدوان». وهذا برهان آخر على وجود تآزر يهدف إلى تلقيمنا الكيان الصهيوني لقمة إثر أخرى. ففي الحق أن الناس ما كانوا يتحدثون عن أي حل سلمي قبل المناوشة الحزيرانية، أما بعدها فقد صار الحل السلمي ملهجاً تلهج به غالبية الناس. إنهم يتبعون سياسة الخطوة إثر الخطوة التي صرح بها كسنجر، وزير الخارجية الأمريكي، ذات يوم. ويبدو أن المتحالفين يراعون حدة الصدمة التي أثارها نشوء الغيتو الصهيوني على أرض فلسطين في نفوس الناس.

*　　　*　　　*

ولم يكن الصدام الذي حدث في تشرين الأول سنة 1973 مفاجئاً تماماً، إذ وصلت أخباره إلى الشارع قبل حدوثه بشهر تقريباً. وفي صبيحة السادس من ذلك الشهر، وهو اليوم الذي بدأ فيه الصدام، صرح زميل من زملائي في المدرسة بأن القتال سوف يندلع في ذلك النهار حصراً. وأخذنا نهزأ منه ونتهمه في عقله. ولكنني عندما استيقظت من القيلولة بعد ظهر ذلك اليوم فوجئت بأن القتال كان قد بدأ بالفعل وأن الدروع السورية قد اجتاحت معظم الجولان في هجوم خاطف مباغت.

ومن الغرائب أن يندفع الجيش المصري فيحتل الضفة الشرقية لقناة السويس، بسرعة وبخسائر طفيفة جداً، وأن ينتشر إلى الشرق منها على مسافة إثني عشر كيلو متراً ثم يتوقف فجأة عن الحركة. إنه لأمر مريب حقاً. فقد رفع خبراء عسكريون روس تقريراً لعبد الناصر قبل وفاته ببضعة أشهر جاء فيه أن الطرف الذي يريد أن يعبر قناة السويس سوف يتكبد ستين ألف إصابة ثمناً لذلك العبور. ولكن الجيش المصري انقض وعبر القناة بخسائر طفيفة جداً، حتى كأنما لم يكن هنالك قتال.

أما خرق الدفرسوار الذي صدّع الجبهة المصرية فقد كان مفاجئاً تماماً، كما أنه تم بغير خسائر تقريباً. وهذا يعني أن الصهاينة والمصريين قد عبروا القناة مجاناً، وذلك خلافاً لما جاء في التقرير الروسي الآنف الذكر. وحين قال الشاذلي، قائد الجيش المصري، إثر خرق الدفرسوار: "الآن انتصرت مصر"، فقد نحيّ أو أقيل على الفور. ويبدو أن إبادة القوات الصهيونية التي عبرت قناة السويس باتجاه الغرب قد كان أمراً ميسوراً جداً. وهذا هو معنى كلمة الشاذلي. ولا خروج عن سمت الحقيقة إذا ما صرّح المرء بأن كل ما جرى في منطقتنا منذ عام النكبة حتى اليوم محاط بالريب، بل مغمس فيه. أما هدفه فهو أن يجعل الغيتو الصهيوني عضواً طبيعياً في منطقتنا المنكوبة بالأنذال.

وسرعان ما تم الفصل بين القوتين المتناوشتين على الجبهة المصرية، وذلك بعد مفاوضات قصيرة تمت بين الطرفين. ولكن مثل هذا الفصل لم يحدث على الجبهة السورية إلا

في أيار سنة 1974، وبعد مناوشات سميت باسم حرب الاستنزاف، وهي التي خيضت في آذار ونيسان من تلك السنة نفسها. وفي حزيران قام نكسن، الرئيس الأمريكي بزيارة إلى سوريا، فكان أول رئيس بين رؤساء أمريكا يقوم بزيارة كهذه.

وبعد مضي أربع سنوات أو خمس تفاوضت مصر مع الصهاينة في مخيم داوود ابتغاء إنجاز السلام الذي سمي باسم "سلام الشجعان". وأسفرت تلك المفاوضات عن تحييدها وإخراجها من حلبة الصراع جهرة، بل إلى إخراجها من التاريخ كله. وبذلك انحصر الصراع بين الصهاينة والفلسطينيين، بالإضافة إلى المقاومة اللبنانية وحدها.

إن حقيقة ما يجري في زمننا هي أمر لا يصدقه الذهن، وذلك لشدة شبهه بالكذب، بل إن ما يجري في منطقتنا منذ سنة 1948 حتى اليوم لا يتساوق مع نواميس التاريخ التقليدية المعروفة. ولكن هذا الإفراط في الاستخذاء والإذعان، الذي هو نتيجة تحالف بين الصهيونية والإمبريالية، من جهة، وبين الطبقة الخائنة التي تسود العالم العربي وتملكه من جهة أخرى، هو برهان حاسم على أن درجة الموت الذي نزل بالعرب هي أكبر بكثير مما كنا نتصور إثر مناوشة حزيران. ومما ينبغي التأكيد عليه أن التحالف بين الطبقة السائدة وبين الغربيين قد كان معلناً ومعروفاً للقاصي والداني طوال الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين. فكثيراً ما كانت الأدبيات السياسية في ذلك العهد تتحدث عن "الحليفة بريطانيا". ولا تخفى أهداف هذا التحالف على الأطفال، فهو يبتغي أن يتقاسم ثروات المنطقة، وأن يوزعها توزيعاً غير عادل على الإمبريالية والصهيونية والطبقة الخائنة، طبقة أصحاب المليارات التي تملك العالم العربي وتتحكم بمصيره.

* * *

لعل في الميسور القول بأن دائرتنا الجغرافية هي أقدم دائرة حضارية في التاريخ كله. وهذا يعني أن حجم الشيخوخة التي حلت بها لا بد له من أن يكون جسيماً، وذلك وفقاً لنظرية ابن خلدون التي تُضمر فكرة مؤداها أن مستقبل الكائن الحي تتناسب عكساً مع مدة ماضيه. فما له ماض طويل ليس له سوى مستقبل قصير. ولا ريب في أن هذه الشيخوخة هي العلة الحقيقية لما نحن عليه من خنوع واستخذاء، أو من ذلة ومسكنة. ولا يخفى على أي لبيب أننا خسرنا الجوهر الصافي الذي كنا نصنع به التاريخ في غابر الزمان.

بيد أن الإنسان النزيه المنصف لن يقدم لدائرتنا الحضارية هذه إلا تحية إجلال وتقديس، وذلك نظراً لما أنجزته من إنجازات جليلة في سالف الدهور. فلقد شيدت الأهرام منذ سبعة وأربعين قرناً. ولهذا، فإنها قد آن لها أن تشيخ. والأهم من ذلك كله أن منطقتنا، ولا سيما مصر، هي التي اخترعت الإنسان. قبلنا لم يكن هنالك سوى الوحش وحده، وبعدنا رجع الوحش إلى التاريخ مرة أخرى، وذلك في أوروبا وأمريكا، ولكنه ظهر هذه المرة مدججاً بالجحيم نفسه.

فالحضارة الأورو ـ أمريكية وليمة دسمة، ولكنها مسمومة ومذاقها مرير، بل قل مخموجة باليهود، وبشرور من جميع الأصناف. كما أنها تنبع من الجريمة والإرهاب، ومن افتراس الإنسان للإنسان (الهنود الحمر، هيروشيما، فلسطين، كوريا، فيتنام، الجزائر... إلخ).

وهذا يعني أن الأقوام الضعيفة قد دفعت ثمنها من لحومها ودمائها. ومن العجائب أن يوصم بوصمة الإرهاب كل من يعترض على هذا الإجرام الإمبريالي، بل هو يستحق الموت بقنبلة وزنها تسعة أطنان ونصف. وهذا يعني أن الضحية هي الإرهابية وليس الجلاد.

ثم إن جملة أمجاد تلك الحضارة الأورو ـ أمريكية التي أسميها حضارة السخام، وأحياناً حضارة السفلس والإيدز، تتلخص في أنها اخترعت محركاً آلياً. وطورت النار من وضعها البدائي إلى وضعها النووي أو الجهنمي. لقد اخترعوا الجحيم ورسخوه على الأرض، أولئك القراصنة الإرهابيون الذين نسجهم الشيطان على مغزله الخاص.

أما منطقتنا فابتكرت الضمير الإنساني الذي يجهله أعداؤنا جهلاً مطبقاً. وبذلك أولجت العلاء في جوف الكائن الحي، فصار الإنسان ممكناً، أو صار كائناً يسعى نحو كماله في هذه الدنيا التي يعتورها النقص ويلازمها إلى الأبد بحكم طبعها المادي الساقط الدنيء، والذي يفرز الشرور والفساد واليهود على نحو تلقائي خالص، وإن كان لا يخلو من خير وسعادة في القليل من الأحيان. وحسب هذه الدنيا خِسة وحقارة وحِطة وسماجة أنها أنتجت التوراة التي أراها أحقر كتاب ألفه الإنسان منذ اختراع الكتابة حتى اليوم.

فمما يعسر فهمه أن اليهود يمنحون أنفسهم الحق في الاعتداء على فلسطين مرة أخرى، وذلك لأنهم اعتدوا عليها في غابر الأزمان، وفقاً لمزاعم توراتهم التي لا تزيد عن كونها ركاماً من السخافات والترهات. وما كان لهذا العدوان الجديد أن ينجح لو لم يتحالفوا مع القراصنة الإنجليز ورعاة البقر الأمريكيين والطبقة الخائنة التي تملك العالم العربي وتسوده وتهين كرامته كل يوم. وفي الحق أن لليهود قدرة استثنائية على التحالف مع القوى التاريخية الصاعدة. فقد تحالفوا مع الفرس أولاً، ثم مع الاسكندر المكدوني، عدو الفرس، وذلك بعدما أفل نجم الأخمينيين. ولكنهم لم يربحوا كما ربحوا جراء التحالف مع رعاة البقر، هذا إن لم تكن علاقتهم برعاة البقر علاقة حيازة وامتلاك.

ولا يغرنك أن راعي البقر يسكن في ناطحة سحاب، فقد ظلت روحه روح همجي مثير للتقزز والاشمئزاز، أو روح كائن متوحش بلا ضمير ولا وجدان. فهو يقتل دون أن يرف له جفن. وها هو ذا يمارس مجازر وحشية لا مسوغ لها البتة في كل من أفغانستان والعراق. وذات يوم أكد كريمر الأمريكي المتخصص بالحضارة السومرية أن التاريخ بدأ في سومر، أو في الشطر الجنوبي من بلاد العراق. وها هو ذا التاريخ ينتهي في أمريكا. ويبدو أن ما يجري في العراق اليوم هو ضغط النهاية على البداية. يقيناً إن راعي البقر يمارس الشر من أجل الشر حصراً، وذلك لأن في ميسوره أن ينهب العراق، بل ثروات منطقتنا بأسرها، وذلك من خلال التواطؤ والتآمر مع خونتها، ودون حروب على الإطلاق. ولا مبالغة في الذهاب إلى أن كل جوع في الأرض، وكل بؤس وكل شقاء أو ألم، سببه أمريكا ويهودها الجشعون الذين لا يشبعون حتى لو شبعت الغيلان والسعالي والتنانين ووحوش الغابات والقفار.

وعندي أن أدق وصف لابن خلدون يتلخص في أنه شاعر يقف على الأطلال ويرثي حضارة شاخت، فراح يراقب موتها بأم عينه. ولكن من شأن النظرية الخلدونية أن تخول المرء حق الزعم بأن التاريخ البشري الذي نشأ على ضفاف النيل والدجلة والفرات، سوف

يتحتم عليه أن يتفسخ ويتزنّخ في تلك الأصقاع النائية التي تسمى الولايات المتحدة، حيث يستقر الشيطان متمترساً وراء أسلحة الاجتثاث الشامل.

ولكن ما هو ناصع لكل ذي عين سليمة أن التعب قد تبدى على الامبريالية بكل وضوح. فقد خسرت الزخم الذي كان لها أثناء حرب الفيتنام، وهي التي جرت في زمن الندرة، أو قبل الفورة النفطية. وها هي ذي جيوش الإمبريالية في العراق موهونة ذابلة، وكل ما في الأمر أن الاستجابة ليست على مستوى التحدي، أي أن المقاومة لا تتمتع بالحجم الكافي للتصدي الماحق. فمنطقتنا التي خذلت هنيبال قديماً عادت فخذلت العراق في الزمن الحديث، تماماً كما خذلت فلسطين قبل العراق. ويبدو أن العالم كله قد أصيب بالإنهاك، فما عاد في ميسوره أن يجعل وطيس القتال حامياً وفقاً لعادة البشر المألوفة منذ أقدم عصور التاريخ وحتى بداية الفورة النفطية قبل ثلاثين سنة، أو زهاء ذلك.

ومما هو معلوم أن كاتباً ألمانياً اسمه أوسفالد اشبنغلر قد ظهر في أوروبا إثر الحرب العالمية الأولى، ونشر كتاباً عنوانه "انهيار الغرب"، يصف فيه انحطاط الحضارة الأورو- أمريكية ويتنبأ بزوالها. ومما ينبغي التأكيد عليه أن ذلك الكاتب الألماني سرق، ولكن على نحو جهري، روح نظرية ابن خلدون، دون أن يذكر اسمه قط، مع أن كتابه ينم عن دراية موسوعية بالثقافة العربية والتاريخ العربي. كما سبق للفيلسوف الألماني، فريدرك هيغل، أن اختلس لباب نظرية ابن خلدون وبثها في كتاب له عنوانه "فلسفة التاريخ". ولا بد من أن يكون هيغل قد طالع المقدمة باللغة اللاتينية، أما اشبنغلر فقد كان في ميسوره أن يطالعها باللغة الألمانية، لأنها ترجمت إلى تلك اللغة سنة 1910.

والذي أبتغيه من هذا كله يتلخص في أن الحضارة الأورو- أمريكية قد اكتهلت بالفعل، وأنها أخذت تجنح إلى الشيخوخة على نحو لا يخفى. وربما جاز القول بأنها أوشكت على الولوج في طور الهرم. وفي هذا الانحطاط يكمن خلاص الأمم الضعيفة من الإمبريالية ويهودها.

*   *   *

ولعلني أملك حق الزعم بأنني عشت في طورين متباينين: ما قبل الفورة النفطية، وما بعد الفورة النفطية. أما الطور الأول فهو زمن آداب وفلسفات، وأما الطور الثاني فهو زمن اللاشيء حصراً. وبفعل تأثير الزمن الأول في شخصيتي رحت أمارس الكتابة والنشر. وذلك في برهة الانتقال من الطور الأول إلى الطور الثاني. وإذا ما انخرط المرء في أية تجربة فإن خروجه منها ليس بالأمر الشديد السهولة. فلقد رحت أكتب وأنشر منذ بداية الطور الثاني مع أنه زمن يرقاني أو سرطاني استطاع أن يشوه الكتابة وأن يحجر عليها في جوف الانحطاط.

لماذا كتبت في زمن أصيب بداء الكتابة، حتى لم يبق أمي أو جاهل إلا ومارسها أو قارفها، فابتذلت وأسيء إليها كثيراً حتى صارت المشاركة فيها صنفاً من أصناف العار أو قلة الحياء؟

إنني أكتب بسبب حاجتي إلى علالة لهذا الاغتراب المرير. ففي قناعتي التامة أن قيمة أي امرئ ينبغي أن تحددها درجة شعوره بالاغتراب في هذه الدنيا التي لا تصلح مضافة للروح الحساس بتاتاً. ولكنني، إذ أكتب، مع شعوري بلا جدوى الكتابة، فإنني أشعر كما لو

أنني أبلط البحر، أو أحرث واحداً من القطبين المتجمدين. ففي الوقت الراهن صار من يكتب على نحو جيد مثل من يكتب على نحو رديء، بل صار من يكتب كمن لا يكتب بتاتاً. أن تكتب أو ألّا تكتب سيان. وهكذا تساوى سقف البيت مع أرضيته. وهذا هو الانحطاط بالضبط. إنها حضارة الصناعة التي تعطب جذور المنجزات الصانعة لكل ما هو نفيس.

فمن أبرز الأدلة على انحطاط الكتابة في هذه الأيام العجاف أن كل مدينة في العالم العربي طافحة بالكتاب من جميع الأصناف، ومع ذلك فإنك لا تجد بين أكداس هذا الحطام المتراكم كاتباً واحداً من الجيل الراهن يستحق أن تعنى بقراءة نتاجه، كله أو بعضه، وذلك على النقيض من الجيل السالف يوم كنا نقرأ جبران والحكيم ومحفوظ والعقاد والرافعي بنهم. وفي دمشق الراهنة تملك أن ترى اليوم مائة شاعر على الأقل، ولكن ليس فيهم واحد يستحق أن يسمى شاعراً بتاتاً. وههنا يمكن للمرء أن يتذكر قول الرسول (ص): "الناس كإبل مائة ليس فيها راحلة." فمع أن ناموس الاستثناء يعمل في كل مكان وزمان، فإنه في حال من العطالة والبطالة في هذا الزمن الملعون بالقحل والضحالة وغثاثة الأحوال.

ولقد كان لي هدف آخر من الكتابة، وهو أن أعيد للغة العربية رونقها وحيويتها وانديا معجمها العملاق الذي قلصه كَر الزمان، وأن أسترد لها فتاءها الربيعي المفعم بالحيوية والاخضلال، بعدما أفناه التداول وأحل محله العقم والرهل ورثاثة الحال، أو قل بعدما تخثرت اللغة في صيغ الجمود خلال أزمنة الاتضاع، وأن أثبت ما فحواه أنها ما برحت صالحة لشرح الحياة وزخمها وعرامها المتفوّر في طور الصناعة ووطأة المال الساحقة، وذلك على الرغم من أنها ـ مثل كل شيء حي ـ محكومة بمثنوية اليانع والذابل، أو الجانح إلى الزوال.

فحين تصير اللغة حروناً، أو ثقيلة الحراك، أو فقيرة إلى الرشاقة والحيوية، فهذا يعني أن شخصية العصر قد صارت جافة فاترة محرومة من يخضور الروح. حين تصير اللغة حروناً، أو رطانة لاغية، كما هو حال الشعر في هذه الأيام، فاعلم أن الحياة قد سلف لها أن تخثرت قبل ولوج اللغة في طور الحرن. وهذا هو حالنا في الزمن الراهن: أسلوب ناشف في عيش خاثر. وبذلك حيل بيننا وبين انتاج أي أدب رفيع طوال السنوات الثلاثين الأخيرة.

وكثيراً ما آمنت بأنني أنا واللغة سيان، أو قل كيان واحد يند عن كل انشطار أو فكاك، بل إنني أتماهى معها إلى حد الوحدة والالتحام. وكثيراً ما قلت في سري: أنا اللغة واللغة أنا. كما اعتدت أن أضيف في سري أيضاً: إن اللغة هي منفاي الطوعي الذي أتمطى في جوفه، بل أجد جميع ما يلزمني من حاجات روحية. إنني أوثر العيش في داخل اللغة ومجالها على الاتصال بالواقع الذي تستشري فيه الشرور من جميع الأصناف، ويعبث الأنذال بمصيره على هواهم، دون أن يعترضهم أحد بتاتاً. وعندي أن مساحة عقلك هي مساحة معجمك أو لغتك بالضبط، ما دمت لا تملك أن تفكر بغير اللغة ولو قليلاً.

وإنني حين أقول اللغة فلا أعني سوى اللغة العربية حصراً، وذلك نظراً لقدرتها الاستثنائية على تخريج الباطن ومدخراته التي هي مقومات الماهية الإنسانية الأصلية. أما اللغة الإنجليزية التي أستطيع أن أكتب بها دون صعوبة فلا يعنيني أمرها، وذلك لأنها لا تزيد عن كونها صنفاً من أصناف الرطانة الهمجية المنفرة. ولعل في الميسور الزعم بأن الثورة الروحية هي العامل الأول في إحياء أية لغة أو إنعاشها وجعلها قادرة على مجابهة الحرن اللغوي والعجمة أو الحبسة، أو على ممارسة الكلام الذي ميزة ابن عربي عن القول، وجعل له

آثاراً كآثار الكلوم التي هي الجروح، وذلك في الجزء الثاني من "الفتوحات المكية". إن بزوغ الكلام من مشرق الذات، أو من صميمها المركزي، هو وحده القادر على بعث اللغة وجعلها تتدفق بغزارة أو بحيوية لا تتمتع بها إلا البكارة الهيفاء، وهو وحده القادر على تخليص القول من كل غثاثة ورثاثة، أي على تحويله إلى كلام، أو إلى أدب رفيع.

ومع ذلك كله، فأنا نادم كثيراً لأنني مارست الكتابة والنشر منذ تموز أو آب سنة 1973، ولا سيما ابتداء من آذار في السنة اللاحقة، عندما رحت أنشر بعض المقالات المتخصصة في الشعر الجاهلي. وعلة هذا الندم أن الكتابة لم تأتني إلا بالقليل من الكرامة والمال، وبالكثير من العداوة التي يكنّها لي أناس مرضى حاسدون وحاقدون. إنهم من ذلك الصنف الذي لا يطيق أن يراك تلبس قميصاً جديداً، بل هو لا يقبلك إلا إذا رآك جثماناً جامداً آخذاً بالتفسخ. وربما كان رجال ذلك الصنف السقيم يتضورون من شدة الامتعاض لأن أنفاسك طبيعية وتلقائية. وفي الحق أنني كثيراً ما أرى العداوة، ولكن دون أن أرى أسبابها. إنها الغيرة التي لا تتحمل وجود الآخر إلا إذا كان جثة هامدة وحسب.

ومما يحبط الكاتب حتى العياء في هذا الزمن الأعجف أن الواقع يمنح الصدارة، لا للكاتب الجيد، بل لذاك الذي يعرف كيف يسوّق نفسه عن طريق الانتهاز وبيع الشرف. وهذا مؤشر من شأنه أن يومئ إلى انحطاط الكتابة نفسها، لأنه حال طرأت عليها في الجيل الأخير. ثم إن من شأن هذه اللامبالاة أن تطمس الفرق الرابض بين الرفيع والوضيع. وكل طمس للفرق هو محو للقيمة، إذ إن الفرق يستتب في صميم القيمة على الدوام، وإن السعي وراء الفروق هو الذي صنع الحضارة البشرية بأسرها.

ومما يفلّ عزيمة الكاتب الجاد كذلك أن عالم الكتابة يضم من الطفيليات من لا وظيفة له سوى الإساءة لكل كاتب أصيل. فثمة من يوشك دمه أن يتخثر حين يراك قادراً على أن تكتب جملة مفيدة. نعم، لقد وصل بهم المرض إلى هذا الحد المخيف. كما أن هنالك من الطفيليات من يسطو على الأفكار بصفاقة متمادية. وأسوأ أولئك المنتحلين هو ذلك الصنف الذي يسرقك أولاً ثم يشتمك بوقاحة وصلف لا ينمان إلا عن فجاجة ودناءة في مجمل شخصيته. ويصدق عليهم ما جاء في سورة آل عمران: "ويحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا."

ومما يحز في النفس أن من يشتمك ليس شيئاً بتاتاً، لأنه طفيلي لا يساوي قلامة ظفرك، فتسكت عنه لأنه بغير قيمة. نعم، قد يشتمك من ليس من شأنه أن يحصل على شيء إلا بالغش والسرقة والتزوير والانتهاز. وأسوأ الناس ذلك الصنف الذي ينتسب إلى الدين وإلى الانتهاز في آن واحد. ولا أدري كيف يوفق هؤلاء المختلون بين هذين الحدين اللذين تفصل بينهما مسافة فلكية. فلئن أغضيت على الإهانة امتعضت أيما امتعاض، ولئن ساجلته أكسبته قيمة أو مكانة هو ليس أهلاً لها. وفي الحالين أنت خاسر وهو رابح بالتأكيد. ومن المصائب أن تخسر أنت ويربح لص أو منتحل. إن هؤلاء اللصوص هم جزء من عار الجنس البشري ولا وظيفة لهم إلا الإساءة لكل ما هو مشرق وجميل. ولا يكمن عيبهم في أن الواحد منهم لا يعرف أن يكتب جملة مفيدة، بل في أنه لا يسمح لأحد بأن يكتب بتاتاً، اللهم إلا إذا كتب مالا قيمة له ولا مذاق. وههنا يمكن لك أن تتذكر قول المتنبي: "وأغيظ من عاداك من لا تشاكل".

فكيف السبيل إلى إنشاء سد صيني يفصل بين كاتب ولصيص؟ أو كيف السبيل إلى حماية الكتابة من الطفيليات التي لا تجيد إلا عرقلة الكتابة والإساءة لكل من يجيدها؟ فكثيراً ما

ترى تويفهاً نكرة يتصدى لمن هم أكبر منه ويفندهم بغية البروز على حساب شهرتهم أو الاغتذاء بيخضورهم الخصيب، فيصير كالأشنة التي تتسلق على سنديانة وتتغذى بنسغها وحيويتها الدافقة.

ويلوح لي أن الجنس البشري قد شاخ حتى بلغ سن اليأس، أو دخل طور الهرم. وأي جَداء من الكتابة الأدبية في عالم شائخ تهدده الأسلحة النووية القادرة على إحالته إلى حطام، بل إلى هشيم. أو يعقل أن يكون هذا الزمن الملفق عصر كتابة أو تفكير؟

* * *

وقبل أن أختم الحديث عن هذا الطور الفتيّ من أطوار عمري، أرى لزاماً عليّ أن أنوه بفتاة أظهرت لي حباً صادقاً، ولكنني لم أعرها أيما اهتمام. فيا لتلك الشابة اليافعة اليانعة التي ناولتني فتاءها، ازهرار عمرها، فنبذتُه في لحظة الجمدة وتخثر النفس، بل في حال من أحوال الغياب يشبه الإغماء. يا إلهي! كيف رفضتها مع أنني قد كانت لي خبرة طويلة سالفة بذلك الشعور الذي يسمى الحب، وهو الذي يند عن كل عبارة مهما تك مشحونة بطاقة الابتكار. أجل إن الحب الذي يقبل التعبير، أو الرضوخ لسلطة اللغة، ليس حباً بأي حال من الأحوال، مع أن الوظيفة الأولى للغة هي أن تجعل كل ما هو إنساني قابلاً للتداول والتعميم. فهو ما لا يجوز أن يقال فيه شيء سوى أنه يعيد صيغة الكائن البشري أو يخلقه من جديد، وذلك لأن النشوة شديدة القدرة على إزاحة كل سلب.

وشعرت حينما رفضتها بأن قوة سرية، ولكنها قسرية أو مستبدة، وتربض في قعر نفسي السحيق، هي التي دفعتني باتجاه ذلك الموقف الصدودي الجافي أو المتشنج. وربما ظنت المسكينة بأنني نبذتها لأنها قبيحة أو دميمة، أو ربما لأنني متكبر أو متعجرف لا يرضى بأمثالها. والحقيقة أنني تجمدت حين لاحت على أفقي فلم أعرف ماذا أصنع. كما أنني لم أدرك بعد سبب ذلك التجمد المقيت.

وعندي أنه ما من امرأة قبيحة بتاتاً. كما أعتقد بأن النساء والأنوار والأزهار ثلاثة أجناس متكافئة أو متماثلة. وهذا يعني أن النجمة والوردة هما أشبه الكائنات بالمرأة، التي هي جميلة على الدوام. ولا مرية في أن جمال المرأة أعمق أثراً في النفس من جمال الطبيعة، بل حتى من جمال النور، أو جمال البدر ساعة بزوغه.

واليوم، إذ تفح أفاعي الندم في قرارة نفسي، فليس لأنني خسرت صديقة كان يمكن لها أن تقدم لي شيئاً من الفرح والبهجة، بل لأنني شعرت، وما زلت أشعر، بأنني أهنت فتاة، أي ماهية، لا تستحق سوى التكريم. فيا للندم الذي لا ينضب ولا يزول بتاتاً، ولا عزاء له ولا سلوان، على الرغم من مضي عشرات السنين على ذلك الحادث المؤسف الذي سوف يظل يزعجني ما حييت. ولقد أنبني ضميري وبكتني وجداني حتى هدني التأنيب والتبكيت. وجل ندمي مأتاه أنني شعرت بأنني ابتذلت كرامتها أو إنسانيتها، وامتهنت هويتها الباطنية الجليلة.

ولا زوغان عن الحقيقة إذا ما زعمت بأن ضميري كثيراً ما يجلدني بعنف ودون رحمة. فأنا ما زلت نادماً أشد الندم حتى اليوم لأنني ذات مساء من شهر تموز سنة 1955، ذهبت لأشاهد فلماً تعرضه سينما الأمبير في بعلبك. وفي الشارع صادفني عجوز مهدم بائس

وطلب مني ثمن رغيف خبز، بعدما أكد لي أنه جائع جداً. وكان في حوزتي خمسة قروش كفيلة بشراء رغيف، ولكنني كذبت وقلت بأنني لا أملك أية نقود، وذلك لأنني أردت أن أشتري السجائر بتلك القروش الخمسة. وها أنا ذا اليوم أقسم بأغلظ الأيمان أن ضميري ما انفك يعذبني حتى الآن من أجل ذلك الفعل الخسيس، مع أن خمسين سنة وثلاثة أشهر قد تصرمت بعد ذلك اليوم.

وعندي أن الندم العميق الذي يعيشه المرء إثر فعل لا إنساني مقيت، والذي يصحبه تبكيت شديد يشوي الكبد، هو أكثر الأشكال أصالة لتجلي الإنسان الصرف بكامل ماهيته ونقاء صيغته. إن الإنسان الصرف أو المشترك بين جميع الكائنات البشرية هو زبدة الماهية الإنسانية أو خلاصتها. ولهذا، فإنه تلك الهوية الباطنية التي تند عن سلطان الزمان وفروق المكان، أي هي لا تعنو للتاريخ ولا للجغرافية.

ولكن الندم الذي يطلق أفاعي التبكيت وعقارب التوبيخ لتفح في عقر النفس، بل لتلسع وتنهش، لا يسعه أن يكون نقمة وحسب، إذ لا ريب في أنه نعمة حقاً، وذلك لأنه فعل إنساني نبيل من شأنه أن يؤكد الماهية الإنسانية بوصفها ماهية الطيبة والشرف والأصالة، أو ماهية الضمير الذي هو سلطان باطني متعال، والذي إذا حذف من بنية الإنسان الداخلية فلن يظل فيها سوى اليهودي وحسب. فالندم لا يكتفي بإنجاز وظيفة تطهيرية، بل إنه ينتج في النادم شعوراً فحواه أنه كائن بشري على الأصالة.

ومما يحز في نفسي اليوم أنه لم يكن هنالك أي ضير في أن أستقبلها بالترحاب، ما دام الأمر لا يتعدى تخوم الكلام، كما هو الحال في جميع تلك التجارب الغرامية التي عشتها من قبل. فليتها، بعد مضي عشرات السنين، تقرأ هذه السطور الراهنة وتقبل اعتذاري الذي أقدمه بكل حرارة وصدق وإخلاص ونية طيبة، بل بصنف من أصناف التوبة الدينية الخاشعة. ولئن تأكدت من أنها سامحتني وغفرت لي إثمي، فإن أسفي سوف يفتر أو يبوخ حتماً. والأهم من ذلك أنني، بعدئذ، سوف أفارق الحياة وأنا أقل سخطاً على نفسي التي لا أدري لوجودها أيما غاية أو وظيفة عليا. فأنا واحد من الساخطين في هذه الدنيا، والساخطون أناس يعيشون في الجحيم، بينما يعيش أهل الانضباط البقري في رخاء الحال وهدأة البال.

أجل، إنني ساخط غاضب حاقد ناقم، وذلك لأن العالم ليس على ما يرام، بل هو لن يكون على ما يرام، ولو بعد سنين وسنين. وإنني واحد من أولئك القلائل الذين يعدون هموم العالم همومهم الخاصة. ولئن راودني أي شعور بالسعادة في هذه الدنيا المفعمة بالألم والشقاء، فإنني سوف أزدري نفسي حتى يخترق الازدراء مخ العظام، وذلك لأنني سوف أكون قد خنت البؤساء والمتألمين والمتسولين والجرحى والأسرى والمرضى والسجناء والأرامل واليتامى والحزانى والمنكسرة قلوبهم، وجميع الذين يكابدون الشقاء والآلام في هذه الدنيا الدنية.

وإنني أعتقد بأن أعظم لحظة أنتجتها الآداب العالمية هي تلك التي يركع فيها راسكولنكوف أمام سونيا الساقطة، وذلك في رواية "الجريمة والعقاب" لدستويفسكي. وحين سألته قائلة: ماذا تفعل، إن أنا إلا ساقطة، أجابها قائلاً: إنني أركع أمام الشقاء البشري كله.

يقيناً، إن هذا الركوع هو ما أرغب في أن أمارسه، بل في أن يمارسه كل إنسان، وذلك لأن هذا الركوع ينم عن الحساسية الأصلية، أو عن الماهية الإنسانية في أنبل مستوياتها.

ولئن كانت البشرية تصر على أن تظل سادرة في غيها، فإن الطبيعة قد أنعمت عليّ حين زودتني بنزعة التقزز والاشمئزاز، وهي النزعة التي تمكنني من ازدراء الوجود كله، وذلك نظراً لخوائه الذي لا يقل عن كونه عاهة تعتور وجدان الإنسان الأصلي، وهو من لا يرضيه إلا ملاء أُترع بكل محتوى نفيس. فكيف يمكن لأي حساس أن يحترم هذا العالم الذي أحاله الغربيون إلى مزبلة منتنة، وذلك بعدما صنعوا منه مسلخاً يسلخون فيه جلود الشعوب؟

ولكن، أفي غير غابات الكلس تلعلع أغرودتي؟

وفي جوف سريرتي، في عقر نفسي، يربض صنف من أصناف اللامنطق يعسر تحديده، بل قل إنه يند عن سلطان اللغة، ولا يذعن لقدرة الذهن على التمثل والاستيعاب. وفي مذهبي أن هذا التموّر المضطرب، بل الهائج أحياناً، له منطقه الذي يخصه وحده دون سواه، مع أنه اللامنطق نفسه، أو قل إنه نظام الفوضى على وجه الحصر. وإني لأعرفه جيداً حين أشعر بأن نفسي قد راحت تنوس بين سورة السخط وبين دفء الوجدان خلال ساعة واحدة.

ولعل هذا اللامنطق السديمي المعكور أو المختلط، بل المتشابك تشابك الأغصان في دغل أفريقي، أن يكون هو الذي رفض تلك الفتاة النعناعية التي جاءتني، ذات يوم ربيعي، وهي تحمل الشمس في يمينها والقمر في شمالها، بل تحشد الديمومة كلها في برهة واحدة، كما لو أنها خلاصة الوجود وزبدة الناس طراً، إذ لعلها استطاعت أن تختزل العيش بأسره في ساعة وحسب. أما كان في ميسوري أن أحسبها تعويضاً، أو شيئاً من التعويض، عن جميع الآلام التي كابدتها طوال السالف من عمري المكروب. ولكن اللامنطق المستتب في قعر نفسي قد حال دون ذلك.

فكثيراً ما أشعر بأن كتلاً من ظلمات رطبة، قد تند عن كل استيعاء، تربض بصلادة في الأس الأول لنفسي الغائمة، وتنداح في السديم وراء طائلة اللغة، مهما يك زخمها، أو عرامها وشدة سورتها. ولكن أهم ما في أمر تلك الظلمات المتراكم بعضها فوق بعض أن صوراً عجيبة تنهمر من جوفها الموحل الحالك المتمور بما لا أدري، بل قل إنها، بين الفينة والأخرى، تفعم بالي بكآبة كالحة لو نزلت بالجبال لدكتها وأحالتها إلى هباء. وهذا يعني أنني دائم التوتر بين الصافي والمعكور، بين المنطقي وما يند عن كل منطق. وفي بعض الأحيان يستعر في ساحة نفسي هيجان العربدة أو يندلع بركان الدمدمة، بل كثيراً ما يموج فيها قار أسود فيحيل نسغ الروح إلى مصل خاثر لا خير فيه.

يقيناً، إن العلم بالنفس هدف ممتنع، بل محال.

أن تخسر ما لا يقبل الاسترداد بتاتاً، ذلك هو بالضبط ما يثير في الوجدان أقسى شعور باللوعة، ولا سيما أثناء نوبة وجد عاتية لا يشبهها إلا الإعصار. وفي الحق أنه ما من شيء يملك أن يهدّئ هذه النوبة أو الجائحة. ومع أن الماضي قد تصرّم واستحال إلى أشباح، أو إلى ذكريات وحسب، فإنه قد خلّف كابوساً سقامياً ذا طبيعة حصارية خانقة.

واليوم، تقضمني حسرة كامدة على الخسارات التي لا تعويض لها بتاتاً، ولا سيما حقولنا التي خسرناها لحساب اليهود المتطفلين على بلادنا كما تتطفل الأشنة على بعض الأشجار. وتنهشني وحوش الأسف حتى لأنني أرضى بأن أتنفس هذا الهواء الذي أتقاسمه مع الأشرار الذين لا يحصيهم التعداد. وكل ذكرى من تلك الذكريات البارزة قد صارت صخرة تربض على صدري وتحبس أنفاسي، بل هي تعضني كما تعض الذئاب فرائسها التي لا حول

لها ولا طول. وكثيراً ما أشعر بأني طارئ على هذا العالم الشديد القدرة على التغريب، أو بأنني في حالة إدخال مؤقت أو عابر، بل حتى بأنني سجين حكم عليه بالسجن مدى الحياة، ولكنه ينتظر يوم الخلاص الذي لا يلخصه شيء كما يلخصه قول أبي العلاء:

يا نفس، يا طائراً في سجن مالكه   لتصبحن، بإذن الله، مسروحا

الخاتمة

أثار الفكر الأوروبي في القرن الثامن عشر هذا السؤال المباشر الواضح: أيهما أهم، العقل أم الخيال؟

أما نحن في الشرق فلدينا شيء ثالث هو الضمير، ونؤكد ما فحواه أن الضمير أو الوجدان هو أنفس ما في الإنسان من مقومات باطنية. فثمة بين الناس من يجوز لك أن ترى ضميره نوراً أو يخضوراً، ولكن ثمة من ترى جوفه مصنوعاً من رماد محروق. ولقد كنا نحن الفلسطينيين ضحايا لهذا الجوف الرمادي الفارغ من كل طيبة ومحبة، بحيث لا يملك البتة أن يرتقي إلى أفق الإنسانية. ولا غلو إذا ما زعمت بأننا الشعب الشهيد في هذا العالم المنسوج من القسوة والشراسة وخواء الوجدان. فلا يملك أن يفرز الطيبة إلا باطن يتألق كالماس أو يتضرم كالياقوت الأحمر. ولا ريب في أن الطيبة هي العنصر الصانع للفرق بين الكائنات البشرية والكائنات البقرية. والطيبة هي المحبة والإخاء والتعاطف مع الإنسان المألوم. كما أنها العدالة التي يبحث عنها البشر في جميع الأزمان، إذ يتعذر أن تكون هنالك عدالة حيث لا وجود للطيبة. وكذلك هو حال الضمير الذي أراه الاسم الآخر لكل من الحب والعطف والحنان والعدل. وكل من افتقر إلى الطيبة أو إلى الضمير فهو اليهودي حصراً. ولهذا، يتوجب أن يكون كل منهما الهدف النهائي للجنس البشري بأسره.

ولقد جاءت من أقاصي الأرض كائنات تشبه البشر، وتفتقر إلى الطيبة والضمير معاً، وتحالفت مع اللؤم الذي يسمى الإنجليز، ثم طردتنا من ديارنا بذريعة مؤداها أن وطننا الغالي هو "أرض أجدادهم"، وذلك مع أن توراتهم نفسها تؤكد أننا أقدم منهم في فلسطين، ومع أن غيابهم عن بلادنا طوال ألفي سنة تقريباً، هو سبب كاف لإسقاط حقهم في أرضنا، إن كان لهم حق أصلاً. إلا أن لدي أملاً كبيراً، بل قناعة جازمة، بأن الغمة سوف تنجاب عن فلسطين، وبأن الكيان الطفيلي الذي بناه الغربيون لليهود على أرضنا المغتصبة سوف يزول ذات يوم زوالاً كلياً ونهائياً وإلى أبد الآبدين، ولكن بعدما يتعرض لكارثة مروعة لا خبرة للتاريخ كله بمثلها من قبل.

وأهم ما في الأمر هو أن هذا الفعل الذي أراه الأكثر لؤماً بين جميع الأفعال الشريرة التي فعلت تحت الشمس منذ فجر الزمان حتى اليوم، أعني تشريدنا بعد طردنا من ديارنا العزيزة، هو ما قد أفضى إلى هذا البؤس أو الشقاء الذي عشته في طفولتي وصدر شبابي، والذي عرضته بإيجاز في هذا الكتاب الراهن. وبهذا الفعل الموغل في اللؤم برهن اليهودي على أنه متطرف في خِسته ونذالته، كما أنه يجهل الإخاء الإنساني جهلاً مطبقاً ونهائياً. وعندي أن من لا يملك أن يكون إخائياً أو حميماً لا يعوّل عليه، بل هو لا قيمة له بتاتاً.

ففي مسرحية "تاجر البندقية" يطرح شايلوك هذا السؤال على غير اليهود: "أفلا ندمى إذا وخزتمونا؟" يقيناً، إنه سؤال يضمر ما فحواه أن اليهودي يشعر بنقصه وخساسته. وعلى أية حال، فإنني أتساءل: هل ينزف اليهودي دماً إذا ما جُرح؟ وأكاد أجزم بأنه لا ينزف سوى مصل، أو ربما سوى القيح والمِدّة والصديد. فاليهودي الذي جعل الشرور تستطير على هذا النحو الدافق، حتى أرغم الحياة على أن تخسر عذوبتها ورونقها، هو كائن يتعذر أن تفعم

شرايينه الدماءُ الحمراء القانية، لأن من كان دمه أحمر قانياً هو إنسان معافى أو سويّ، ومن كان كذلك يبادر ويساعد الناس بدلاً من أن يلحق بهم أي أذى.

* * *

قد لا أجافي الحقيقة إذا ما زعمت بأن سر الإنسان لا يكمن في شيء إلا في قدرته على تحمل الشقاء والألم والعذاب، وليس في العقد الجنسية التي جعل منها علم النفس الحديث أوثاناً تتمركز حولها البنية النفسية كلها. وعندي أن هذا العلم المغلوط، بل المغمى عليه، لم يفهم النفس ولم يدرك منها شيئاً بتاتاً، اللهم إلا ذلك المعطى المباشر الذي يستوعبه جميع الناس. والذي فات علماء النفس أن النفس تدرك بالحدس، وليس بالتحليل الذي اتخذوه منهجاً يبحث عن مكبوتات وعقد رسخها التحريم. لقد أصيب علم النفس بالهذيان الناجم عن حمى الجنس التي ألمّت بأهل القرن العشرين. وهذه الحمّى هي التي أعمت النفسانيين عن طرح هذا السؤال العظيم: لماذا كانت التراجيديا أرقى أشكال الأدب؟ أو هذا: لماذا كانت المسيحية هي الديانة الأكثر انتشاراً في العالم كله؟ وكان من شأن تلك الحمّى أن ألهت علم النفس عن التساؤل عن معنى المأتم والعرس والعيد والنزهة والرحلة، وما إلى ذلك من ظواهر تحتل مكانة مرموقة في نظر الناس وحياتهم. وإن من فاحش الغلط أن يقول علم النفس بأن هذه الظواهر هي بدائل الفعل الجنسي المكبوت، إذ لا بدائل قط، ولا شيء يغني عن ذلك الفعل بتاتاً.

وربما جاز لي أن أزعم بأن الحقيقة السرمدية النفسية الأولى هي شهوة السيطرة والتحكم والحيازة والاستحواذ، وليس العقد النفسية، أو الجنسية، أو ما شابه ذلك من أباطيل وأكاذيب وترهات خاوية، أو لا معنى لها بأي حال من الأحوال. إنها شهوة السلطة والمال، أو الملكية الخاصة التي يظن الكثيرون أنها الاسم الآخر للحرية، أو قل إنها اشتهاء الترف والتنعم بجنة على الأرض. وإن هذه الشهوة التي تنتج السعادة والهناء لفئة من الفئات البشرية إنما تنتج العذاب والشقاء لفئة أخرى أشد اتساعاً من الفئة الأولى وأكثر عدداً. ولقد كنا نحن الفلسطينيين من هذه الفئة الأخيرة التي شقيت كثيراً كي يتمتع اليهود بشطر كبير جداً من ثروات المنطقة العربية. إننا ضحية لجور متطرف في شدته وميله إلى الإرهاب والإجرام، وذلك في عالم متوحش دميم.

* * *

وبما أن سر الإنسان يكمن في تحمله لآلامه وشقائه، كانت التراجيديا أرقى أجناس الأدب بأسرها. ويؤسس هذا الفنَ النبيل مبدأٌ فحواه أن على الهيَف أن يتحمل الجَلَف، كما تسهم في إنشائه غاية مؤداها أن يخبر القارئ أو المتفرج سمواً روحياً يفوق كل سمو آخر. وإن هذه الحقيقة الكبرى، أعني أن الإنسان ما وجد إلا لكي يطيق ويتحمل، هي السبب الفعلي الذي جعل كلاً من المسيحية والبوذية، اللتين تتأسسان ـ كالإنسان تماماً ـ على مبدأ الألم والعذاب، تنتشران حتى غمرتا نصف العالم أو أكثر بقليل. ومن تأمل المسيحية، وهي ديانة نبيلة شريفة، وجدها مزيجاً من البوذية التي ترفض الحياة، لأن الألم يحايثها ويلازمها على نحو ديمومي لا خلاص لها منه بتاتاً، وكذلك من بعض المقومات الوثنية التي كانت سائدة في منطقتنا، ولا

سيما في بابل وجبيل ومصر الفرعونية، وأخص بالذكر ذلك المقوِّم الذي سماه الوثنيون عذابات الإله. فلئن كان الإله نفسه يتعذب وفقاً لمذاهب الوثنيين (وناقل الكفر ليس بكافر)، فمن ذا الذي لا يتعذب في هذه الدنيا الموجوعة دون انقطاع؟

وإنني لأتساءل دوماً: كيف تحملت هذا الشقاء المرير الطويل الذي عرضته، بل عرضت جزءاً منه فقط، في الكتاب الراهن؟ وكيف عشت بغير طفولة، إذ أتلف اليهود طفولتي وأحالوها إلى رماد. نعم، رمدوا طفولة آلاف الأطفال الفلسطينيين دون أن يرعش لهم ضمير، وذلك لأنهم بغير ضمير حقاً. فيا لطفولتنا التي بددها اليهود أوعطبوها، ولكن دون أن يتحرك أحد لصالحنا على أي نحو جدي. ومن الغرائب والعجائب أن يكون اليهود وحدهم ذوي إرادة في هذا العالم الذي لم تعد له أية إرادة قط، لأنه لم يعد سوى آلة لها زر يضغط عليه اليهود فينفذ ما يشاؤون. وللمرء أن يستنبط هذه الحقيقة مما يجري اليوم في بلاد الرافدين التي هاجمتها عشرات الدول امتثالاً لأوامر اليهود. فهل من مصلحة لأمريكا أو لبريطانيا في هذه الغزوة التي أراها أعجب غزوة في التاريخ كله؟

ويلوح لي أن اللعنة لا تفارق الحياة بتاتاً. ويبدو أن الحياة قد اتخذت، منذ ابتداء أمرها، قراراً نهائياً بأن تكون وضيعة خسيسة مغمسة بالحقارة ودناءة الحال، ولولا هذا القرار الباطني العميق لما خلقت اليهود والغربيين لينجزوا ميولها الرامية إلى جعل الشقاء أو المرارة أولى مثالب الزمن الحديث، بل أبرز صفاته على الإطلاق. أجل، لقد حل العذاب محل العذوبة في هذه الأيام ذات المذاق المرير. ولو أن الحياة شاءت الرفعة أو السمو منذ ابتداء وجودها لخلقت شعوباً أخرى، رفيعة سامية بحكم سجاياها وكنه صيغتها الباطنية، بحيث يتطور جوهرها ويتنامى باتجاه العلاء والطيبة والضمير الصافي أو المتألق كالماس. وهذه فكرة من شأنها أن تُضمر ما فحواه أن وجود اليهود والغربيين الإرهابيين في هذه الدنيا المترعة بالسقم والسماجة، هو برهان حاسم على أن الحياة وضيعة حقيرة بحكم طبعها حصراً.

ولا يُقبل المرء على الدنيا إلا بسبب عقله المبتسر الخديج، ولكنه يرفضها رفضاً نهائياً حين ينضج تمام النضوج. وما يعنيه النضج الكامل هو أن يتسلح الذهن بالطاقة التدميرية التي تصير سجية من سجاياه بعدما يرفض كل عزاء، مهما يك نوعه. إنها طاقة الرفض الكلي والاجتثاث الشامل التي تبذ جميع الأسلحة الاستئصالية، والتي لا تصمد أمامها أية بنية حتى لو كانت لها متانة الأهرام. فهل بعد الاكتهال أو الاكتمال سوى العدم؟

وها أنا ذا أكرر هذه الأفكار التي جاءت في مدخل الكتاب الراهن لأنني أرغب في توكيدها، وذلك نظراً لشدة أهميتها في زمننا هذا. فهي تليق به تماماً، ولا ريب في أنها من مفرزاته.

فما من شيء البتة يملك أن يسوّغ نفسه أمام العقل الناضج الحساس، أو البالغ إلى نهاية الشوط في نموّه الخاص، وما من شيء، مهما يك حصيناً، يملك أن يصمد في وجه الهجمات الصقرية أو التعديمية التي يشنها الذهن الكامل على الكينونة أو على المحسوسات، ولا سيما حين يطرح عليها سؤال اللماذا، أو سؤال العلة والغاية، السبب والنتيجة، أو من أين وإلى أين، وهو سؤال أشعر بأن جدران الكون توشك أن تتصدع وتنهار حين أطرحه على نفسي أو على الأشياء.

وينبغي أن يكون هنالك بلوغ عقلي مثلما أن هنالك بلوغاً جسدياً. أما علامته فهي تسديد سهم اللماذا نحو أكباد الكائنات. وكل من لم يفعل ذلك فهو دون سن البلوغ الوجداني أو الداخلي. ولا يصلح للحياة إلا من كان دون ذلك السن. أما البالغون فلا يصلحون لشيء سوى الموت الذي يكرهه ويخافه غير البالغين. وهذا يعني (1) أن العقل في لبابه وكنهه، أو عند برهة كماله، ليس سوى قوة رفض تدميرية هائلة عاتية، ولا هدف له إلا استئصال الجذور التي تزود الحياة باليخضور، و(2) أن الإنسان إذا اكتمل فإنما هو يكتمل من أجل لا شيء، اللهم إلا أن يكون من أجل العدم، و(3) أن الحياة إنما تتأسس على النقص، فلا يرضى بها إلا من كان دون سن النضج. وهذا كله يعني أن الذهن أو العقل يتماهى تمام التماهي مع مقولة الوعي بوصفه إدراكاً لحقيقة الحقائق التي تتلخص في أن الحياة لا يحوزها ولا يهيمن عليها إلا الأشرار أو اللئام والأخساء، ولا سيما الانتهازيين ومن هم بلا ضمير. ولهذا فإنها مرفوضة عند الحساسين والناضجين ومن يتصفون بالرأفة والحنان. وههذا بالضبط، أقصد حين يستوعي الوعي حقيقة الحيازة والهيمنة، وأن البشر يتغذى بعضهم بلحم بعض، فإن الدوار يندلع في النفس حتى تغثى وتوشك أن تدخل في الغيبوبة. وهذا يعني أن العقل الحساس لا يواجه سوى الاغتراب حين ينضج، وأن كل وعي رفيع هو وعي مغترب حتماً، وأن الاكتئاب ضريبة الحساسية التي بها قبل سواها يصير الإنسان إنساناً.

إن العقل البشري خطر كبير على الحياة، وهو لا يقبلها إلا إذا كان في طور الفجاجة والنقصان. فلكم أخطأ هيغل الألماني حين زعم أن العقل والوجود (العالم، الواقع، الحياة) يضمهما تماه مطلق. وهذه فكرة سبقه إليها ابن عربي حين قال بأن الإنسان نسخة عن الأكوان، أو خلاصة الوجود بأسره. ألا يدل مثل هذا المذهب على تخثر الحساسية والرعش، أو على تحجر الفلسفة الذهنية التي تبتعد كثيراً عن الذاتية، أو عن المقولات الباطنية، ولا سيما مقولة الوجد ومقولة الوجدان؟ فلا بد من أن يؤكد كل من كان من أهل الحضور على أن التنافي القائم بين العقل والحياة له من الحجم والثقل ما لا تخطؤه العين مهما تك كليلة. ولكن الفؤاد هو الذي يصاب بالعمى في كثير من الأحيان. ولعل في ميسور أي حساس أن يبلغ إلى هذا التنافي من وجود الظاهرتين المهيمنتين على العالم الراهن، أعني الصهيونية والإمبريالية. كما أن في مقدور أي امرئ من أهل الحضور أن يصوغ مذهباً كبيراً يستنبطه من جملة الكوارث التي أنزلها الغربيون ببقية الجنس البشري، ولا سيما إبادة الهنود الحمر، وقنبلة هيروشيما، وكارثة فلسطين، ونهب ثروات الأمم المنهوبة. ولا عيب في المذهب إذا جاء متشائماً، ما دام لا يكذب على الحياة، كما يفعل الذهن الخديج.

ولكن ما هو عجيب حقاً، بل أعجب العجائب وأغرب الغرائب، أن الحياة أنجبت العقل الذي يفنّدها ويدحضها وينفيها غير آسف عليها، ولكن فقط حين ينضج فيدرك أن أمه الدنيا ليست رؤوماً ولا حنوناً ولا دافئة العواطف والوجدان. "أريد رحمة، لا ذبيحة." هذه هي كلمة السيد المسيح. ولكن الحياة قاسية في الغالب الأعم، وتجهل الرحمة والحنان في كثير من الأحيان.

ومن راقب التجربة البشرية جيداً رأى أن الناس ينحّون العقل جانباً بإفراط، بل ينفونه من حياتهم أحياناً إلى أقصى المنافي، أو لعلهم يشكمون زخمه ويَفلّون سورة عرامه بسبب خطورته الممكنة أو المستترة، فيكتفون بالحد الأدنى منه، وهو الحد اللازم لتدبير الضروري

من شؤون الحياة. فما رأيت شيئاً أُقصي من حياة الكافة مثلما أقصي الفكر (العقل، الذهن، الوعي) الذي هو نعيم الإنسان وجحيمه في آن معاً، والذي نبعثره ونبدده هباء منثوراً، دون أن نشعر بحماقة ما نفعل. وبهذه التنحية أو التحييد الذي تفرضه خطورة العقل الناضج وميله إلى الإعدام واجتثاث المحسوسات أو الموجودات، فإننا نتحول إلى كائنات في طور الوساطة بين البقر والبشر. وهذا يعني أن التشيؤ والتخثر صفتان من صفات الحياة البشرية، ولا سيما في هذه الأيام التي تهودت حتى مخ عظامها.

* * *

وثمة أدلة مقنعة كثيرة على أن الحياة يلازمها منذ البدء قرار باطني بأن تكون سافلة حقيرة بائسة، يتحكم بها البذاء بدلاً من الحياء، أو لعله البذاء الذي يستتر بالحياء ويتخذه أداة للتكتم على حقيقته التي لا تخفى بتاتاً. ولعل من أبرز تلك الأدلة واقعة مؤداها أن الإنسان، أو الكائن الذي يلوب على الأنس، على الحميم المفقود، أو على كل ما هو من سلالة الهناء، لا يزيد عن أنه كائن مكذوب أو مدحور، اللهم إلا في القليل من الأحيان. فلعله الكائن الوحيد الذي تتملكه الأشواق ويكويه الحنين العارم إلى ما يملأ ويعني. وهو يكن للجمال شعوراً خاصاً قد يكون الاسم الآخر للحب الصادق الحنون. ولكنه أشبه بمن يحسب السراب ماءً في هذا العالم الذي يتسفل أو ينحط دون انقطاع. إنه دائب السعي وراء الحرية والحب والجمال والصدق أو الإخلاص، إذ إن هذه الماهيات الأربع هي أعز المشاعر على فؤاده الظامئ باستمرار، ولكنه يندر أن يلاقي غير العبودية والبغضاء والدمامة والكذب والتزوير. ومع ذلك فإنه لا ييأس ولا يسأم ولا يكل ولا يمل، ويستهويه صيد الأشباح الذي يمارسه طوال عمره، في الغالب الأعم، ولكنه عبثاً يحاول ملء الخواء الذي لا يقبل الامتلاء أصلاً. وقد يجوز الزعم بأن سعي الإنسان وراء هذه الأغراض الأربعة النبيلة دون أن يواجه سوى الخيبة والإحباط، في معظم الأحيان، ليس من شأنه إلا أن يجعل الجهد البشري نوعاً من أنواع الكدح المنخلع، أقصد جهداً منهكاً بلا مردود، ولا يؤدي إلى غير البؤس والشقاء، كما أنه يحرم الحياة من كل عذوبة مستساغة. فماذا عساه أن يكون مذاق العيش بغير حرية ولا حب ولا جمال ولا صدق أو إخلاص؟ يقول ابن ميادة:

فلا خير في الدنيا إذ أنت لم تزر
حبيباً ولم يطرب إليك حبيب

وعبثاً تطارد الأمل في مثل هذه الحال، لأن الأمل يكون قد أدار لك ظهره وارتحل. وحين يرتحل الأمل فإن التجربة برمتها تكون قد استحالت إلى فراغ.

وربما جاز القول، على أرضية هذه الحقائق السالبة كلها، بأن عالمنا، عند مستواه الروحي، ليس سوى قفر يتصحر باستمرار. وهذه حقيقة أكدها عبيد بن الأبرص في القرن السادس الميلادي، وذلك في معلقته التي لا بد لها من أن تكون نتيجة خبرة طويلة بالحياة، كما أكدها إليوت، الشاعر الإنجليزي المشهور، في قصيدة له عنوانها "اليباب"، نشرها بعد الحرب العالمية الأولى بقليل. وقد لا تملك جميع القوى، سواء منها العامل والخامل، أن تقدم

لعالمنا، أو لزماننا، أيما إسعاف جدي على المدى المنظور. فمما لم يعد خافياً حتى على الأطفال أن الغربيين قد أحالوه إلى مزبلة وانتهى الأمر حتى إشعار آخر. كما أن الأمم سوف تظل مشطورة إلى شطرين، أولهما لاحم أو مفترس، وثانيهما فريسة يلتهمها الشطر الأول ويغتذي بالنيء من لحمها دون أن يرف له جفن. وما من أحد يدري متى سوف تتغير هذه الحال، إن كانت سوف تتغير قبل مضي آلاف السنين.

ولست أجد داخل هذه البراري القاحلة أية واحة، أو ظُلة تظلني، سوى الكتاب وحده. ومن المؤكد أن الصداقة والحب واحتان وارفتا الظلال. ولكن هيهات أن تكون هنالك صداقة أو حب في عصر يوثّن السلعة ويؤله المال. والأسوأ من ذلك كله أنك عبثاً تنقّب في نخاريب هذا الزمن المتصحر الروح عن أية خميرة للمستقبل أو بذار قد يشطأ منه نبات أخضر في غضون جيل أو جيلين. ومن العجائب أن يكون الشظف أرأف بالإنسان من الترف. ومن المفارقات التي لا رفع لها أن الصدق والمحبة لا يكونان إلا في أزمنة الندرة والعوز، أو في التجمعات البشرية التي تعيش على الكفاف. إن هيمنة المال إلى هذا الحد القارض القاضم لروح الإنسان، أو لماهيته حصراً، قد أفضى إلى شرور كثيرة منها فقدان المحبة، بل خسران الحياة لعذوبتها وطراء ملمسها، ومنها حرمان الذائقة من الرهف الذي هو الينبوع الأكبر للخيال والوجدان الناضجين اللذين هما المصدر الأول لكل أدب وفن عظيمين. وربما كان هذا الأمر هو السبب الذي قد يعلل انحطاط الآداب والفنون جملة في زمن الصناعة المتطورة العالية، وعلى مدى الكرة الأرضية بأسرها تقريباً، كما أنه قد يكون السبب الذي جعل اليهود، عبيد المال، بعيدين البعد كله عن الآداب، ولا سيما الشعر.

يا إلهي الطيب! لماذا كان الواقع على هذا الوجه الصفيق الدميم ولم يكن على الوجه الآخر العادل الرحيم الجميل؟

* * *

ومع التزامي الوثيق بكل ما عرضت للتو، فإنني أرغب في الإبقاء على الأمل يملأ فؤادي بالترقب وانتظار المعجزة. ومما هو معلوم أن الأمل هو الشيء الوحيد الذي بقي في علبة بندورا بعدما فتحته وتطايرت منه جميع الشرور. ولكنني أشعر بالحاجة إلى مجمل أنوار الكون وقواه بأسرها، وذلك لكي أحوز الأمل أو جزءاً من متعلقات الأمل. نعم، الأمل الذي هو صنو الماس وصفاء الماس، وحليف النور واليخضور وكل ما هو زاهر أو خصيب. إنه من الجمال بحيث لا يشبهه إلا بزوغ البدر في ليل دامس بهيم. فحين يهاجر الأمل، يكون كل شيء آخر قد هاجر أو نأى، حتى لا يظل على المائدة سوى صحن من رماد.

ولكن، يا إلهي الطيب! متى يمكن للعين أن تستمتع بأقواس قزح منصوبة في عَنان السماء؟

مخيم اليرموك

تشرين الأول، سنة 2005